٢٦ الأعمال الكاملة

فراس السواح

الوحي والنص

قراءة في المشروع المحمدي



لوحة الغلاف للفنان أبو صبحي التيناوي

1888- 1973

فراس السواح

الوحي والنص

قراءة في المشروع المحمدي





الطبعة الأولى 2024

لِـ دار التكوين للتأليف والترجمة والـنشر
هاتـف : 112236468 00963 ـ تلفاكس : 112257677 00963
ص. ب : 11418، دمشق ـ سوريا

ولِـ دار التكوين للنشر والتوزيع
الإمارات العربية المتحدة ـ الشارقة
المنطقة الحرة ـ مدينة الإعلام والنشر
هاتـف : 509066598 00971

taakwen@yahoo.com
taakwen1973@gmail.com

فاتحة

إن النص المقدس بطبيعته نصٌ إشكالي، لا فرقَ في ذلك بين ثقافة وأخرى، هذه الإشكالية تتأتى من عدة عوامل نلخصها فيما يلي:

1- يستخدم النص بنى لغوية وأسلوبية قديمة تتصل بالعصر الذي دوّن فيه، فهو ينتمي إلى ماض بعيد وبيئه ثقافية واجتماعية مغايرة لبيئة قارئ اليوم.

2- من حيث انتمائه إلى جنس أدبي هو أقرب إلى الشعر من نواحٍ عديدة، ففيه اختصار وإيجاز، وزخم في الكلمة والعبارة، وبلاغة ومُحسّنات بديعية ولفظية، الأمر الذي يبعده عن النثرية التي تميزُ الأساليبَ الحديثة في الكتابة.

3- فالكلمات في أي لغة محتملة للمعاني، والأفهام تذهب في طلبها كل مذهب، كما تتعدد دلالات الكلمة الواحدة والعبارة الواحدة على الرغم من أن قائلها أراد بها معنىً واحداً. وتتعقد هذه المشكلة كلما اتسعت الشقة الزمنية بين المرسل والمستقبل.

4- رسالة النص عاطفية تتوجه إلى القلب قبل العقل، من أجل زرع الإيمان في تجاوز لطرائق البرهان. فإذا أُخضعت بعد ذلك إلى التأمل العقلي صار الإيمان والبرهان بحاجة إلى ما يؤلف بينهما.

5- يتطرق النص إلى موضوعات تتأبى من حيث طبيعتها على الصياغة بمفردات اللغة الاصطلاحية المعدة أصلاً للتعامل مع المحسوس والملموس، ولذلك فإن هذه المفردات تبدو عرجاء كلما ابتعدنا عن ظاهر الموجودات في محاولة للتعبير عن بواطن العلاقة بين النهائي واللانهائي، الدنيوي والقدسي، المحدود والمطلق. فهنا لا تجد اللغة بداً من اللجوء إلى الإشارات والرموز، وتتجه مقولات النص إلى التعبير عن نفسها عبر ومضات ولمحات وإشراقات.

6- على الرغم من ارتباطه بالزمن الذي نشأ فيه والمكان، إلا أن النص في الديانات العالمية التي تعتمد على التبشير بين الأقوام كافة، يسمو على الزمان والمكان ويتوجه إلى الإنسان في كل زمان ومكان، فيبدو جديداً في كل آن.

7- يحتوي النص على معان قريبة مباشرة ظاهرة، وأخرى خافية باطنة تتفتح تدريجياً بمرور الوقت وبالتطور المعرفي للإنسان، أي إن سعة التجربة المعرفية لكل عصر سوف تقود إلى إدراك مستويات جديدة للمعنى خافية على الأولين.

إن إشكالية النص المقدس هذه قد دعت بالضرورة إلى نشوء علم إنساني يعني بفهمه من خلال التفسير والتأويل. ينصّب جهد التفسير على المشكلات اللغوية، وترجيح معنى من المعاني المحتملة للكلمة الواحدة، أو دلالة بعينها من دلالات العبارة الواحدة، أما التأويل فيتابع العملية التفسيرية عندما تتعثر وتتحيّر، من أجل الكشف عن المستويات الباطنة تحت المستوى الظاهر، متزوداً بعلوم العصر وفلسفاته.

فالنص يصل إلى أفهامنا من خلال مجهود إنساني فيغدو نصاً ذا تفسير وتأويل. ومَثَله في الفيزياء مَثَل الضوء عندما يمر عبر موشور بصري زجاجي، فينكسر ويغير اتجاهه بزاوية انحراف يمكن قياسها. ولهذا السبب نجد أن كل رسالة دينية قام نبي بإبلاغها، تلبس في كل زمن لبوساً جديداً، وكذلك الأمر إذا ما انتشرت في المواطن الأخرى، حتى وإن بقي النص محفوظاً بصيغته البكر التي لم يمسها تغيير، لأن ثبات النص لا يعني ثبات المعنى، ولنا في تاريخ الأديان الكبرى خير دليل على ما نقول.

فالزرادشتية تقوم على تعاليم النبي زرادشت التي بثها في مجموعة أناشيد وتراتيل تُدعى الغاثا، وهي مدونة باللغة الإيرانية القديمة بأسلوب أدبي رفيع يتميز بالبلاغة والإيجاز. ولذلك فقد كان المؤمنون الزرادشتيون لا يقرؤون الغاثا إلا من خلال مجموعتين من الأدبيات الكهنوتية هما الأفيستا والأفيستا الصغرى اللتان تحتويان، وفق ادعاء الكهنة، على تعاليم زرادشت الشفوية وأحاديثه،

وعلى شروحات وتعليقات اللاهوتيين. وبمرور الوقت صارت الأفيستا نفسها قديمة وبحاجة إلى شرح فظهرت مجموعة الزند أفيستا، أي شروحات وتعليقات على الأفيستا. وهذا نموذج عن ما دعوته بالمجهود الإنساني الذي يضاف إلى النص ليجعل منه نصاً مفسراً ومؤولاً.

والبوذية التي نشأت في الهند على تعاليم البوذا الأصلية، راحت تتبدل مع انتقالها إلى الأقطار الأخرى، حيث وجد الكهنة أن صرامة تعاليم البوذا تجعل منها ديناً للنخبة القادرة على التزامها، فهي «هينا ـ يانا» أي «المركبة الصغرى» لأنها لا تتسع إلا للعدد القليل من المؤمنين الراغبين في خلاص الروح الذي وعد به المعلم، فقام هؤلاء بصياغة بوذية «الماها ـ يانا» أي المركبة الكبرى التي تتسع للعدد العديد، ولم تصل البوذية إلى الصين واليابان حتى تبدلت بشكل جذري وغدت ديناً موازياً للأصل.

ويخطئ من يظن أن اليهودية تقوم على تعاليم موسى في أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية، وبقية الأسفار التي تشغل في الترجمات الحديثة نحواً من 1400 صفحة، فبعد اكتمال الأسفار التي عُدت قانونية في القرن الثاني قبل الميلاد، وجرت ترجمتها في الإسكندرية إلى اليونانية وهي الترجمة المعروفة بالسبعينية، لم يغلق باب الاجتهاد والتطوير ونشطت حركة إبداع ديني انتجت ما يدعى بالأسفار التوراتية غير القانونية/ Pseudepigrapha، زاد عدد صفحاتها في الترجمات الحديثة عن عدد صفحات الكتاب القانوني. وتلا ذلك إنتاج كتاب التلمود في عدة آلاف من الصفحات، تلته المدراشات (مفردها مدراش) وهو أدب أسطوري تعليمي استمر تدوينه حتى القرن الثامن الميلادي.

والحديث عما حصل للمسيحية بعد صلب يسوع، من بولس الذي كان أول من قدم التفسير لحياة يسوع وصلبه في رسائله الأربعة عشر وأسس للاهوت المسيحي، إلى مرقيون من أواسط القرن الثاني الميلادي الذي قامت على أفكاره المسيحية الغنوصية، إلى آريوس ونسطور والمجامع الكنسية ومؤلفات آباء

الكنيسة، وصولاً إلى مارتن لوثر والإصلاح الديني في مطلع العصور الحديثة، حتى صار من الصعب على المرء أن يتبين وجه يسوع تحت كل هذا الركام مما دعوته بالمجهود الإنساني التفسيري.

وفي الإسلام تعهد الله بحفظ القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ الحجر: 9. ولكنه ترك للإنسان حرية التفسير: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝﴾ محمد: 24. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝﴾ النساء: 82. وقد سارت العملية التفسيرية في أكثر من اتجاه خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، فظهرت السيرة النبوية، وتكاثرت مؤلفاتها حتى زادت عن الخمسين، ولم يتوفر لدينا حتى الآن شواهد موضوعية على أي حدث من أحداثها. كما ظهرت مصنفات الحديث التي احتوت على نحو مئة ألف حديث نبوي، وجُلُّها ضعيف أو موضوع. وتوالدت تفاسير القرآن الذي فُهم على مراد المفسرين لا على مراد الله ورسوله، وعددها اليوم بين قديم وحديث يربو عن المئة، وعلوم القرآن، وعلى رأسها المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، التي عملت على تحويل فكر متلقي القرآن من تدبّر آي الذكر الحكيم إلى تأمل منعكساتها في فكر المؤسسة التفسيرية.

لقد أنتجت المؤسسة التفسيرية، بالأدوات التي ذكرتُ، الصيغةَ التي وصلتنا من الإسلام بعد أن وضع عليها الإمام الغزالي (ت عام 505هـ) بصمته في كتابه «إحياء علوم الدين»، وهي صيغة أنتجها الفكر الفقهي القياسي، ولم يشاركها في ذلك الفلاسفة والمفكرون والعلماء، بل تركوها لأولئك المدعوين بالعلماء الذين اتخذوا من الدين حرفة، وناصبوا الفلاسفة العداء وحرضوا الدهماء على حرق كتبهم. فكانوا في ذلك على النقيض من المؤسسة اللاهوتية المسيحية التي لم تقطع صلتها بالفلسفة خلال العصر الوسيط، بل أنتجت فلسفة مسيحية دُعيت بالفلسفة المدرسية/Scholastique لعبت أفكارُ أرسطو دوراً في تشكيلها، وكان لهم آراء في العلم وإن اتسمت بالمحافظة ورفض الجديد.

دعي هذا الإسلام لدى الباحثين الغربيين بالإسلام الأرثوذكسي، وهو مصطلح لا يحيل على الأرثوذكسية المسيحية كمذهب، بل يتضمن معاني المحافظة وتقديس الماضي والخوف من الجديد. فمنذ القرن السادس الهجري والإسلام يُعيد إنتاج نفسه، أو نسخ رديئة منه وأكثر مقاومة للتجديد، تجلت في العصر الحديث بالإسلام السياسي الذي أفرز الإسلام التكفيري والجهادي، الذي بات يشكل خطراً على المجتمعات الإسلامية لاسيما العربية منها والمجتمع الدولي.

لهذا فقد صار المسلمون، الذين يتهيؤون لدخول العصر الحديث وإنتاج الثقافة بدلاً عن استهلاكها، أمام خيارين؛ فإما أن يدخلوا العصر كمجتمع بلا دين كما فعلت أوروبا عندما تركت الدين للتقوى الفردية، وتحولت إلى مجتمعات لا دينية. أو أن يدخلوه مع الدين بعد مراجعة نقدية شاملة للموروث الديني بقضيه وقضيضهُ، من أجل إسلام يليق بالعصر، وأكثر اتفاقاً مع مقاصد القرآن الكريم. وهي عملية شاقة ومديدة تقع على عاتق المفكرين من مسلمين متنورين، وعلمانيين يرون في الإسلام هوية لا ينبغي التخلي عنها. إن ما سيلي من فصول كتابي هو مساهمة في هذا المشروع، أقدمها بمنهجية مؤرخ أديان يرى إلى الإسلام في السياق العام لمسيرة الإنسان المعرفية.

إن المحور الذي تنتظم حوله موضوعات الكتاب هو العلاقة بين الوحي والنص المقدس، وهي علاقة معقدة لأن الوحي شأن إلهي والنص بداعي طبيعته اللغوية شأن ثقافي إنساني، وبين مطرقة الوحي وسندان النص يتشكل مأزق النبي الذي سنشرح أبعاده عبر رحلة طويلة في تاريخ أديان هذه المنطقة.

* * *

الباب الأول

السيرة النبوية

في مقاربة نقدية

1- أخبار مكة بين التهويل والتهوين

يبتدئ نقاد الرواية الإسلامية عن الإسلام المبكر خطابهم بمقولة مفادها أن مكة لم يرد لها ذكر في كتب المؤرخين الإغريق والرومان، ولم تظهر على خرائط الجغرافيين الذين مسحوا منطقة الشرق القديم، والقديم المتأخر، وبينوا مواقع مدنها الكبيرة منها والصغيرة. وقد توصل بعض هؤلاء إلى نتيجة مفادها أن مكة عصر الرسول ليست مكة التي نعرفها، وراحوا يبحثون عنها في الشام وجنوب العراق، وكان على رأس هؤلاء المؤرخ الكندي دان جيبسون الذي توصل من خلال دراسته للتوجه نحو القبلة في المساجد التي بنيت خارج جزيرة العرب فيما بين القرن الأول الهجري والقرن الثالث، إلى نتيجة مفادها أن مكة عصر الرسول هي مدينة البتراء عاصمة دولة الأنباط، لأن قبلة تلك المساجد كانت تتجه نحوها بشكل تقريبي وليس نحو مكة الحجاز[1].

وفي الحقيقة فإن مكة لم ترد في أخبار المؤرخين ولم تظهر على خرائط الجغرافيين، لأنها لم تكن موجودة قبل نحو قرن من ميلاد الرسول إذا كان العام 570م هو عام مولده، ولم يكن فيها تجمع سكاني حضري وإنما خيام متناثرة قرب بنية معمارية بدائية مؤلفة من أربعة جدران حجرية قليلة الارتفاع وبدون سقف هي الكعبة، التي كانت مكاناً مقدساً لعدد من قبائل عرب الحجاز تقصده في مواسم الحج، لأنه كان بيتاً لله الإله الأعلى خالق السماوات

---

(1) لدان جيبسون في هذا الموضوع كتاب بعنوان القبلة الإسلامية المبكرة/ Euriy Islamic Qiblas، قدمه في برنامج تلفزيوني على حلقات تابعتها جميعاً. وقد لقي الكتاب نقداً شديداً من قبل أهل الاختصاص في الغرب، ولا أريد في هذا المجال سوى أن ألفت النظر إلى أن البتراء كانت مدينة غير مسكونة خلال القرن السادس الميلادي الذي وُلد في أواخره نبي الإسلام، على ما تؤكده كل التنقيبات الأثرية في الموقع.

والأرض[1]، وفيها الحجر المقدس الذي يعبر عن حضور الألوهة المعبودة في المكان[2]، كما هو الحال في المراكز الدينية الصحراوية المعروفة لنا من خلال التنقيبات الأثرية التي جرت في النقب وصحراء سيناء. وكانت بطون من القبيلة الموكلة بشؤون الحج تقيم تحت الخيام قرب الكعبة، وأقربها إلى الذاكرة العربية جرهم وخزاعة.

إن أقرب مثال تاريخي على بدايات مكة كمكان مقدس يجمع بين القبائل هو بدايات مدينة دلفي في اليونان القديم. فدلفي لم تكن في بدايات التاريخ اليوناني سوى معبد ديني متواضع مكرس لإلهة الأرض جايا، تقيم فيه عرافة تنطق بالنبوءات لمن يأتي ليستخير مشيئة الآلهة، ثم صار معبداً للإله الكبير أبوللو. ونظراً لقداسة المكان لدى القبائل اليونانية فقد عقدت بينها حلفاً دعي حلف الجيران Amphictyony[3] يوطد السلام بينها ويعطي لكل قبيلة الحق في الحج إلى المكان وإقامة الشعائر فيه. وخلال فترة ازدهار الثقافة اليونانية مع بدايات القرن الخامس قبل الميلاد، تحول المعبد المتواضع في دلفي إلى معبد ضخم أُلحق به مسرح وملاعب رياضية، كما تحولت دلفي إلى بلدة مزدهرة يسكن فيها الكهنة وخدام المعبد والمشرفون على النشاطات الرياضية والألعاب السنوية الدورية فيها.

هذا المثال ينطبق على مكة التي لم تكن بُعَيْدَ قرن من مولد الرسول سوى مكان مقدس لمجموعة من القبائل، ولم تتحول إلى مركز حضري إلا بعد أن استقرت بها قبيلة رعوية تدعى قريش قادمة من بلاد الشام بقيادة شخصية كارزمية تدعى قصي بن كلاب. فكان قصي أول من نقض الخيام وبنى البيوت

---

(1) يخبرنا القرآن الكريم عن إيمان العرب بإله أعلى خالق للسماء والأرض في أكثر من آية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لقمان: 25. ولكنهم مع ذلك يشركون به آلهة أخرى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يوسف: 106.

(2) من أجل رمزية الحجر المقدس في الكعبة وفي المراكز الدينية الصحراوية راجع كتابي: عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود.

(3) راجع معنى الكلمة على مواقع ويكيبيديا.

بعد أن أبعد قبيلة خزاعة عن المكان، على ما ترويه لنا المصادر الإسلامية. وأول ما بناه دار لاجتماع شيوخ بطون قريش وعددها عشرة، للتداول في شؤون الجماعة واتخاذ القرارات في الشؤون العامة، والتي عرفت بدار الندوة. وقصي هذا هو السلف الخامس للرسول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.

أما عن قدوم قريش من الشام، فيوثقه لنا المؤرخ جواد علي في الجزء الأول من كتابه «تاريخ العرب في الإسلام»، حيث يورد نصاً كتبه اللاهوتي السرياني نرسي Narsi المتوفى سنة 485م، يتحدث عن غزو قام به أبناء هاجر من الإسماعيليين على بيت عربايا (=عربستان)، وكانت الجماعة التي يدعوها قريش أشد أولئك المهاجمين ضراوة. وكانت بيت عربايا منطقة خاضعة للنفوذ الساساني، وشكلت منطقة صراع بين فارس وبيزنطة من أجل السيطرة عليها[1]. ومن الواضح هنا أن بيزنطة قد استخدمت القبائل العربية المقيمة في الشام في حربها على الفرس، فقد كانت بلاد الشام في ذلك الوقت تعج بالجماعات العربية الرعوية التي كانت تتجول في المنطقة، وبعضها كان قد استقر منذ أواخر الألف الأولى قبل الميلاد، وشكّل ممالك مزدهرة أسهمت بقوة في الحياة السياسية والثقافية للمنطقة (راجع بحث التكوين السياسي لعرب الشمال في قسم الملاحق من هذا الكتاب).

لقد شكلت شبه الجزيرة العربية (وسأدعوها اختصاراً بالعربية Arabia) متحداً جغرافياً وثقافياً مع سورية، لأن الصحراء العربية تتصل ببادية الشام التي تبدو على الخريطة امتداداً طبيعياً لها دون حواجز طبيعية[2]. ولذلك فقد كانت الجماعات العربية في حركة دائبة بين مواطنها والشام وفق فصول السنة، ففي

---

(1) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، الجزء الأول، دار الحداثة، بيروت النسخة الإلكترونية ص47-48. وهذا الكتاب غير كتابه الأول «تاريخ العرب قبل الإسلام».
من أجل بيت عربايا، راجع موقع ويكيبيديا على الشبكة، فقرة عربستان.
(2) إن من يسافر من الإمارات بسيارته إلى دمشق، كما فعلت عام 1982 يقطع 2500كم عبر السعودية سيجد نفسه على الحدود الأردنية دونما عائق طبيعي.

الشتاء كانت المناطق العشبية مثل نجد واليمامة المكان الأنسب لرعي الإبل والأغنام، وفي الصيف كانت المسالك إلى الشام مفتوحة أمامهم للبحث عن المرعى في البادية السورية. وكان وصولهم إلى أطراف المناطق الحضرية في الهلال الخصيب يترافق مع انتهاء موسم حصاد الحبوب، ويكون ما تبقى من سيقان القمح والشعير غذاءً مناسباً لأنعامهم، ويتم ذلك بالاتفاق مع المزارعين الذين يكونون في انتظارهم من أجل التبادل التجاري بين الطرفين، فأهل الوبر من الأعراب لديهم اللحوم ومنتجات الألبان، وأهل المدر من المزارعين لديهم الحبوب والقماش والمواد المصنعة. ثم إن بعض هؤلاء الأعراب لم يعد إلى العربية بل استقر وأسس تسع ممالك من أواخر الألف الأول قبل الميلاد وأواسط الألف الأول الميلادي هي: البتراء وأبطوريا، والحضر، وميسان، والرها، وتدمر، وحمص والحيرة، وغسان. لذلك فإن مصطلح «عرب الشمال» الذي استخدمته في كتابي هذا أعني به عرب العربية (من دون اليمن) وعرب الشام.

كل هذا يقودنا إلى القول بأن العرب لم يكونوا منعزلين سياسياً، لأنهم شاركوا في كل الأحداث التي كانت تجري في المنطقة، وبالتأكيد لم يكونوا منعزلين دينياً غارقين في ظلام الوثنية. ولعل ما يؤكد لنا هذه الحقيقة أن الديانة المانوية التي بشر بها الإيراني ماني انطلاقاً من موطنه في منطقة بابل أواسط القرن الثالث الميلاد قد انتشرت في الحيرة وفي جيوب متفرقة من العربية. وعندما صارت المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية في عهد قسطنطين (306-337م) تنصر عرب الشام، وتنصرت العربية الجنوبية وصار للمسيحية جيوب متفرقة لدى بقية عرب الجزيرة. وكان لليهودية وجود قوي في يثرب وشمال غرب العربية وفي اليمن (راجع التكوين الديني لعرب الشمال في قسم الملاحق).

نسوق كل هذه المعلومات لنقول إنه ليس من المستغرب أن يكون الموطن الذي وفدت منه قريش هو الشام، على الرغم من أن أسباب نزوحها إلى الحجاز تبقى غامضة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بخيار قصي بن كلاب الاستقرار في مكة دون غيرها من مناطق الحجاز. فمكة تقع في واد صخري ضيق غير ذي زرع،

وسفوح المرتفعات المحيطة بها عابسة لا خضرة فيها ولا شجر، وكل ما يمكن أن تنتجه أرضها هو بعض النخيل المقاوم للجفاف. فأمطارها نادرة وقد تنحبس شهوراً ثم تنهمر مدراراً لتحدث فيضانات مدمرة، وطقسها حار في الصيف لا يطيقه من لم يعتد عليه. أما عن مصادر الحياة فلا يوجد منها سوى بئر زمزم الملاصق للكعبة، وبعض الآبار البعيدة التي يجد الإنسان مشقة في نقلها. وقد حالت هذه العوامل الطبيعية دون نشوء مركز حضري متميز في الموقع، ولم تتحول مكة إلى مدينة حقةٍ حتى العصر الأموي.

أما عن الكعبة فقبل الحديث عن بنيتها المعمارية وأثاثها الطقسي، أود أن ألفت النظر إلى أنها لم تكن المحجة الوحيدة لدى العرب، بل لعرب الحجاز بشكل رئيس، لأنه كان للعرب محجات كثيرة إلى جانب محجة الكعبة منها: كعبة نجران، وكعبة شداد الأيادي، وكعبة غطفان، وبيت العزى، وبيت مناة، وبيت رضا، وكان بيت اللات في الطائف الأكثر شبهاً بكعبة مكة والأكثر منافسة لها. فقد كان بنو ثقيف يسترون بيت اللات بكسوة تضاهي كسوة بيت مكة، ويحتوي في داخله على صخرة بيضاء تضاهي حجر مكة الأسود، وكان سدنته يضاهون به كعبة مكة. هذه البيوت أو الكعبات هي الشكل العربي للمُعَلاَّة أو المرتَفعة في العبادات السامية، والسابقة على المعبد الضخم. وهي تتألف من بيت مربع أو مستطيل الشكل بلا سقف في معظم الأحيان، يوضع فيه النصب الحجري الذي يحل فيه الإله المعبود أثناء الطقوس، وأمامه مذبح أو بلاطة حجرية تراق عليها دماء القرابين. ثم حل الصنم محل النصب الحجري، أو اجتمعا معاً كما هو الحال في كعبة مكة حيث اجتمع صنم هبل والحجر الأسود.

لا نجد في كتب الأخبار وصفاً دقيقاً للبيت الحرام في الجاهلية ولا حتى في أيام الرسول، وخلاصة ما يمكننا استخلاصه منها هو أن قصي بن كلاب كان أول من جدد الكعبة وسقفها بالخشب وسعف النحل، وقد كانت قبله قائمة في فلاة لا يبني أحد حولها، فلما آل أمرها إليهم جعل لها حرماً حدد مساحته بعدد

من الأنصاب الحجرية[1] بلغت الثلاثمئة نصباً، ثم راح الناس يبنون بيوتاً لهم تدريجياً خارج هذا الحرم. وقد كان ارتفاع جدرانها تسعة أذرع، أي نحو أربعة أمتار، وبابها في الأرض، وفي بطنها عن يمين الداخل حفرة على هيئة خزانة يوضع بها ما يهدى إلى الكعبة من مال وحلية. وعلى الجدار المقابل للداخل عُلِّق رأس كبش منحوت له قرنان ضخمان[2]. وعلى الرغم من أن المصادر لا تتحدث عن مكان الحجر الأسود في ذلك الوقت، إلا أنني أرجح أن يكون في داخل الكعبة منصوباً تحت رأس الكبش، وبقي كذلك إلى ما بعد فتح مكة. عندما كثر الحجاج الذين يرغبون في لمس الحجر والتبرك به، أو حتى تقبيله كما روي عن الرسول أنه فعل، وصارت الحاجة ماسة إلى وضعه في الخارج، فنقل إلى مكانه الحالي في الركن الجنوبي الشرقي، في زمن لا أستطيع تحديده بدقة. وعندما تداعت جدران الكعبة في شباب الرسول إثر سيل عرم من تلك السيول التي عرفتها الحجاز، أعادت قريش بناءها وزادوا في ارتفاع جدرانها فبلغت ثمانية عشر ذراعاً، أي نحو سبعة أمتار، وسقفوها بالحجارة والخشب.

وقد بالغت المصادر الإسلامية في عدد الأصنام التي احتوت عليها الكعبة، وتبعها في ذلك الباحثون المحدثون. فجواد علي يقول في ذلك ما يلي: «لقد ضم البيت عدداً كبيراً من الأصنام يكاد يجمع شمل أصنام أكثر القبائل يومئذ حتى صار بانثيوناً، أو متحفاً، أو مخزناً تكدست فيه الأوثان من مختلف الأحجام والمواد، فيها المهذب المهندم المنسق، وفيها الوثن البدائي، وفيها الصور المصنوعة في بلاد الشام من أصل نصراني، تمثل القديسين والأولياء

---

(1) وعلى الرغم من أن أكثر المصادر الإسلامية تجعلها أصناماً، إلا أنني أرجح منطقياً أن تكون أنصاباً حجرية، لاسيما وأن الغموض يحيط بالفوارق بين كلمتي «وثن» و«صنم» في المعاجم العربية.

(2) وقد كانت القرون الضخمة رمزاً للألوهة لدى الشعوب السامية التي صورت آلهتها بغطاء رأس له قرنان. وخلال العصر الحجري الحديث نجد في بعض المقامات الدينية منحوتة جصية لرأس ثور أو كبش.

والأنبياء والملائكة، تحولت إلى أوثان معبودة في مكة توجهوا إليها لتحيتها ومناجاتها واكتساب عطفها ورحمتها... وجعلوا في دعائم الكعبة صور الأنبياء، فكان فيها صورة إبراهيم يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى وأمه في العمود الذي يلي الباب. وبعد إعادة بنائها أعادوا إليها صنم هبل وقرني الكبش، وكسوها حين فرغوا حبرات يمانية... وقد أزيلت الأصنام والأوثان عام الفتح وصور الأنبياء والملائكة، عندما أمر الرسول بطمسها عدا صورة عيسى وأمه مريم»[1].

فالكعبة هنا تبدو على صغر مساحتها التي لا تزيد عن 140م2، أشبه بمتحف للفنون لا مكاناً للعبادة، ولكن المؤلف يتابع تفسيره لهذه الظاهرة الفريدة من نوعها في عبادات الشرق القديم فيقول: «لقد كانت وثنية قريش تتقبل كل صنم أو وثن، فتضمّها إلى الأعداد المكدسة في الكعبة وتتقرب إليها، لا يهمها أصلها ومصدرها ما دامت تقدمة وهبة إلى رب البيت، قدمت إليه على أنها شفيعة تقرب أصحابها من ذلك الرب. فعبادة مكة في هذا العهد كانت عبادة شفعاء ووسطاء تتمثل في تماثيل وصور وأصنام وأوثان على نحو ما ذكرت[2].

إن معرفتنا بالحضارة القديمة شرقاً وغرباً لم تزودنا بمعلومات عن معبد احتوى كل هذا العدد من التماثيل والصور. فالبارثنون في أثينا القرن الخامس قبل الميلاد على سعته وعظمته لم يحتو إلا على تمثال للإلهة أثينا، وكذلك الأمر في معابد الرومان والهندوس، والشرق القديم. ولذلك فإن الكعبة لم تحتو في رأيي إلا على صنم للإله هبل إضافة إلى رأس الكبش والحجر الأسود. وقد وصفه ابن الكلبي في كتاب الأصنام بأنه مصنوع من عقيق أحمر مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش على هذه الشاكلة فصنعوا له يداً من ذهب.

والاسم هبل لا جذر له في اللغة العربية لأنه من أصل سوري وهو مؤلف من مقطعين؛ الأول هو الهاء أداة التعريف في بعض اللغات السامية الغربية مثل

---

(1) جواد علي، المرجع السابق، ص52-53، و54-55.

(2) جواد علي، المرجع نفسه، ص57.

العبرية والنبطية، والثاني هو «بعل» اللقب الشائع لإله الطقس السوري هدد، ويعني الرب أو السيد. وبعد إسقاط حرف العين من الاسم على الطريقة التدمرية يغدو هبل. وهذا يعني أن وجود هبل في جوف الكعبة ليس من قبيل إدخال إله على عبادات عرب الحجاز، بل إلى وضع منحوتة لرب الكعبة القديم تحت لقب السيد أو الرب..ولربما كان على جدران الكعبة الداخلية بعض الرسوم ومنها صورة مريم وابنها عيسى، لا صنمان لهما.

التجارة ومجتمع مكة :

لقد بالغت المصادر الإسلامية القديمة في مسألة تجارة مكة مثلما بالغت في وصف الكعبة وطقوسها وآلهتها، وتبعها في ذلك الباحثون المحدثون، والكل يعتمد على سورة قريش في القرن الكريم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ① إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ② فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ③ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ④﴾. وقد اختلف المفسرون على مدى تاريخ التفسير في معنى كلمة إيلاف، بينما تبنى معظم المحدثين رأي ابن حبيب مؤلف كتاب «المحبّر» المتوفى عام 245هـ القائل إن الإيلاف هو ميثاق بين قريش وقبائل طريق التجارة، تتعهد فيه القبائل بحماية قوافل قريش التي تعبر أراضيهم مقابل إشراك سادتها في أرباح التجارة. أما عن رحلتي الشتاء والصيف فقد اتفق الجميع على أنهما رحلتان تجاريتان في كل عام واحدة إلى اليمن وأخرى إلى الشام، على الرغم من أن السورة قالت «رحلة» ولم تقل «تجارة»، وهي الكلمة التي وردت عشرات المرات في النص القرآني. وهكذا نشأت أسطورة تجارة قريش والثروة التي حققتها من سيطرتها على تجارة اليمن والشام.

يقول المؤرخ التونسي هشام جعيط في كتابه السيرة النبوية الجزء الثاني إن التجارة القوافلية كانت من قبل بأيدي اليمنيين ثم الأحباش ثم اللخميين، وبعدها آلت إلى قريش في اتجاه اليمن أولاً ثم في اتجاه سورية، عندما سيطرت على الطريق الرئيسي لتجارة البخور واللبان والمر والبهارات الهندية، الصاعد من

العربية الجنوبية إلى الشام. وهذه التجارة كانت في الأساس تجارة ترانزيت، أي عابرة لبلاد العرب، ولكن القرشيين كانوا يقومون على الطريق ببعض المبادلات التجارية مع القبائل العربية. وقد قادت ثروة مكة التي جنتها من التجارة إلى تعقيد المشهد الاجتماعي؛ فهنالك الأشراف وعشائرهم من أقحاح قريش، وسلالات داخل العشائر، وموالٍ وحلفاء وعبيد من الروم والأحباش والسريان يعملون في المهن، أي إن مكة كانت بشكل ما تلعب دور الميتروبول (Metropolis =). وبما أن التجارة لا تأخذ أكثر من شهرين في اتجاه الجنوب أو اتجاه الشمال، فإنه يتوفر لدى الأشراف وأبنائهم وقت طويل ملؤوه بالترفه والتزين، من شرب خمر وغناء واستجلاب قيان[1].

في هذا الكلام نموذج عن التهويل فيما يتعلق بتجارة مكة وثرائها، لا سيما عندما يقول المؤلف إن مكة كانت تؤدي دور الميتروبول، لأن كلمة الميتروبوليس اليونانية بالاستخدام الحديث تعني المدينة العظيمة التي يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة، والضواحي حولها مرتبطة بها، وفيها مقرات حكومية ومقرات سلطة دينية، فهل كانت مكة كذلك؟

هذا النوع من التهويل يتابعه جواد علي فيقول: إن القرشيين ارتحلوا إلى مختلف الأنحاء تجاراً أو وسطاء في تجارة غيرهم، فكانوا أعظم التجار وأكثرهم حركة ونشاطاً عند ظهور الإسلام، ولا أدل على ذلك من أن القافلة التي خرجت بقيادة أبي سفيان وكانت السبب في معركة بدر كان قوامها 2500 جملاً، وهذا ما لم تعرفه جزيرة العرب في ذلك العهد. ولكن ثروة قريش لم تكن موزعة توزيعاً عادلاً بل مكتنزة عند نفر احتكر لنفسه المال والثراء وشكلوا طبقة أريستقراطية، أما الأكثرون فكانوا فقراء. وهنالك طبقة وسطى مؤلفة من صغار التجار وأصحاب الحوانيت، وأصحاب الورش الذين يستخدمون العبيد كعمال لديهم،

---

(1) د. هشام جعيط: في السيرة النبوية، الكتاب الثاني، دار الطليعة، بيروت، النسخة الإلكترونية، ص130-140.

والمرابين الذين يقرضون المحتاج بالربا الفاحش. وقد تكدس في مكة عدد كبير من الرقيق الأسود والرقيق الأبيض، وقد استخدم الرقيق الأسود في الحرف الشاقة والأعمال المرهقة، فكانوا يعملون خدماً في بيوت أسيادهم، أو في متح الماء من الآبار للشرب والسقي، وفي رعي الإبل والماشية، وما إلى ذلك من الأعمال التي لا تحتاج إلى الذكاء والاختصاص. أما الرقيق الأبيض فقد استُخدموا في أداء الأعمال التي تخصصوا بها في مواطنهم والتي يصعب على الأفارقة القيام بها. وقد عاش الأثرياء في بيوت مريحة مخصصة ومزخرفة فرشوها بالبسط الملونة والأثاث الفاخر، ووضعوا على أبوابها ونوافذها الستور الموشاة، وحلّى بعضهم بيته بالصور والنقوش والتماثيل، واستخدموا الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، وكانوا يأتون بالقيان للترفيه عنهم ويشربون الخمور ويسرفون في ذلك إسرافاً كبيراً[1].

وفي الحقيقة لا أدري هل يصف جواد علي هنا مجتمع مكة في القرن السادس الميلادي، أم المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية عام 1789م؟ كما يخطر لي أنه لو كان كارل ماركس مطلعاً على أخبار مكة هذه لاتخذها مثالاً لشرح نظريته في صراع الطبقات باعتباره المحرك الأساسي للتاريخ.

من هذا التهويل في أخبار مكة، الذي نجده في المصادر الإسلامية، ولدى معظم أو كل الباحثين المحدثين من العرب، وعدد لا بأس من الغربيين، ننتقل إلى التهوين الذي اقتصر على الغربيين وإن بدرجات متفاوتة. وسأركز فيما يلي على آراء باتريشيا كرون/ Patricia Crons المختصة في التاريخ الإسلامي من جامعة برينستون الأميريكية، في كتابها: تجارة مكة وظهور الإسلام[2].

---

(1) جواد علي: المرجع السابق، مقاطع من الفصل الثاني.

(2) المقتبسات التي أوردها فيما يلي هي من الفصل السادس والفصل السابع من الترجمة العربية لكتاب باتريشيا كرون:

- تجارة مكة وظهور الإسلام، ترجمة آمال الروبي، المشروع القومي للترجمة 2005.

فمكة كانت بعيدة عن الخط التجاري الصاعد من العربية الجنوبية إلى بلاد الشام، ونظراً لكونها تقع في واد موحش لا نبات فيه ولا خضرة لم تكن محطة للقوافل التجارية. كما أن مجتمعها ذا التكوين البدائي العشائري لم يكن قادراً على تشكيل تلك الإمبراطورية التجارية المزعومة، والقصص الخاصة ببداية تجارة قريش ثم نهايتها بعد الإسلام، ليست جزءاً من تاريخ الماضي، بل هي روايات ذُكرت لتفسير القرآن، ولولا سورة قريش لما ظهرت أسطورة تجارة مكة. فمكة لم تشكل إمبراطورية تجارية تحكمت بطرق التجارة في بلاد العرب، وتجارتها لم تكن تجارة ترانزيت، أي عابرة لبلاد العرب، بل تجارة عربية محلية. والمكّيون تعاملوا مع الأسواق المحلية في غرب العربية من نجران حتى الحدود السورية، وربما وصلوا إلى الحيرة العربية وأحياناً إلى بصرى الشام، ولكنهم لم يتعاملوا مع تجار جملة في مناطق أبعد من ذلك مثل دمشق وميناء غزة، ناهيك عن أنطاكية أو العمق البيزنطي، كما أنهم لم يتاجروا مع وسط وشرق العربية ولم تصل تجارتهم إلى المدائن العاصمة الفارسية الثانية في العراق. وبما أن البضائع التي حملتها قوافل المكيين (وهي بالتأكيد لم تكن في رحلتين فقط) لم تكن من النوع النادر أو غالي الثمن، والتي استوردها لم تكن بالتأكيد من بضائع الترف، فإن نشاط هؤلاء لم يجلب لهم الثراء الذي نسمع عنه.

يقع كتاب باتريشيا كرون في نحو 400 صفحة، وقد اعتمدت المؤلفة فيه على مئات المصادر والمراجع وآراء القدماء والمحدثين، وهي باحثة موضوعية ومرموقة في التاريخ الإسلامي، ولم يكن لها في أي من مؤلفاتها مواقف سلبية مسبقة من الإسلام. وأريد في هذا المجال الضيق تقديم ملاحظات سريعة تتعلق بالمجتمع المكي تصب في صالح آراء كرون.

فالإمبراطورية التجارية لا تديرها وتنظمها إلا سلطة مركزية في مدينة اكتملت مؤسساتها الحضرية، على ما نجده في الممالك التجارية التي نشأت في شمال غرب العربية في سياق الألف الأول قبل الميلاد: تيماء، وقيدار، وددان، ولحيان. والممالك التجارية العربية التي نشأت في الشام: تدمر، والبتراء،

والحضر. وكلها مجتمعات حضرية حلت فيها المواطنة والدولة محل العشائرية والعصبية القبلية.

أما مكة فلم تنشأ فيها سلطة مركزية بعد وفاة قصي بن كلاب، وبقي الحكم فيها بيد سادة العشائر، أو ملأ قريش (راجع سورة الأعراف: 66 و75 و88)، حيث القرار يحصل بالإجماع ولكنه لا يُفرض على أحد، لأن سلطة الملأ ذات طابع أدبي ولا تعلو على رابطة الدم التي يقوم عليها البطن. كما أن مكة لم تتخذ هيئة مدينة موحدة، فبطون قريش العشرة كانت موزعة على شعاب في كل شِعب يسكن بطن يشكل وحدة اجتماعية مستقلة ولكل بطن شيخ، كما أن هذه البطون لم تكن متساوية من حيث الأهمية.

ويقدم لنا حلف الفضول الذي عقدته بطون قريش مثالاً حياً على عدم وجود مؤسسات مدنية في بلد يقود إمبراطورية تجارية في المنطقة، حيث لا رئيس متفق عليه، ولا بيت مال، ولا ضرائب تُجبى، ولا دواوين، ولا قضاء، ولا رجال أمن، ولا سجون، ولا جيش نظامي. وتقول قصة الحلف أن يمنياً جاء بتجارة اشتراها مِنه العاص بن وائل ولكنه حبس عن صاحب التجارة حقه، وكان العاص رجلاً مقتدراً في مكة. ولما يئس الرجل من تحصيل حقه خرج في الصباح ووقف على مرتفع ونادى بأعلى صوته طالباً الإنصاف. فتداعت بطون قريش إلى اجتماع واتفقوا على ألا يُظلم أحد في مكة إلا عمل المتحالفون على أن يردوا ظلامته.

ونحن إذا قارنا هذه الحالة التي كانت عليها مكة عشية البعثة النبوية بحالتها في العصر الأموي. عندما صار فيها والٍ معين من قبل الخليفة كسلطة عليا مطاعة، وقضاة ومحاكم، ورجال أمن، وحرس الحدود، وحرس الليل، ورجال السجون، وعمال المصابيح الليلية في الطرق، والمحتسب، وشرطة الأسواق، وكتاتيب تعليم الصبيان، والوظائف الدينية، لتبين لنا الفرق بين البلدة المتواضعة والمدينة كمركز حضري يقوم على المؤسسات.

ولدينا مؤشر آخر يدلنا على وصول البيئة السكنية إلى حالة المدنية هو عدد السكان. فكم كان عدد سكان مكة عشية البعثة النبوية؟ من أجل التوصل إلى رقم تقريبي معقول، سوف أتعامل مع ثلاث تقديرات طرحها من اهتم بهذه المسألة من الباحثين، الأول خرج بتقدير منخفض، والثاني متوسط، والثالث مبالغ به ولا يعول عليه. فالمؤرخ البريطاني مونتغومري[1] وات اقترح رقم 6000. والدكتورة إلهام البابطين أستاذة التاريخ الإسلامي في جامعة الملك سعود[2] اقترحت 22000. والدكتور حسين مؤنس[3] الباحث في الإسلاميات اقترح 50000 أو 60000. وهذا رقم مبالغ به ولا يقوم على دراسة موضوعية بل على تصديق تام لكل المبالغات في المصادر الإسلامية، ولو أن هذا الباحث اطلع على التاريخ القديم لعرف أن سكان العاصمة بابل عندما كانت عاصمة لإمبراطورية حمورابي لم يتجاوز 100000 وكذلك فيما يتعلق بنينوى وآشور وكالح، مدن الإمبراطورية الآشورية الحديثة، وكذلك أثينا في أواخر القرن السادس ومطلع الخامس، عندما سيطرت على تجارة البحر المتوسط وكان لها أقوى أسطول تجاري في ذلك الوقت.

فإذا استبعدنا اقتراح حسين مؤنس يبقى لدينا رقم 6000 و22000، وإني استناداً إلى ما قدمته من معلومات عن أحوال مكة قبل البعثة النبوية، وابتعاداً عن التهويل والتهوين، اقترح 12000 كرقم مرجح.

لقد كانت هذه المقدمة ضرورية لنا من أجل التمييز بين المتخيل والواقعي في السيرة النبوية.

---

(1) مونتغومري وات: محمد في مكة، ترجمة عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1415هـ.

(2) د. إلهام البابطين: الحياة الاجتماعية في مكة حتى العصر الأموي. بطابع الخالد، الرياض، 1415هـ.

(3) د. حسين مؤنس: طريق النبوة والرسالة، دار الرشاد 1997م.

2- السيرة النبوية والأدب الشعبي

في أواسط القرن التاسع عشر ظهر في أوروبا مصطلح الفولكور، وهو يتكون من مقطعين هما فولك/ Folc أي شعب، ولور/ Lore أي موروث، وجرى تعريفه على أنه «المعتقدات والخرافات والعادات والتقاليد والآداب الشائعة بين الناس، التي تنمو بصورة تلقائية على هامش الثقافة الرسمية. فهو التاريخ الفكري لا كما تمثله منجزات الأدباء والفنانين والشعراء في تلك الثقافة، بل كما تمثله أصوات عامة (أو عموم) الناس». ولعل أبرز خصائصه انه أدب غير مكتوب، يجري تداوله مشافهة وتتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل، ولا يمكن لنا معرفة مؤلفه أو صيغته الأصلية لأن هذه الصيغة قد تبدلت بالتداول. فهو حركي ومتطور يضيف إليه رواة كل جيل من ذائقتهم وخيالهم، وبما يتلاءم مع زمنهم وطبيعة مستمعيهم، ولا يكف عن التطور إلا حين يتم تثبيته في صيغة مدوّنة، وهنا يتحول من أدب مسموع إلى أدب مقروء، ويغدو أدباً رسمياً، لاسيما حين تؤلف فيه المؤلفات والرسائل الأكاديمية في الجامعات التي تجعل منه مادة مقررة للطلاب.

أجناس الأدب الشعبي عديدة، وما يهمنا منها هنا اثنان فقط وذلك لصلتهما بنشوء السيرة النبوية، وهما الحكاية والسيرة.

الحكاية :

ولها عدة أجناس نستعرض فيما يلي أهمها فيما يتعلق بموضوعنا وهي:

الحكاية الاجتماعية: وتتميز بهاجسها الاجتماعي وتركز على هموم وتفاصيل الحياة اليومية، ورسالتها وعظية أخلاقية تهدف إلى الإصلاح وترسيخ القيم السائدة في المجتمع. وعلى الرغم من استخدامها لعناصر التشويق التي لابد منها في عملية القص، إلا أنها لا تقصد إلى إبهار السامع بالخوارق، ويبقى أبطالها

من الناس العاديين الذين لا يمتلكون قوى لا تتوفر لبقية الناس، بل يملكون الفطنة والذكاء اللذين يعينان على الخروج من المآزق والتغلب على الأعداء.

الحكاية البطولية: وهي التي تجري في إطار واقعي على الرغم من المبالغات التي تغلف أحداثها، وما يقوم به أبطالها من أعمال يتجاوز طاقة الإنسان العادي، إلا أنها تبقى ضمن الممكن وليس المستحيل، فالبطل هنا صورة مثالية عن الإنسان في نبله وشجاعته ومروءته، وهي صورة تستثير الرغبة لدى السامع إلى الاقتداء بها.

الحكاية الخرافية: وهي أكثر الحكايا امتلاءً بالمدهش والغريب، فأحداثها تجري في فضاء غير واقعي، وتتشابك علائق شخصياتها مع كائنات ذات قدرات خارقة أو كائنات ما ورائية مثل الجن والعفاريت والأرواح الهائمة.

السيرة :

تنشأ السيرة عن الحكاية، فهي تجميع لحكايا متفرقة عن شخصية كان لها دور في المخيلة الجمعية الشعبية، وصياغة هذه الحكايا في قصة مطردة وسياق زمني متّصل. ثم يأتي الرواة فيضيفون عليها وتتضخم بالتداول الشفاهي إلى أن تثبت في مدوّنة. فالعملية التي تُنتج السيرة هي نوع من الجمع التراثي الذي يعمل على جمع وتصنيف تركة شعبية متعددة النشأة والأصل والزمن، وتصنيفها وإعادة صياغتها. وهي على عدة أنواع؛ فمنها الاجتماعي ونموذجه علي الزيبق في ألف ليلة وليلة، ومنها البطولي ونموذجه عنترة العبسي، ومنها الخرافي ونموذجه سيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة، ومنها شبه التاريخي ونموذجه الظاهر بيبرس. وسوف أخص بالتعريف منها السيرة شبه التاريخية لصلتها بموضوعنا.

فالسيرة شبه التاريخية تقوم على أحداث تاريخية مغلفة بضباب نثره عليها خيال الرواة، لأن همَّ من يعيد رواية هذه الأحداث ليس هماً تاريخياً، بمعنى أنه

ليس معنياً بصدق ما يرويه قدر عنايته بتوظيفه لخدمة أغراضه، وغالباً ما يقوم بصناعة الحدث ويضفي عليه لمسات خيالية تروق للسامع الذي ليس مطالباً بالتصديق وإنما بالرضى والإعجاب.

إلى هذا الجنس شبه التاريخي تنتمي السيرة الدينية وهي سيرة مؤسس الدين، مثل سيرة البوذا في الهند، وسيرة موسى في أسفار موسى الخمسة Pentateuch في التوراة، وسيرة يسوع المسيح في الأناجيل الأربعة، والسيرة النبوية في الإسلام. كما تنتمي إلى السيرة الدينية سير بعض الشخصيات الفاعلة في صيرورة ذلك الدين، مثل سيرة بولس الرسول في سفر أعمال الرسل الإنجيلي، وسير كبار الأنبياء التوراتيين مثل إيليا وإليشع وإرميا وإشعيا.

تتفق السيرة الدينية مع السيرة شبه التاريخية في أنها نوع من الجمع التراثي لقصص متداولة شفاهياً، ولكنهما تختلفان في أن همّ السيرة الدينية تاريخي على الرغم من عدم امتلاك مدوّنها لأدوات الكتابة التاريخية التي تعينه على التأكد من مصداقية ما يورده من أخبار، أو أنه غير معني بالتأكد من تلك المصداقية كما يفعل المؤرخ. كما تختلف السيرة الدينية مع السيرة شبه التاريخية في أن صاحب السيرة شبه التاريخية لا يصدر في عمله عن موقف إيديولوجي يوجهه لاختيار ما بين يديه من القصص، بينما تتحكم الإيديولوجيا في عمل صاحب السيرة الدينية، وهي التي تملي عليه اختيار تلك القصص، وهذا ما يجعله صانعاً للتاريخ أكثر منه باحثاً عنه. ولعل أفضل ما يوصف به نتاجه الأخير بأنه «متخيَّل تاريخي» اتفقت الجماعة على تصديقه بعد اكتسابه لقدسية تجعل القناعة به جزءاً من إيمان الفرد. وسيرة نبي الإسلام خير دليل على ذلك.

بقيت الثقافة الإسلامية دون سيرة نبوية كاملة حتى أواسط القرن الثاني الهجري، وخلال هذه الفترة كانت القصص التي تتناول حياة النبي ونشاطه الدعوي والسياسي تتوالد وتتزايد ويجري تداولها مشافهة حتى العصر العباسي الأول (وهو عصر التدوين في الثقافة العربية)، عندما قام الخليفة الثاني أبو جعفر

المنصور بتكليف محمد بن إسحاق بكتابة سيرة متكاملة عن حياة النبي من أجل تثقيف ابنه وولي عهده الأمير المهدي، وعندما انتهى الرجل من عمله وقدمه إلى المنصور لم يعجب به لكثرة اعتماده على الإسرائيليات، واحتوائه على كثير من الخرافات والأشعار المنحولة، وطلب من ابن إسحاق اختصاره وتهذيبه. ولكن هذا المشروع لم يتم على يدي ابن إسحاق وإنما على يد عبد الملك ابن هشام (ت عام 218هـ)، الذي أخرج سيرة ابن إسحاق في حلة جديدة بعد أن أجرى عليها الكثير من الحذف والإضافة والتعديل حتى صارت تعرف باسم سيرة ابن هشام، أما السيرة الأولى فقد سقطت من التداول ولم تصلنا منها نسخة كاملة واحدة لعدم اهتمام النُساخ بها، ولكنها بقيت من حيث الأسلوب والمنهج المتبع فاعلة في كل ما جاء بعدها من سير.

اتبع ابن إسحاق منهج الإسناد الذي يتبعه مصنفو الحديث النبوي، وهو إسناد الخبر المروي إلى سلسلة من الرواة تنتهي إلى الذي سمع من النبي مباشرة، مثل قول البخاري: «حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد المجيد بن سهيل بن عبد الرحمن عن سعيد بن المسيب عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة، أن رسول الله استعمل رجلاً على خيبر...إلخ». ومثل قول ابن إسحاق كما أورده ابن هشام: «حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي، عن شهر بن حوشب الأشعري، أن نفراً من أحبار اليهود...إلخ».

ولكي نصل إلى تقييم موضوعي لابن إسحاق نقول إن بعض معاصريه رأوا فيه حجة في العلم، بينما كان لفريق آخر رأي مختلف فقد اتهمه كل من هشام بن عروة ومالك بن أنس ويحيى القطان بالكذب. وذكره ابن حجر العسقلاني في المرتبة الرابعة من مراتب المدلسين، وقال إنه مشهور بالتدليس عن الضعفاء (أي ضعاف الرأي) وعن المجهولين. وقال الإمام مالك إنه دجال من الدجاجلة، وقال شمس الدين الذهبي أنه تتبع غريب الحديث، ومن تتبع غريب الحديث كذب. وكان الإمام أحمد بن حنبل لا يرتضي أحاديث ابن إسحاق وقال فيه إنه

يحدث عن الشيوخ الحديث الواحد، ولكنه يخلط بعضها ببعض ولا يُفصّل كلام ذا عن كلام ذا. وقال يعقوب بن شيبة إنه يُحدث عن المجهولين أحاديث باطلة. وقال محمد بن إسماعيل إنه انفرد برواية ألف حديث لا يشاركه فيها أحد. وقال النسائي إن حديثه ليس بالقوي. وقال الدارقطني إن كلامه لا يُحتج به. وقال أبو حاتم إنه يكتب حديثه عن النبي (بمعنى يختلقه). وأخذ عليه كثيرون الاحتجاج بالإسرائيليات[1].

على هذه الأسس الأولى من عدم اليقين قام البناء السابق والمتزعزع في الآن نفسه للسيرة النبوية. وعلى الرغم من أنني عندما أتحدث عن «السيرة» هنا أعني بها السيرة المؤسَّسة لابن إسحاق وابن هشام، إلا أن أي خبر أو حديث يتناول حياة محمد هو عندي سيرة، سواء ورد لدى واحد من مؤلفي السيرة أم لم يرد.

---

(1) مقالة «منزلة ابن إسحاق راوي المغازي عند علماء الحديث» موقع «الإسلام في سؤال وجواب» على الشبكة.

3- حكاية أم تاريخ، ماذا نعرف عن محمد؟

لقد دونت آلاف الصفحات عن حياة محمد، إلا أننا لا نعرف عنه الكثير وسيرته غائبة وراء ستار كثيف من الحكايا التراثية التي صنعها المخيال الجمعي، وتحولت بعد جمعها وتدوينها إلى حقائق صار الإيمان بها جزءاً من إيمان كل مسلم، ويتدرج الغموض الذي يحيط بالسيرة من غموض تام إلى وضوح نسبي عبر مراحلها الثلاث أي: 1- الطفولة والشباب، 2- البعثة والدعوة في مكة، 3- الدعوة في المدينة.

يحيط الغموض التام بهذه المرحلة ويتكاثف كلما عدنا إلى الوراء نحو الميلاد والطفولة الأولى، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن محمداً لم يكن في ذلك الوقت شخصاً مميزاً إلى درجة تثير اهتمام أحد من معاصريه ليتتبع أخباره، وكونه أحد أحفاد عبد المطلب الشخصية المرموقة في ذلك الوقت لم يكن كافياً لإثارة مثل هذا الاهتمام. فقد تزوج عبد المطلب من ست نساء أنجب منهن أربع عشر ذكراً وسبعاً من الإناث، أي إن أحفاده كانوا من الكثرة بحيث لا يمكن معها تمييز محمد عن غيره وتتبع أخباره، فكان على الرواة ابتكار الحكايا ذات الطابع الخرافي الذي يميز عادة أخبار ميلاد وطفولة الأسلاف الأولين للشعوب، أو القادة العظام من مؤسسي الأسر الملكية، أو الشخصيات الدينية الكبرى في التاريخ. فالتوأمان رموس وريمولوس مؤسسا مدينة روما، كانا لقيطين أرضعتهما ذئبة ورُبيا في الغابة. والبوذا وُلد من خاصرة أمه في القصر الملكي ثم مشى عدة خطوات وقال: لقد وصلت. وعندما تفحص عراف القصر جسده وجد على عقبه شارة عجلة المندالا التي تميز عظماء العالم وتنبأ له بمستقبل باهر. وعندما وُلد النبي زرادشت احتفلت مظاهر الطبيعة كلها لهذا الحدث، أما الشيطان فقد هرب واختبأ، ثم أرسل زبانيته لإهلاك الصبي، ولكنه نطق بصلاة

أبعدتهم عنه. ولدى ولادة يسوع المسيح ظهر نجمه الخاص في السماء، وقاد جماعةً من المجوس المتجولين الذين كانوا ينتظرون ظهور المخلص إلى البيت الذي وُلد فيه يسوع ببيت لحم. وإذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم، فقال لهم إنه وُلد لكم اليوم مخلص هو المسيح، وانضم إليه جمهور من الجند السماوي يسبحون الله ويقولون: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة.

على هذا المنوال تنسج السيرة فصلها الأول الذي يؤسس لطابعها الحكائي، فعندما حملت آمنة بنت وهب أُتيت (من قبل ملاك) وقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة وعليك أن تسميه محمداً، ثم رأت أنه خرج منها نور رأت به قصور مدينة بصرى في أرض الشام (حيث تنتهي قوافل التجارة العربية)، وأيضاً: «ولما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ارتجّ إيوان كسرى وسقطت منه عشر شرفات، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار (مجوس) فارس. وأيضاً: حين حملت آمنة برسول الله نطقت كل دابة لقريش في تلك الليلة فقالت: حُمل برسول الله ورب الكعبة وهو أمان الدنيا وسراج أهلها. ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل البحار (أي كل ما يسبح فيها) يبشر بعضهم بعضاً، ونداء في السماء ونداء في الأرض أن أبشروا فقد آن لأبي القاسم أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً. وروي عن حسان بن ثابت قوله: والله وإني لغلام ابن سبع سنين إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته: طلع اليوم نجم أحمد الذي وُلد به. ومن المتفق عليه بين المصادر الإسلامية أن ميلاد الرسول حدث في العام الذي قام به أبرهة الأشرم بحملته على مكة عام 571م.

وعن حليمة السعدية التي أرضعته وأقام عندها في البادية خمس سنوات: بينما هو يلعب وأخوه (ابن حليمة) خلف البيوت ويرعيان لنا بها، إذ جاءنا أخوه يشتد فقال لي: أدركا أخي القرشي، فقد جاءه رجلان فأضجعاه فشقا بطنه. فخرجنا نحوه نشتد فانتهينا إليه وهو قائم منتقع لونه فاعتنقه أبوه واعتنقته ثم قلنا:

ما لك يا بني؟ قال: أتاني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني ثم شقا بطني فالتمسا شيئاً لا أدري ما هو. وفي رواية أخرى ولكن عن النبي نفسه هذه المرة ينسبها ابن إسحاق كعادته إلى «بعض أهل العلم» قال: بينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا إذ أتاني رجلان بثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي بذلك الثلج.

وتتكرر هذه القصة في حديث الإسراء عندما جرى غسل أحشاء النبي للمرة الثانية قبل أن يحمله البراق إلى بيت المقدس. ولا أدري كيف خطر لأولئك القوم فكرة أن طهارة النفس تتأتى من طهارة الأحشاء، أو من عملية «القلب المفتوح» التي أجراها الملاكان. وقد استخدم مفسرو القرآن بعد ذلك هذه القصة في تفسير سورة الشرح: «ألم نشرح لك صدرك...»، عندما طابقوا بين شرح الصدر وعملية القلب المفتوح تلك، فكانوا أكثر سذاجة ممن دبَّج الحكاية الأصلية، وتداولها.

أعادت حليمة محمداً إلى أمه وهو في سن الخامسة، ولكن آمنة توفيت بعد سنة فصار مع جده عبد المطلب الذي وافته المنية ومحمد عمره ثمانية أعوام، فكفله عمه أبو طالب الذي كان صاحب تجارة ولكنه لم يكسب منها الكثير وكان رقيق الحال على كثرة أولاده. وقد اصطحبه معه في تجارة له إلى بلاد الشام، وكان في سن التاسعة حينها وفق بعض الروايات أو الثانية عشرة وفق غيرها. وعندما أشرف الركب على مدينة بصرى مروّا براهب يدعى بحيرى في صومعة له يزوره فيها أهل النصرانية، فنظر عن بعد ورأى محمداً وغمامة تظللّه، ثم نزلوا في فيء شجرة فانحنت عليه أغصانها حتى استظلّ (وفي رواية أخرى: لم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجداً). فنزل الراهب من صومعته بعد أن طلب لهم طعاماً، وقدم إليهم فتفحص جسد محمد ورأى كما توقع خاتم النبوة على كتفه، فقال: أين أبو هذا الغلام؟ فقالوا: هذا وليّه، فقال لأبي طالب: سيكون لهذا الغلام شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده واحذر عليه من اليهود.

إن أمثال هذه الحكايا التي تنتمي إلى ما ندعوه في البحث الحديث بأسطورة البطل، والتي دُبجت لتنوب مناب الحقائق المفقودة، قد عززت من غموض فترة الطفولة، فنحن على يقين اليوم من أن محمداً لم يولد في عام الفيل سنة 570م، وأن هذه الحملة لم تكن موجهة إلى مكة ولم تصل إلى الحجاز، على ما سنبين في سياق هذه الدراسة، حيث سنقدم تفسيراً مغايراً لسورة الفيل لا يتفق مع التفسير الذي توصل إليه أهل السيرة بدافع بحثهم عن تاريخ لميلاد محمد.

وهذا ما دفع بعض المؤرخين المحدثين إلى إعادة نظر شاملة في تاريخ المولد النبوي، بل وفي التواريخ الرئيسية لحياة محمد، فالمؤرخ التونسي د.هشام جعيط يرجح أن يكون المولد في عام 580م أي بعد عشر سنوات من التاريخ المتفق عليه، والبعثة في عام 610م، أي عندما كان محمد في الثلاثين لا في الأربعين، الرقم الذي تمتع بقيمة رمزية لدى معظم الثقافات العالمية، فسن الأربعين كان في ذلك الزمن سن الكهولة إن لم يكن الشيخوخة، ومحمد أنفق ثلاثاً وعشرين سنة وهو في كامل نشاطه وحيويته، وتوفي نحو الخمسين من عمره.

ثم ينتقل جعيط إلى تحليل الاسم محمد[1]، الذي لم يرد في السور المكية بينما ورد في السور المدنية أربع مرات بصيغة «محمد» (الفتح: 29، آل عمران: 144، الأحزاب: 40، محمد 2)، ومرة واحدة بصيغة «أحمد» (الصف: 6)، وكلا الكلمتين تعنيان المحمود جداً أو الكثير الحمد، وقد أطلق السريان في الشام على أمراء الدولة الغسانية لقب محمدان الذي يعني الأمجد والأشهر. وقد رجّح جعيط أن يكون «محمد» لقباً وليس اسماً، وقد أُطلق على النبي خلال عصر المدينة مثلما أُطلق لقب «المسيح» على يسوع، أما اسم ميلاده فيرجح أن يكون «قُثَم». وجعيط هنا يستند إلى ما قاله البلاذري في «أنساب الأشراف»

---

(1) الذي أُمرت أمه آمنة أن تدعوه به: «إنك قد حملت بسيد هذه الأمة وعليك أن تسميه محمداً». وهنا يمكن المقارنة مع إنجيل لوقا1: 35 عندما قال الملاك لمريم: «ها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع».

بخصوص عبد الله (والد محمد) من أنه كان يكنى أبا قُثم. ثم يفسر إطلاق هذا الاسم على محمد بأن واحداً من أبناء عبد المطلب أحبه جداً كان اسمه قثم ولكنه توفي فسمي النبي على اسم عمه المتوفى، وهذا من عادات قريش(1).

من عودة محمد من رحلة الشام مع عمه، والتي نرجح أنه كان حينها في الثانية عشرة لا في التاسعة، إلى البعثة النبوية، لا تقدم لنا السيرة سوى حدثين بارزين هما زواجه من السيدة خديجة وهو في سن الخامسة والعشرين، وحكمه بين عشائر قريش في من يضع منهم الحجر الأسود في مكانه، عندما أعادوا بناء الكعبة من أجل رفع جدرانها وتسقيفها، ولا تملأ السيرة هذا الفراغ إلا بذكر الفضائل التي كان عليها عندما كان الله يكلؤه برعايته ويُعدّه للنبوة والرسالة. فقد شب محمد والله يحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لِما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ الرجولة وصار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش، حتى سماه قومه بالأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة ذات شرف ومال تزوجت مرتين فطلقت من أحدهما وترملت من الآخر، وأنجبت ولدين قلما ورد ذكرهما بعد ذلك في أخبار السيرة. وكانت تستأجر الرجال للقيام بتجارتها بشيء تدفعه لهم، فلما بلغها ما بلغها عن محمد عرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام مع غلام لها يدعى ميسرة، فقبل منها ذلك. وعندما وصل الشام نزل في ظل شجرة قريباً من صومعة أحد الرهبان فنظر الراهب ورآه ثم قال لميسرة: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقام له الراهب: إن الذي نزل تحت هذه الشجرة الساعة هو نبي، ثم باع محمد سلعته التي جاء بها واشترى ما أراد أن يشتري وقفل عائداً إلى مكة. وكان ميسرة كلما اشتد الحر في هاجرة النهار يرى ملكين يظللانه وهو يسير على بعيره، فلما

---

(1) د. هشام جعيط: في السيرة النبوية، المجلد الثاني، ص144-149 النسخة الإلكترونية، دار الطليعة- بيروت، لبنان.

قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء فأضعف أو قارب ذلك. وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما رأى من إظلال الملكين له، فرغبت في الزواج منه وقالت له: يا ابن عمّ، إني قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك في قومك وأمانتك وحسن خلقك، ثم عرضت عليه نفسها. فذكر محمد ذلك لأعمامه فخرج معه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على أبيها خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها. وقد أنجبت له ثلاثة ذكور هم القاسم والطيب والطاهر ماتوا في الجاهلية، وأربع إناث هن رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة، وقد أدركن الإسلام، ولم يتزوج محمد عليها حتى ماتت.

تظهر في هذه القصة واحدة من أبرز خصائص عملية الجمع التراثي التي ميزت السيرة النبوية، وهي الروايات المختلفة بل والمتناقضة للخبر الواحد. فابن إسحاق لم يذكر عمر السيدة خديجة عند الزواج، وأكد على عمر النبي أنه خمس وعشرون سنة. ولكن المشهور في روايات أخرى أنها كانت في سن الأربعين وتوفيت في الخامسة والستين، دون الانتباه إلى أنها أنجبت في هذه السن ثم استمرت في الإنجاب حتى سن الستين، إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود سنتين بين كل إنجاب، وهذا مستحيل، ولذلك فقد جعلتها روايات أخرى في سن الخامسة والثلاثين ووفاتها في سن الخمسين. وفيما يتعلق بتفاصيل الزواج لدينا روايات تقول إن من قصد خويلد لطلب خديجة ليس عمه حمزة بل هو عمه أبو طالب، وأن الذي أنكحها ليس خويلد لأنه هلك قبل ذلك بل عمها عمرو بن أسد، ويقال أيضاً أنكحها أخوها عمرو بن خويلد. هذه الروايات المتناقضة للخبر الواحد هي سمة غالبة على السير الشعبية في كل الثقافات، ولدينا عنها أمثلة كثيرة، لا يسمح المجال هنا لإيرادها، لاسيما في كتاب التوراة وما قدمه من سير الشخصيات المؤسسة في تاريخ بني إسرائيل أمثال موسى ويشوع بن نون، وشاؤل وداود وسليمان.

تشكل شخصية السيدة خديجة حالة غموض في السيرة يصعب تفسيرها، فعلى الرغم من دورها المركزي في حياة محمد، إلا أن الأخبار التي تذكرها

شحيحة، والرواة لم ينسبوا إليها حديثاً تأسيسياً واحداً عن النبي. ولا يقتصر ذلك على فترة ما قبل النبوة وإنما يمتد إلى ما بعدها. فالأحاديث التأسيسية القليلة جداً من فترة النبوة في مكة والتي دامت نحو ثلاث عشرة سنة، ترويها عائشة التي تزوج منها بعد الهجرة لا خديجة. وهذا يعني أن عائشة لم تكن قد ولدت بعدُ إذا كان محمد قد تزوج منها وهي في سن التاسعة وفق بعض الأخبار، أو كانت طفلة تحبو إذا كان قد تزوج منها وهي في سن الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة وفق أخبار أخرى.

فحديث فرض الصلاة الذي عني به بعد ذلك أصحاب المذاهب الفقهية، والذي كان من المفترض أن ترويه خديجة يسنده ابن إسحاق إلى عائشة عن عروة بن الزبير: «وحدثني صالح بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: افتُرضت الصلاة أول ما افترضت عن رسول الله ركعتين ركعتين كل صلاة، ثم إن الله أتمها في الحضر أربعاً وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين».

وعن مقدمات الوحي الأول يقول ابن إسحاق: «ذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها حدثته: أن أول من بُدئ به رسول الله من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، وحبب الله إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

وعروة بن الزبير الذي يعتمده ابن إسحاق في هاتين الروايتين عن عائشة هو أخو عبد الله بن الزبير، وقد وُلد بعد وفاة الرسول وأكثر من رواية الحديث عن خالته عائشة، وحديثه هذا مقبول وفق معايير الإسناد الصحيح المتواتر، ولكن ألم يكن الأجدر به في مثل هذه الروايات أن يتقصاها ممن عرف خديجة أو عرف من عرفها ليسمع منه، أم أن أحداً لم ير خديجة بالفعل أو سمع منها؟

فإذا جئنا إلى الحديث المركزي في الفترة المكية، وهو حديث الوحي الأول في غار حراء الذي لا يوجد عليه دليل من القرآن، نجد أن عروة بن الزبير

يرجع به إلى عائشة أيضاً، وقد اعتمد عليه جل من فسر سورة العلق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ يقول ابن كثير في تفسيره: «قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: أول ما بُدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الوحي وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ....

فإذا عدنا إلى ابن إسحاق نجده يُقدم لحديث الغار بحكاية من تلك الحكايا الخرافية التي استهل بها قصة الميلاد وما بعدها من أخبار طفولة وشباب النبي، وهي كالعادة عن أهل العلم الذين لا يذكر أسماءهم:

وحدثني عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي عن أهل العلم، أن رسول الله حين أراده الله بكرامته وابتداء النبوة، كان إذا خرج لحاجته ابتعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت حوله وعن يمينه وشماله فلا يرى إلا الشجر والحجارة. فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء له الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بغار حراء في شهر رمضان».

وعلى الرغم من أن خديجة لم تكن من الشخصيات المحركة للأحداث خلال الفترة المكية، إلا أنها حازت على مكانة فخرية في قلوب المؤمنين للمكانة التي كانت لها في قلب محمد؛ فقد كانت أول من آمن برسالته، وصدقته حين كذبه الناس وهونت عليه أمرهم، وآزرته وأشركته في مالها، ورزقه الله منها الولد وحرمه ولد غيرها، وفرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها محزوناً. وقد عبر ابن إسحاق عن ذلك بحديث رواه عروة بن الزبير عن جعفر بن أبي طالب: «قال رسول الله: أُمرت أن أُبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب». وقال ابن هشام نقلاً عمّن يثق بهم أن الله قد أرسل لخديجة مع

جبريل سلاماً خاصاً منه: «أتى جبريل رسول الله فقال: أقرئ خديجة السلام من ربها، فقال رسول الله: يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام».

هذه الألفة بين جبريل وبيت النبوة هي نتاج خطاب شعبوي يتخلل السيرة، حوله من وسيط للوحي القرآني إلى صديق للعائلة، وأخرجه من جلال الأسطورة[1] إلى هزل الخرافة، حتى أنه كان معنياً بتلبية بعض الحاجات الشخصية جداً للنبي.

بين زواج النبي من خديجة والبعثة مدة خمس عشرة سنة خالية تماماً إلا من خبر إعادة بناء الكعبة عندما وصل البنيان موضع الركن، واختلفت العشائر فيمن يكون له شرف حمل الحجر الأسود ووضعه في مكانه، حتى أنهم أشرفوا على التقاتل، إلى أن قال واحد منهم وهو الأسنّ بينهم: اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي لكم فيه ففعلوا، فكان الداخل عليهم محمد، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما وصل وأخبروه وضع ثوباً على الأرض وأخذ الحجر بيديه ووضعه على الثوب، ثم قال: لتأخذ كل جماعة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده وبنى عليه.

وعلى الرغم من أن هذه الحكاية ترسخت في ضمير كل مسلم منذ الطفولة، إلا أنها لا تعدو كونها حكاية رمزية تستشرف الدور الديني المقبل لمحمد.

أما الفترة بين البعثة النبوية والهجرة إلى يثرب، والتي امتدت نحو ثلاث عشرة سنة نزل خلالها ثلثا القرآن الكريم، فقد كانت أوفر حظاً بالأحداث، ولكن ليس بالقدر الذي نظن، ومؤرخو حياة النبي لم يقدموا لنا سوى بضعة أخبار متفرقة لا تزيد كثيراً عن العشرة، وجلها إن لم يكن كلها لا دليل عليه من القرآن، وهي كما أحصيتها:

---

(1) تعبير «الأسطورة» أينما ورد في هذه الدراسة أعني به القصة الرمزية التي تحمل معاني عميقة ذات صلة بالمستوى القدسي للوجود.

- الدعوة السرية التي دامت ثلاث سنوات وكان المؤمنون يلتقون خلالها في دار الأرقم، أو في أحد شعاب مكة بعيداً عن الأعين.

- إعلان الدعوة عندما جمع محمد وجهاء قريش وخطب فيهم معلناً عن رسالته بقوله: «إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة»، وما كان من أمر عمه أبي لهب عندما قال له بعد أن انتهى: تباً لك، ألهذا جمعتنا.

- فرض الصلاة.

- المسلمون الأوائل.

- استهزاء قريش بالرسول وإيذاؤه.

- اضطهاد المستضعفين من المسلمين: بلال الحبشي وآل ياسر...

- دعم أبي طالب للنبي وحمايته له.

- مقاطعة قريش للمسلمين بيعاً وشراءً.

- الهجرة إلى الحبشة.

- حديث الغرانيق العلا، أو الآيات الشيطانية.

- الإسراء والمعراج.

- خروج النبي إلى الطائف لطلب النصرة.

- عرض النبي نفسه ومذهبه على القبائل في موسم الحج.

- بيعة العقبة عندما استمع فريق من أهل يثرب إلى محمد، وأعلنوا إسلامهم وشجعوه على الهجرة.

- الهجرة إلى المدينة.

إن الفكرة الناظمة لأحداث الفترة المكية هي الصراع بين محمد والأوليجاركية[1] القرشية المؤلفة من كبار التجار وأصحاب النَّسَب النبيل، ففي

(1) الأوليجاركية كلمة يونانية قديمة استعملها أرسطو وتعني في السياسة حكم الأقلية.

خضم الصراعات المذهبية داخل المسيحية التي كانت سائدة في بيزنطة والشرق الأدنى وعرب بلاد الشام الذين شكلوا في ذلك الوقت نسبة كبيرة من سكان المنطقة، ظهر شخص متوقد الذهن قوي الشخصية ومن أولي العزم (وفق التعبير القرآني)، توصل بعون إلهي إلى عقيدة دينية جديدة تصلح لأن تكون منهاجاً لحياة البشر أينما كانوا، تحل محل المسيحية التي ولدت ممزقة بعد وفاة يسوع المسيح، ومن ورائها اليهودية: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ الجاثية: 17.

وعلى الرغم من أن محمداً قد تلقى القسم الأوفر من ثقافته في الشام، على ما سنبين في حينه، إلا أنه لم يختر أن يعلن عن مشروعه الديني هناك، لأنه سيعامل كغريب ولن يلقى سمعاً من أحد، ولذلك قرر أن يبدأ ذلك المشروع في بلده ومسقط رأسه، حيث روابطه العائلية التي ترجى منها فائدة. ولكن رسالة محمد كانت أكبر وأعمق من أن تعيها وتستوعبها مكة التي رأت فيها تهديداً لهويتها، فالوثنية فيها لم تكن ديناً فقط بل هوية تعبر عنها الكعبة بما تحتويه من رموز دينية لقبائل عربية كانت تحج إليها وتقدسها. ولذلك لم يكن الصراع بين محمد منفرداً وقريش صراعاً دينياً بقدر ما كان صراعاً وجودياً.

ولقد جاهد محمد منفرداً في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة، والجهاد أو الجهاد في سبيل الله في القرآن أينما ورد التعبير، ليس جهاد السيف بل جهاد الرأي وجهاد العمل، والكلمة في معناها القاموسي تعني بذل الجهد لا حمل السلاح. ولعل الحوارية التالية بين محمد وعمه أبي طالب، الذي جاءه القرشيون يطلبون تدخله لدى محمد لكي يكف عن الهزء بدينهم وإعابة آلهتهم، تعبر أفضل تعبير عن صعوبة موقفه وثباته على رأيه ولو كان في ذلك هلاكه. قال أبو طالب الذي تعب من الدفاع عن محمد وعظُم عليه خصومة قومه: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا كذا وكذا، فابق علي وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر مالا أطيق. فقال محمد: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في

يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر (ما تركته) حتى يظهره الله أو أهلك دونه. ثم استعبر رسول الله وبكى ثم قام. فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبلْ يا ابن أخي. فأقبل عليه، فقال أبو طالب: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت.

قد لا تكون هذه القصة قد وقعت، والحوارية هي من نسج الخيال، ولكن واقعيتها تأتي من كونها الأكثر تعبيراً عن الشخصية المحمدية في صبرها وإصرارها على تحويل الفكرة إلى واقع مهما تكبدت في ذلك، والقرآن حافل بالجدالات التي حصلت بين محمد والوثنية القرشية، أو بينه وبين أهل الكتاب من نصارى ويهود: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝﴾ يس: 77-79. ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ ص: 4-5. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝﴾ المؤمنون: 91. ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝﴾ البقرة: 170. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾ آل عمران: 64-65.

وكأي صاحب مشروع إنساني كبير كان محمد يشعر بالإحباط والحزن لتقصير النتائج عن الأهداف المرجوة، فيأتيه الخطاب القرآني ليشد من عزيمته ويواسيه: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝﴾ طه: 1-4. ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾[1]. الضحى: 1-5. ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾

---

(1) هذه الآية ليس لها مناسبة محددة على ما يقوله المفسرون، ومقصدها عام لا خاص.

الأنعام: 35. ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝﴾ يس: 76. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ المائدة: 41. ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ آل عمران: 176.

ويتمثل النجاح الرئيسي لمحمد في اكتمال القرآن المكّي بعون إلهي، وهو معظم القرآن الذي تضمن العقيدة كاملة، أو ما يدعى باللاهوت، وتُركت البنود التشريعية وبعض التفاصيل للقرآن المدني ولكنه فشل في استمالة ما كان يرغب من القرشيين، فعدد الذين هاجروا معه إلى المدينة لم يتجاوز المئة، بينهم ثماني عشرة امرأة وثلاثة وثمانون رجلاً. وعلى الرغم من أن هذا العدد لا يبدو قليلاً بالنسبة لعدد سكان مكة، إلا أنه قليل بالفعل بالنسبة للسنوات الطويلة التي قضاها في الدعوة. وقد حمل معهم هؤلاء في صدورهم القرآن المكي الذي حفظوه وتداولوه، لأن تدوين القرآن على ما تيسر لهم من مواد يخطونه عليها لم يبدأ إلا في المدينة، عندما اتخذ النبي له من تدعوهم السيرة بكتاب الوحي، أي مدوني النص القرآن، وهكذا ولد الشكل الجنيني للمصحف الشريف.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل كانت الفترة المدنية في حياة النبي أقل غموضاً من الفترة المكية؟ وهل انتقلنا هنا من الحكاية إلى التاريخ؟ إن الجواب على هذا السؤال يستدعي منا الخوض في السيرة المدنية المليئة بالأحداث التي ليست سوى أخبار لا ترقى إلى مستوى الحدث، وهو أمر خارج عن النطاق المحدد لهذه الدراسة، وقد يجد القارئ بعضاً من ضالته في الفصل الذي خصصناه لنقد نماذج من السيرة النبوية، وفي الفصل الذي خصصناه للإملاءات السياسية والمذهبية التي تحكمت في السيرة والتي تنازعت على تأويل النص القرآني.

لقد تكاثرت أخبار الفترة المدنية حتى ضاقت بها مجلدات السير، كما تكاثر الرواة الذين رأوا الرسول وسمعوا منه، أو رأوا من رآه وسمع منه. ولكي أعطي فكرة عن مصداقية هؤلاء، أقول إن أبا هريرة الذي روى أكثر من خمسة

آلاف خبر وحديث، قد أسلم في السنة الثامنة للهجرة ولم يعاصر النبي إلا سنتين، بينما لم يرو الصحابة المقربون إلى النبي مثل أبي بكر وعمر وعلي سوى بضع مئات، وكان أقلهم في ذلك عثمان بن عفان الذي روى ستة وأربعين حديثاً فقط. ويأتي في المرتبة الثانية في الإكثار بعد أبي هريرة عبد الله بن عباس الذي روى ألف وثمانمئة حديث، على الرغم من أنه كان في سن الثالثة عشرة عند وفاة النبي وفي سن الثالثة عند ابتداء الفترة المدنية، ومع ذلك فقد حمل لقب «حبر الأمة» و«ترجمان القرآن»، وورد عن النبي حديثان بشأنه: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، «اللهم علمه الكتاب، اللهم علمه الحكمة».

لعل الفترة المدنية كانت أقل غموضاً من الفترة المكية، ولكننا لم ننتقل معها من الحكاية إلى التاريخ، وما زالت حياة محمد غائبة وراء غلالات من عدم اليقين تنقلها إلينا أخبار تعتمد الرواة لا الرواية بحد ذاتها، فما دام الرواة عُدولاً وشهاداتهم مقبولة فإن الرواية صحيحة ولا حاجة للالتفات إلى مضمونها. وهذا ما يعطينا الحق في أن نشك في أي منها ونعمل على استقصائه وفق المنطق السليم فقط. ولعل مما يعطينا الحق في ذلك هو أن القرآن لم يُلمح إلى معظم الأحداث الكبرى الواردة في السيرة المدنية على ما سنبين في الفصل التالي.

4- دواعي السيرة

لقد كان للسيرة النبوية دواعي قادت إلى ظهورها نفصلها باختصار فيما يلي:

1- تأصيل المجتمع الجديد ومنحه الهوية، وهو المجتمع الإسلامي الذي تشكل أولاً في يثرب، ثم اتسع من خلال النشاط الدعوي لمحمد حتى اشتمل على معظم أجزاء العربية[1] بعد فتح مكة، ثم معركة حنين التي كانت آخر دفاعات الهوية الوثنية العربية عن نفسها، فحروب الردة التي شنها الخليفة الأول أبو بكر. فقد كان هذا المجتمع هو لباب الإمبراطورية الوليدة، وبقية مناطقها مجرد استطالات له، ولذلك أصر أوائل المطالبين بالخلافة في مطلع العصر الأموي (الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير) على إبقاء عاصمتهم في مكة أو المدينة.

وفي سياق هذا البحث عن الهوية ظهر مصطلح «الجاهلية» الذي يميز المجتمع الجديد عن المجتمع القديم، وهو مصطلح فضفاض وبعيد عن الدقة يهدف إلى الحط من شأن الهوية الوثنية وتمجيد الهوية الإسلامية. ومن الجدير بالذكر أن هذا المصطلح لم يرد في القرآن سوى مرة واحدة ولكن بصيغة «الجاهلية الأولى»، ودون أن يحمل المعنى نفسه (راجع سورة الأحزاب: 32-33).

وقد قاد هاجس الأصول مؤلفي السيرة إلى استهلال سردياتهم عن حياة النبي من الماضي البعيد الذي لا يعرفون عنه سوى الحكايا وأخبار التوراة، مبتدئين بإسماعيل بن إبراهيم الخليل الذي اعتبروه السلف الأول لعرب الجزيرة الذين تناسلوا من ذريته قحطان «أبو عرب الجنوب أو اليمن»، وعدنان «أبو عرب الشمال»، ثم تابعوا نسل قريش من عدنان حتى حلولها بقيادة

---

(1) غالباً ما استخدم تعبير «العربية» للدلالة على شبه الجزيرة العربية، وهو يقابل تعبير Arabia بالإنكليزية.

قصي بن كلاب الجد الخامس لمحمد، يلي ذلك سرد لأخبار مكة حتى ميلاد النبي، وقد استغرقت هذه المرحلة في سيرة ابن هشام نحو 250 صفحة.

2- عدم وجود إطار كرونولوجي للأحداث في القرآن، فعلى الرغم من أن السردية القرآنية تبدي معرفة عامة بترتيب ما ترويه من أحداث، إلا أن هذه الأحداث لا تنتظم في ترتيب زمني دقيق. مثال ذلك ما ورد في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾، فنحن نعرف هنا أن اليهودية سبقت النصرانية وأن زمن موسى قد سبق زمن عيسى، ولكننا لا نعرف على وجه التقريب كم من السنوات، وهل تُعد بالعقود أم بالقرون أم بالألفيات. ويتوضح غياب هذا الإطار عندما نأتي إلى حياة محمد وأحداث الدعوة، حيث لا إشارات تدل على معرفة التاريخ التقريبي لمولده، ولا سنوات عمره، ولا كم دامت فترة الدعوة في مكة أو في المدينة، وما من أحداث خارجية متوافقة مع الحدث القرآني تفيدنا في تحديد ذلك. وسوف نبين في حينه أن ما يدعى بعام الفيل الذي اعتبرته السيرة سنة ميلاد محمد هو مجرد حكاية بلا أساس تاريخي.

3- عدم وجود إطار جغرافي واضح للأحداث في القرآن، فأسماء المواقع غائبة تقريباً عن مجريات الحدث على عكس ما نجده في التوراة أو في الإنجيل. ولتوضيح هذه المسألة أسوق جانباً من قصة إبراهيم في القرآن وفي سفر التكوين التوراتي. ففي جميع مراحل قصة إبراهيم الموزعة على عدة سور لا نعثر على اسم موقع واحد كان مسرحاً لإحداها، لا سيما موطنه الأول والموطن الذي هاجر إليه بعد تحطيمه للأصنام في معبد قومه الذين لا نعرف من هم ولا أين عاشوا، وتكتفي السردية بالقول: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۝٧١﴾ الأنبياء: 71. ولذلك قال المفسرون اعتماداً على أخبار أهل الكتاب إن موطن إبراهيم كان في العراق ثم نجاه ربه إلى بيت المقدس، دون دليل من الكتاب. فإذا جئنا إلى سفر التكوين التوراتي لوجدنا أن موطن إبراهيم كان في مدينة أور

المعروفة لنا أثرياً وتاريخياً في وادي الرافدين، ومنها ارتحل أبوه المدعو تارح ومعه ابنه إبراهيم وابن ابنه المتوفى هاران وزوجتاهما إلى حاران، وهي مدينة معروفة أيضاً في الشمال السوري وهناك توفي تارح. فترك إبراهيم ولوط حاران وتوجها إلى أرض كنعان التي هي دوماً فلسطين في السردية التوراتية، وأقاما في شكيم وهي نابلس الآن، وبعد رحلة لم تدم طويلاً إلى مصر عاد إبراهيم إلى كنعان وأقام في مدينة حبرون التي دعاها المسلمون «الخليل».

وإلى جانب خلو السردية القرآنية من أسماء الأمكنة الواقعة خارج العربية، فإنها تكاد أن تكون خالية من أسماء الأمكنة العربية أيضاً. فيثرب لم تذكر سوى مرة واحدة في سورة الأحزاب: 13. ومكة ذكرت مرة واحدة فقط ولكن بصيغة «بكة» وذلك في قصص إبراهيم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦﴾ آل عمران: 291. أما تعبير «بطن مكة» الوارد في سورة الفتح: 24، فيدل على موقع الحديبية باتفاق كل المفسرين حيث تم عقد الصلح مع قريش. وما من ذكر لمدينة الطائف، أو أي مكان آخر له صلة بأحداث الدعوة، حتى أننا لا نستشف من القرآن نفسه على أن مكة كانت مسقط رأس محمد، والمكان الذي عاش فيه ومسرح دعوته. وما من دليل على أن تعبير «أم القرى» الوارد في سورة الأنعام: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يدل على مكة. وما من دليل واضح على أن النبي ومن معه من المؤمنين قد هاجروا من مكة إلى المدينة، والفعل «هاجر» وتصريفاته المختلفة يدل في نص على هجرة معنوية لا على هجرة مكانية، على ما سنبينه في حينه.

فإذا جئنا إلى العصر المدني، وجدنا أن معظم الأحداث التي حفلت بها السيرة لا دليل عليها من القرآن، لا سيما ما يدعى منها بالمغازي، فعن غزوة بدر لدينا آية واحدة فُسّرت رغم غمضوها وإشكاليتها على أنها إشارة إلى ذلك الحدث الشهير: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣﴾ آل عمران: 123. والإشكالية تأتي هنا من صفة «أذلة» لأن المسلمين كانوا أذلة في مكة ولم يكونوا كذلك في المدينة، ولا صحة للتفسير القائل بأن «أذلة» في هذا السياق تعني قليلي العدد. وفيما يتعلق

بغزوة أحد لم يجد المفسرون دليلاً قرآنياً عليها سوى ما ورد في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ آل عمران: 144. وقد فُسرت هذه الآية على أنها إشارة إلى ما حدث في معركة أحد من إصابة النبي بجرح بليغ وشيوع خبر موته بين المقاتلين الأمر الذي أوهن من عزيمتهم وكان أحد أسباب خسارتهم للحرب.

وما قلناه عن غزوة أحد ينطبق أيضاً على غزوة الأحزاب أو الخندق وبقية الغزوات التي فصلت السيرة في أخبارها، بما في ذلك الحدث الأهم والمركزي في العصر المدني وهو فتح مكة الذي لا يوجد في النص ولا حتى إشارة غامضة تدل على وقوعه. ولذلك فقد راح المفسرون يبحثون عن مثل هذه الإشارات متتبعين كلمتي «النصر» و«الفتح» بالمعنى الفقهي اللاحق، حيث تعني كلمة «النصر» نصراً عسكرياً وكلمة «الفتح» فتحاً لمدينة محصنة، أو استيلاءً على بقعة جغرافية معينة. وقد وجدوا ضالتهم في المواضع التالية:

* ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ②﴾ الفتح: 1-2.

وقد رأى فريق من المفسرين في هاتين الآيتين إشارة إلى صلح الحديبية الذي اعتُبر في السيرة نصراً للنبي، ورأى فريق آخر إشارة إلى فتح مكة. ولكن القصد القرآني من تعبير، «فتحنا لك» هو ذاته القصد من التعبير القاموسي «فتحنا عليك» الذي يعني هديناك، وأرشدناك، وعلمناك، وفتحنا بصيرتك (راجع قاموس المعاني على الشبكة ـ كلمة فتح عليه). فالفتح في القصد القرآني هو الهدى، والإرشاد، والدعم الإلهي الذي ينير البصيرة، والمعنى هنا قريب من معنى قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③﴾ ففي الحالين هناك «فتح» و«شرح» من أجل الغفران، فقد فتح الله للنبي لكي يغفر له، مثلما شرح له صدره لكي يضع عنه وزره، والوزر في المعنى القاموسي هو الذنب، نقول وزر الرجل، أي إثم أوقع في خطيئة (راجع قاموس المعاني كلمة وزر).

* ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ النصر: 1-3. والمفسرون متفقون على أن الفتح المقصود هنا هو فتح مكة. ولكن سورة النصر هي من أوائل السور المكية، عندما لم يكن محمد يعرف أن دعوته في مكة لن يكتب لها النجاح، وأنه سيهاجر إلى يثرب ثم يعود إلى مكة بعد ثمانية أعوام فاتحاً منتصراً. إن ما تريد هذه السورة أن تقوله لمحمد هو أن سعيه وكدحه في سبيل الدعوة سوف يؤول بالتأكيد إلى نجاح طال الزمن أم قصر. أي إنها نوع من شد الهمة والتثبيت والتبشير بفرج آتٍ، عندما يرى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. واستخدام «إذا» في مطلع الآية يدل على ما نقوله هنا، فهي أداة شرط غير جازمة تفيد التأكيد على وقوع الفعل، مثل قولنا «إذا طلعت الشمس غداً سوف ترى صدق ما أقول»، لأن الشمس سوف تطلع غداً لا محالة، وذلك على عكس قولنا: «إن جئتني غداً تجد ما يسرك»، فأداة الشرط الأخرى «إن» هنا هي أداة شرط غير جازمة أيضاً ولكنها تفيد الشك في وقوع الفعل، أي إنك قد تأتي وقد لا تأتي.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ الصف: 10-13. في دلالة هذه الآيات لدينا روايتان متناقضتان؛ الأولى عن ابن عباس تقول إن المقصود هنا هو فتح مكة، والثانية عن عطاء تقول إنه فتح فارس والروم (راجع تفسير القرطبي لسورة الصف). وهذا يعني أن من عاصر الرسول لم ير في هذه الآيات دلالة مباشرة على فتح مكة. وسوف أتوقف هنا عند كلمة «النصر» وتصريف «نصر» في القرآن، فالنصر قد يعني انتصاراً على الخصم مادياً كان أو معنوياً، ولكنه في معظم الأحيان يعني الفلاح والنجاح كما هو الحال في المواضع التالية:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾ التوبة: 40. فإذا كان مضمون هذه الآية يشير إلى اختباء النبي في غار ثور مع صاحبه عندما شرعا في الهجرة إلى المدينة، فإن النصر المقصود هنا ليس نصراً عسكرياً بل هو نصر معنوي، والجنود الذين أيده بهم لم يحضروا للقتال حيث لا حرب بل للدعم المعنوي. ولعل ما قلناه هنا ينطبق على المواضع التالية أيضاً حيث لا حرب ولا قتال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ الأنفال: 72.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ هود: 113.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة: 86.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ الأعراف: 192.

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ هود: 63.

والقائمة أطول من أن نستنفدها هنا.

إن ما لم يدركه المسلمون حتى الآن هو أنهم يقرأون القرآن بعيون السيرة التي ألقت حجاباً بيننا وبينه، ثم جاء علم أسباب النزول ليلقي حجاباً آخر، عندما جهد أهل هذا العلم في ابتكار الأسباب حيث لا أسباب، وبقوا مع ذلك مختلفين بشأنها وكلٌ يدلي بدلوه في اختلاق مناسبة للآية نفسها.

4- عدم وجود روابط نسب لمحمد في القرآن:

فهو لم يدعَ ابن عبد الله كما هو الحال في السيرة، ونحن لا نعرف من هو أبوه أو من هي أمه. كما لا نعرف أن له عماً يدعى أبو طالب أوجداً يدعى عبد المطلب، أو حتى لا نعرف انتماءه إلى بني هاشم، ولا عن زوجة له أو نسل. كما لا نعرف عن روابطه الاجتماعية: أصدقاء، صحابة، معارف، وفيما عدا الاسم «زيد» الذي نعرف من السيرة النبوية أنه زوج ابنة عمته زينب بنت جحش،

فإن بقية الأسماء التي تقاطعت أخبارها مع أخباره في السيرة غائبة، مثل: أبو جهل، ألو لهب، أبو سفيان...إلخ.

5- المواجهة مع المسيحية:

خلال القرون الميلادية الستة الأولى، كانت المسيحية قد أفلحت في القضاء على الوثنية في غرب آسيا والبقاع المتحضرة من أوروبا، وكان العرب الذين استوطنوا في الشام والعراق قد تحولوا إلى المسيحية وشاركوا في الصراعات العقائدية التي لم تهدأ في العالم المسيحي. ثم ظهرت الدعوة المحمدية وعملت على تطهير آخر معقل للوثنية في المنطقة وهي جزيرة العرب ونشرت فيه الإسلام، وقد تم لها ذلك بعد معركة حنين آخر محاولة من الوثنية العربية للدفاع عن نفسها: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا...﴾ التوبة: 25. ثم جاء أبو بكر وأكمل المهمة من خلال ما دُعي بحروب الردة.

لم يكن في ذهن محمد توسع الدولة الإسلامية باتجاه فارس وبيزنطة، ولم تكن غزوة مؤته وغزوة تبوك (في حال حصولهما) إلا لإظهار قوة الدولة الإسلامية أمام بيزنطة ومنعها من التفكير بالاعتداء. وبعد تشكيل الإمبراطورية الإسلامية وجد خلفاء بني أمية أنفسهم مسلمين يحكمون على شعب مسيحي لم يكن راغباً في تحويله إلى الإسلام بالقوة. وقد قبل أولئك الخلفاء هذا الوضع، ولذلك كانت العملات التي صكها معاوية بن أبي سفيان تحمل إلى جانب العبارات الإسلامية رمز الصليب ورمز الشمعدان اليهودي. خلال هذه الفترة تم التبادل الثقافي بين الإسلام والمسيحية وبدأت السيرة النبوية بالتشكل كحكايا متفرقة تقليداً لسيرة يسوع المسيح في الأناجيل، وكذلك الحديث كتقليد لأقوال يسوع.

ففي القرآن المتكلم هو الله ولا صوت لمحمد، أما في الإنجيل فالمتكلم هو المسيح ولا صوت للآب الذي أرسله، ولذلك فقد جُعل محمد هو المتكلم في الحديث والله صامت، وإذا تطلب الأمر فمحمد ينطق عنه فيما يدعى

بالأحاديث القدسية: «إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه» عن أبي هريرة، ورد في البخاري ومسلم بألفاظ مختلفة. وفي الإنجيل المسيح هو الذي يفعل والآب ساكن، وفي القرآن محمد ساكن والله هو الذي يفعل، ولذلك جُعل محمد في السيرة هو الذي يفعل والله ساكن. وهكذا صار لدى المسلمين إنجيلان لا إنجيل واحد، الأول بأقوال محمد والثاني بما قام به خلال حياته.

هذا التركيز الجديد على محمد جعله في بؤرة العقيدة الإسلامية، مثلما هو يسوع في العقيدة المسيحية، وتطورت صورة النبي التي رسمها القرآن ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الكهف: 110. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾الإسراء: 93. لتتخذ أبعادها العجائبية غير القرآنية، وصار لمحمد جوهر ميتافيزيكي سابق على جوهره الذي تحقق في المكان والزمان. وبدأت بالتشكل، في الخطاب النخبوي للسيرة، فكرة قِدَم ذلك الجوهر الذي دُعي بالنور المحمدي أو الحقيقة المحمدية. وهو قول ظهر عند الشيعة أولاً ثم تبناه السنّة، ولهذا فقد خُلقت من العدم أحاديث للرسول تؤكده مثل قوله: «أنا أول المسلمين». «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»، «كنت نبياً وأدم بين الروح والطين». وهذا ما يذكرنا بأقوال ليسوع في إنجيل يوحنا مثل: «الحق، الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» يوحنا 8: 58 وأيضاً: «والآن مجدني أيها الآب بالمجد الذي كان لي عندك قبل خلق العالم» يوحنا 17: 5. وقد تجلت فكرة الحقيقة المحمدية في العرفان الصوفي منذ الحلاج، وحققت أوضح مدلولاتها في أطروحات عبد الكريم الجيلي والقونوي وابن عربي. وفي خضم التنافس بين الملتين على ولاء الناس خلال العصر الأموي أعطى المسلمون لمحمد دور الشفيع لأمته، وهي شفاعة مقبولة عند الله، وهذا ما لم يرد فيه نص صريح من القرآن، ولكنه يغدو ضرورة لأن يسوع قد تمتع بهذا الدور في أسفار العهد الجديد. فقد ورد في أحد نصوص قبة الصخرة المدونة على جدرانها الداخلية: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله صلى الله عليه، ويقبل شفاعته يوم القيامة في أمته». وهذا هو

المقابل لما ورد في رسالة بولس إلى أهالي رومية 8: 34، من أن يسوع الذي مات وقام فجلس عن يمين الله هو الذي يشفع في المسيحيين. كما ورد في رسالته إلى العبرانيين: 7: 25 ما يشبه ذلك. وكان مؤلف إنجيل يوحنا قد أعطى النموذج الذي احتذاه بولس عندما روى على لسان يسوع قوله: «أنا هو الطريق والحق والحياة وليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» يوحنا 14: 6.

هذا الخطاب النخبوي الذي يجعل من محمد الشخصية المركزية في الإسلام، ويرتقي به من المستوى البشري الذي أكد عليه القرآن إلى مستوى غيبي ما ورائي، ينجدل في السيرة[1] مع خطاب شعبوي يلصق به نقائص بشرية لا تليق بمقام النبوة. فقد صوره كرجل مهوّس بالجنس كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة بغسلٍ واحد وله يومئذٍ تسع زوجات، وقد روي هذا الخبر بألفاظ مختلفة (راجع البخاري 5217). وفي البخاري 1927 عن عائشة: «كان النبي يقبل ويباشر وهو صائم، وكان أملككم لإربه» وفي البخاري (1928) عن عائشة أنه كان يقبلها وهو صائم ويمص لسانها. وفي تفسير الطبري (509/2) عن ميمونة بنت الحارث أن النبي كان يباشرها فوق الإزار وهي حائض. وفي البخاري (288) ومسلم (305) عن عائشة قالت: إذا أراد رسول الله أن يباشر إحدانا وهي حائض أمرها فاتزرت. وبهذه الطريقة يجعل الخطاب الشعبوي في السيرة من محمد مهوّساً جنسياً، وهو الزاهد في الدنيا الذي حمل عبء القرآن 23 سنة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ المزمل: 5، وتقول أخبار الفترة المكية أنه عاش مع زوجة واحدة أكثر من 20 سنة، وعندما توفيت وأراد له أصحابه الزواج اختار السيدة سودة لتاريخها في الإسلام، وكانت في مثل سنه تقريباً وتفتقد إلى الصبا والجمال.

أما كيف كان يقضي محمد ليله فنجد له وصفاً في القرآن، فبدلاً من أن يطوف على نسائه التسع كان يقضي أكثر من نصف ليله في الصلاة والتبتل

---

(1) وأنا أعود للتذكير هنا بأن ما أعنيه بالسيرة ليس فقط ما جُمع بين دفتي كتاب كسيرة ابن هشام أو غيرها، بل أي خبر أو حديث له علاقة بحياة النبي وأعماله وأقواله.

ومناجاة ربه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝﴾ المزمل: 1-8.

لست هنا بصدد عرض كل ما عزته السيرة من نقائص أخلاقية وسلوكية إلى النبي، ولكنني أود التوقف عند خبر الأمر الذي وجهه محمد عقب فتح مكة بقتل ستة أشخاص من قريش ولو تمسكوا بأستار الكعبة لرغبة في الانتقام كبتها سنين طويلة، ومعظمهم من الذين أساؤوا إليه في الماضي، فتم قتل معظمهم، وهم:

1- عبد الله بن أبي سرح. كان يكتب الوحي للرسول ثم انقلب عليه وعاد إلى مكة ينشر الأخبار الكاذبة عنه.

2- عبد الله بن خطل. كان له جاريتان تغنيان بسب النبي.

3- الحويرث بن نفيل. كان يؤذي الرسول.

4- مقيس بن حبابة. أخذ دية أخيه المقتول ثم قتل قاتله وهرب إلى مكة.

5- سارة. مولاة لبعض بني عبد المطلب كانت تسبّ النبي وتؤذيه.

6- عكرمة بن أبي جهل. كان يكثر التأليب على الرسول.

فهل فعل محمد ذلك والسيرة صادقة؟ وجوابي على ذلك هو أنه لم يفعل والسيرة كاذبة، لأنه إن فعل سيكون نبياً مزيفاً لأنه لم يستلهم في سلوكه وصايا القرآن الذي قام بتبليغه، والتي تحث المسلم العادي على كتم الغيظ، والعفو، والتسامح، ومنها:

﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور: 22.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾ آل عمران: 134.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝﴾ الشورى: 36-37.

﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ البقرة: 109.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة: 13.

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ الزخرف: 89.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ آل عمران: 159.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الحجر: 85.

يضاف إلى ذلك أن وصايا القرآن قد قرنت العقوبة بفداحة الذنب، وبالتالي فإن عقوبة الإعدام لا تُفرض على من قام بالشتم أو السب، وحتى بالركل والصفع:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ يونس: 27.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ البقرة: 194.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ النحل: 126.

ومن الأحاديث التي أرجح صحتها قول عائشة: «كان خلق رسول الله القرآن».

5- نقد نماذج من قصص السيرة

أصحاب الفيل

عندما يغيب الزمان والمكان وهوية الشخصيات المحركة للحدث في بعض القصص القرآني التي لا تحتوي إلا على بضع آيات، تبدو القصة لقارئها المتأخر عن عصر الرسول أشبه باللغز، وتستنفر همم أهل السيرة والأخبار إلى حل هذا اللغز على طريقتهم التي وضعناها. وهذا ما نجده في قصة أصحاب الفيل (سورة الفيل)، وقصة الاثنين في الغار (سورة التوبة: 40).

في قصة أصحاب الفيل التي تتألف من خمس آيات فقط، يتضح لقارئها دون عناء أنها تنقل له خبر حملة عسكرية، استخدم قائدها فيلاً أو أكثر وضعها في المقدمة لإحداث الصدمة الأولى عند لقاء الطرفين. ومن المعروف أن هذا التكتيك العسكري قد استخدمه الفرس الذين كانوا يستخدمون فيلة هندية، كما استخدمه الملوك اليونانيون من سلالة سلوقس في سورية الذين كانوا يستخدمون الفيل السوري، وهو سلالة خاصة كانت موجودة في مستنقعات الغاب في شمال غرب بلاد الشام ثم انقرضت. وهذا ما نعرفه من أخبار حملات هؤلاء الملوك على فلسطين لقمع أكثر من ثورة قام بها السامريون هناك.

وإن الأسلوب الشديد الاختزال الذي ميز سورة الفيل يمنعنا من معرفة زمن هذه الحملة، وشخصية قائدها، ومن أين انطلقت، وضد من. ولكننا نعرف أن الحملة انتهت بتدخل إلهي أدى إلى فشلها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ۝﴾. والقصة المتفق عليها في تفسير هذه السورة تقوم على رواية ابن إسحاق التي زودها بالتفاصيل مفسرو القرآن (راجع الطبري وابن كثير والقرطبي).

بطل هذه القصة هو أبرهة الأشرم الذي نعرف من أخبار اليمن أنه كان قائداً للحملة الحبشية التي استولت على مملكة حمير آخر ممالك اليمن القديمة، وراح يديرها نيابة عن ملك إثيوبيا الذي أرسله. وكمسيحي مخلص قام ببناء كنيسة عظيمة البنيان دعاها القليس، وعزم على جعلها محجة للعرب بدلاً عن مكة. ونادى بذلك في جميع أنحاء مملكته. ولكن العرب كرهت ذلك ولم ينل أبرهة مراده، فعزم على التوجه إلى بيت مكة ليهدمه حجراً على حجر، وجهز لذلك جيشاً عرمرماً وضع في مقدمته فيلاً اسمه محمود، وقيل ثمانية يدعى أكبرها محمود وقيل اثني عشر. وعندما اقترب من مكة أغار جنوده على إبل لأهلها وبينها إبل لعبد المطلب جد الرسول فقصده طالباً رد بعيره إليه. فقال له أبرهة: أتكلمني في بعيرك ولا تكلمني في بيت دينك ودين آبائك؟ فأجابه عبد المطلب: أنا رب البعير التي أطالبك بها أما البيت فله رب يحميه. وعندما بلغ أبرهة أطراف مكة: أرسل الله أفواجاً من الطيور تتلى، وفي أرجلها أحجار قاتلة قذفتها على جيش أبرهة فقتلت معظمهم، كما أصيب أبرهة بجراح خطرة فحملوه إلى صنعاء حيث مات هناك. فماذا يقول التاريخ عن هذه الحملة؟

ورد اسم أبرهة في النقوش اليمنية بصيغة «أبراهام»، وهو الاسم الذي حمله إبراهيم في التوراة. كما ورد أيضاً في المصادر السريانية والمصادر البيزنطية كحليف قوي لبيزنطة وعدو للفرس. ونفهم من هذه النقوش اليمنية والمصادر الخارجية أنه حكم من عام 547م إلى وفاته عام 570م. وقد دون خلال حياته نقوشاً تتحدث عن إنجازاته وحملاته العسكرية على كندة وقبائل عربية أخرى، ولكن أياً من هذه الحملات لم يكن موجهاً ضد مكة، والاسم مكة لم يرد في أخبار تلك الحملات وما من ذكر لبيتها الحرام، أو إشارة لاستخدام أبرهة للفيلة في تكتيكه العسكري، لاسيما وأن الفيل لم يستوطن اليمن قط، وشحن الفيلة من أثيوبيا بحراً إلى اليمن مسألة بالغة الصعوبة. يضاف إلى ذلك أنه ولو كان لدى أبرهة فيلة، فإنه من غير الممكن لوجستياً أن تقطع هذه الفيلة طريقاً صحراوياً طوله قرابة الألف كيلو متر (الحساب الدقيق 1.048 كم براً، و817.75 جواً)،

وذلك لعدم توفر الغذاء النباتي لطعامها، لأن الفيل يستهلك نحو 200كغ من النباتات كل يوم، وكذلك عدم توفر الماء لشربها لأن الفيل يشرب نحو 40ل من الماء يومياً، كما أنه بحاجة للتبرد بالبرك والمجمعات المائية، لأنه يفتقر إلى غدد العرق التي تسمح لبقية الثديات بالتبرد من الحر. كل ذلك يقودنا إلى نتيجة منطقية وهي أنه ما من حملة قام بها أبرهة على مكة. فما هي هذه الحملة؟ ومن قام بها وضد من، طالما أنها مذكورة في القرآن؟.

في بحثنا عن الأصل التاريخي لسورة الفيل، ينبغي ألا يقتصر بحثنا على مجريات أحداث شبه الجزيرة العربية، فالعرب لم يكونوا منعزلين في مواطنهم وغير آبهين لما كان يحدث في المنطقة المشرقية، بل كانوا يراقبونه لانعكاسه على حياتهم سلباً أم إيجاباً، لاسيما تلك الحروب الدائمة بين الفرس والروم. وفي عصر الرسول كان المسلمون ميالين إلى الروم لأنهم من أهل الكتاب، وقد عبّرت الآيات الخمس الأولى من سورة الروم عن أسف المؤمنين لهزيمة الروم أمام الفرس في معركة شهيرة في التاريخ، وتوقعهم إلى نصر قادم لهم: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝﴾ ولذلك ربما لم تكن سورة الفيل تقص عن حملة جرت وقائعها في العربية بل في الشام أيضاً بين الفرس والروم، استخدم فيها الفرس الفيلة على عادتهم المعروفة وكان النصر فيها للروم بعون إلهي عبرت عنه السورة بإرسال الطير الأبابيل ترمي الخصم بحجارة من سجيل.

وربما لم يكن هنالك فيلة في سورة الفيل، لأننا لو رجعنا إلى قاموس لسان العرب لوجدنا كلمة «فَيْل» بفتح اللام وتسكين الياء، وهي تعني «الرأي الخاطئ» أو الضلال بالمفهوم القرآني. وهي من مصدر «فالَ»، نقول «فال رأيه» أي وقع في الخطأ، و«فيَّل رأيه» أي خطّأه. ولذلك ربماكانت سورة الفيل تتحدث بشكل عام عن تدمير القوة الإلهية للأقوال العاصية التي لم تصغ لأنبيائها والتي تم القضاء عليها أيضاً بحجارة من سجيل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ هـود: 83. وأيضـاً: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ الحجر: 74.

الاثنين في الغار:

في قصة الاثنين في الغار لدينا قسمين: الأول قرآني واقعي، والثاني حديثي خرافي. فالسردية القرآنية حافظت على ما وجدته من خوارق ومعجزات فيما أعادت روايته من قصص أهل الكتاب، ولكنها التزمت الواقعية في كل ما روته عن عصر الرسول وحياته. وهذه نقطة لم يلحظها معظم من تصدى لنقد الإسلام من عرب ومستشرقين. ولنلتفت أولاً إلى القسم القرآني:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: 40.

تقول لنا هذه الآية إن الله قادر على نصر (أي عون وتأييد) الرسول إذا تقاعس بعض المؤمنين عن ذلك، كما فعل في مناسبة أخرى هي هجرته من مكة إلى المدينة بعد أن سبقه إليها معظم المؤمنين. وقد لجأ في الطريق مع شخص آخر إلى غار ليختفي فيه عن أنظار من لاحقه من المشركين لمنعه من الهجرة على ما ورد في السيرة. ويبدو أن الشخص الآخر جزع عندما أحس باقتراب الملاحقين، فطمأنه الرسول مؤكداً له أن الله معهما ليعينهما ويؤيدهما. وعبرت الآية عن هذا التأييد بتعبير ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾. والجنود في المعنى القاموسي هم الأنصار والأعوان، وهؤلاء ليسوا بالضرورة مقاتلين، مثل قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ الشعراء: 95. فلا حرب ولا قتال هنا وإنما مدد إلهي يُعبَّر عنه لهذه الصيغة القرآنية.

وعلى الرغم من أن تعبير «ثاني اثنين» يشير إلى محمد، إلا أن الشخص الآخر يبقى مجهولاً وثانوياً جداً، لأن الخطاب هنا يستخدم صيغة المفرد في قوله: «إذ أخرجه» لا «أخرجهما»، وكذلك في قوله: «وأنزل سكينته عليه وأيده».

ولذلك من المستبعد أن يكون الآخر هو أبو بكر الصديق على ما ورد في السيرة، بل هو شخص آخر غريب ربما كان الدليل الذي استأجره محمد ليقوده إلى المدينة في طريق غير الطريق المعهودة زيادة في تضليل الملاحقين. وليس في استخدام الخطاب لكلمة «صاحبه» دليل على أن الآخر كان أبو بكر، فيوسف الصديق في السورة القرآنية خاطب زميلين له في السجن قائلاً ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ يوسف: 41. أما عن السبب في اختيار السيرة لأبي بكر صاحباً في الغار، فهو نتاج الصراع السني - الشيعي الذي نشأ فيما بعد، فالسُنة يؤكدون تلك الصحبة والشيعة ينفونها.

هذا عن الجانب الواقعي في قصة الاثنين في الغار، أما عن الجانب الخرافي فقد تكفلت به السيرة والتفسير، وهذا ملخصه:

عندما عزم محمد على الهجرة استأجر دليلاً من أهل مكة ليقوده إلى المدينة في درب آخر غير الدرب المطروق، لأنه توقع ملاحقة المشركين له لمنعه من الهجرة ولو تطلب الأمر قتله. فخرج مع أبي بكر الذي تأخر في الهجرة، وقادهما الدليل إلى غار في جبل ثور لتضليل المشركين وانتظار ما سيكون من أمرهم، وكانت أسماء بنت أبي بكر تمدهم بالطعام والشراب كل يوم. وقد حصل ما توقعه محمد فقد انطلقت ثلة من المشركين في إثرهما ومعهم قَفّاء أثر، فلما وصلوا غار ثور جزع أبو بكر وقال لصاحبه: «لو أن أحداً نظر تحت قدميه لرآنا». فقال له محمد يطمئنه «ما قولك باثنين الله ثالثهما». وهنا تحدث المعجزة، فقد أرسل الله عنكبوتاً نسج بيته على باب الغار، وجاءت حمامة فباضت وراحت تحضن بيضها. فلما رأى القفاء ذلك قال لجماعته: إن الغار فارغ ولا أحد فيه.

زواج النبي من عائشة وزينب بنت جحش

ورد في صحيح البخاري: «حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان عن هشام بن عروة عن عروة: تزوج النبي عائشة وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين، ومكثت عنده تسعاً» وروي في صحيح مسلم عن عائشة قالت: «تزوجني النبي وأنا بنت ست سنين وبني بي وأنا بنت تسع سنين».

هناك رأي شائع في الدفاع عن صحة هذا الخبر مفاده أن البنات في المناطق الحارة يدركن سن البلوغ أبكر منهن في المناطق الباردة أو المعتدلة. وهذا الرأي مردود على أصحابه لأننا نعرف اليوم أنه ما من منطقة في العالم تدرك فيها البنات البلوغ في التاسعة، بما في ذلك السعودية، وبقية مناطق الخليج حيث يمكن للمرء اليوم أن يرى بنات التاسعة يلعبن في الحدائق أو يلهين بالدمى، وفق ما روته عائشة عن نفسها عندما بنى بها الرسول: «فأتتني أمي وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار فأسلمتني إلى رسول الله وأنا بنت تسع سنين» البخاري 3894. أي أنها انتقلت من الأرجوحة إلى سرير النبي. وبما أن بنيتها الضئيلة لم تكن تقبل الجماع، فقد راحت أمها تسمنها بشتى الوسائل على ما روته عائشة: «لما تزوجني النبي عالجوني بغير شيء، فأطعموني القثاء بالتمر فسمنتُ عليه كأحسن الشحم» ابن حجر العسقلاني، فتح الباري 5160.

وقد ترسخت هذه الرواية في الثقافة الإسلامية وطُمست الأخبار الأخرى التي تنفيها. وقد اخترت من هذه الأخبار المقارنة بين عمر عائشة وعمر أختها الأكبر أسماء بنت أبي بكر. فالمصادر الإسلامية (مثل تاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وسير أعلام النبلاء للذهبي)، تجمع على أن أسماء تكبر أختها عائشة بعشر سنوات، وأنها ولدت عام 27 قبل الهجرة. وبما أن النبي تزوج من عائشة في آخر السنة الأولى للهجرة عندما كان عمر أسماء 28 سنة (27 سنة قبل الهجرة + سنة واحدة بعد الهجرة) فإن عمر عائشة في ذلك الوقت كان: 28 عمر أسماء – 10 فارق السن = 18 سنة.

ولدينا طريق آخر للحساب. فعبد الله بن الزبير ابن أسماء الذي طالب بالخلافة ودانت له جزيرة العرب والعراق في عهد عبد الملك بن مروان، قُتل على يد الحجاج عام 73هـ وكانت أسماء عندها في سن المئة. وبذلك يكون عمرها في آخر السنة الأولى للهجرة هو 100-73-1=28. ويكون حسابنا لعمر عائشة صحيحاً.

كما إن بعض الكتب التراثية أوردت من الأخبار ما يتعارض مع الرواية المنسوبة إلى عائشة في البخاري، ومنها كتاب «طبقات ابن سعد» لابن سعد البغدادي الذي عاصر البخاري (ت230هـ) الذي قال إن النبي تزوج من عائشة وهي في التاسعة وبنى بها وهي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وقد تبنى هذا الرأي من الباحثين المحدثين عباس محمود العقاد في كتابه «الصديقة بنت الصديق»، بعد دراسته للمصادر القديمة والموازنة بينهما.

إن الحديث عن زواج النبي من عائشة يفتح أمامنا باب الحديث عن زيجاته الأخرى في العصر المدني، حيث يبدو ولا شيء يشغله سوى النساء. وهذا حديث ذو شجون أتركه للمختصين في السيرة لمعالجته بالمنهج العقلي ذاته. ولكن لا بأس من تناول قصة زواجه من زينب بنت جحش لأن فيها من الكذب ما في قصة عائشة التي اختلقها منحرفون جنسياً متحرشون بالأطفال، لتسويغ ميولهم.

تأتي قصة هذا الزواج في سياق سورة الأحزاب التي مهدت في مقدمتها إلى فرض قاعدة تشريعية جديدة تمنع من تبنى طفلاً أن ينسبه إليه وإلى عشيرته، بل عليه أن يحافظ بدلاً من ذلك على نسبه الأصلي: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ٤﴾ الأحزاب: 4. وفي الآية 37 من السورة نفسها، أي بعد 32 آية، يجري الربط بين القاعدة التشريعية الجديدة وزواج النبي من زينب:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ٣٧﴾ الأحزاب: 37.

قبل أن ندخل في عرض مقاصد هذه الآية القرآنية، وما قاله فيها أهل السيرة والتفسير، سوف أسوق ما توفر لدينا في كتب التراث عن زيد وعن زينب[1].

---

(1) أعلام النبلاء للذهبي، الطبقات الكبرى لابن سعد، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وغيرها.

فزيد المعني هنا هو زيد بن حارثة من بني كلب. وقد تعرض للأسر وهو غلام عندما أغارت خيل بني القين على ديار أمه وكان معها في زيارة لأهلها، فباعوه رقيقاً ثم آل إلى السيدة خديجة بنت خويلد. فلما تزوجها محمد وهبت له زيداً فأحبه وأعتقه وتبناه فصار يدعى ابن محمد. وبعد البعثة أسلم زيد وكان إسلامه بعد خديجة وعلي، ثم هاجر إلى المدينة وشارك في الدفاع عن الإسلام يوم بدرٍ ويوم أحد والخندق وغيرها. وقد أراد محمد أن يزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش التي أسلمت في مكة وهاجرت معه إلى المدينة وكان بمنزلة الوصي عليها. وعندما فاتحها في الأمر رفضت في البداية لوضاعة أصل زيد كرقيق محرر مقارنة بأصلها، ثم رضخت لمحمد الذي كان راغباً في هذا الزواج. ولهذا كان زيد يشكو منها غلظة قول وعصيان أمر.

ولقد نالت هذه القصة حظاً وافراً من شطحات خيال الخطاب الشعبوي في السيرة وفي التفسير. وقدمها لنا ابن جرير الطبري في تفسيره وفي تاريخه بعد أن صارت الرواية التراثية المعتمدة.

فلقد أتى محمد زيداً يطلبه لأمر ما في بيته فهرعت زينب لاستقباله قائلة: ادخل بأبي أنت وأمي. وكان على الباب ستر قماشي فهبت الريح ورفعته فانكشف عن زينب وهي حاسرة فوقع إعجابها في قلب النبي، فأبى الدخول ومضى وهو يهمهم: سبحان مقلب القلوب، سبحان الله العظيم. ثم جاء زيد منزله فقالت له زينب إن النبي جاء يطلبه. فقال لها: وهل قال شيئاً؟ قالت: سمعته يقول: سبحان مقلب القلوب. ففهم زيد ما حصل ووقع في نفسه أن يطلقها ليكون محمد حراً في الزواج منها. ثم إن زيداً مضى إليه وأعلن عن رغبته في طلاق امرأته. فقال له محمد: لماذا؟ هل رابك منها شيء؟ فأجابه: لا والله، ولكن فيها كبراً وهي تتعظم علي وتؤذيني بلسانها. فقال له: أمسك عليك زوجك. قال هذا وهو يخفي في نفسه رغبته بها. فأذعن زيد، ولكن زينب بعد ذلك هجرته فما استطاع إليها سبيلاً ففارقها وحصل الطلاق. ثم جاء الوحي

ليسمح له بـالزواج منـها ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾. أي إذا لم يعد لديهم رغبة بهن أو حاجة إليهن.

هذا قولهم بأفواههم. أما عن مقاصد الآية القرآنية فهذا ما يمكن أن يوصلنا إليه التحليل الموضوعي بعيداً عن سلطة السيرة:

إن أول ما يلفت نظرنا هو افتقاد الآيـة إلى أي تلميـح يقودنـا إلى تصـديق قصة زيارة محمد لزيد في بيته، والريح التي رفعت الستر عن محاسن زينب التي لم ينتبه إليها محمد قبل ذلك. فلقد عرف محمد ابنة عمتـه منـذ صـغرها ورآهـا تكبر أمام عينيه، وتحت رعايته، ولو أنه كان راغباً بها لخطبـها لنفسـه لا لزيـد. ولكنه كان محباً لزيد مثل محبته لزينب وأراد أن يجمع بينهما بالزواج، ففاتحهـا بالأمر ولكنها رفضت بشدة فأصر عليها مثل أخ أكـبر يظـن أنـه يعـرف مصـلحة البنت في هذه الأمور أكثر منها، فرضخت وتم الزواج. وعندما تكررت شكاوى زيد من سلوك زوجته نحوه وعبّر لمحمد عن رغبته في طلاقها، نصحه بالتريـث وحاول إصلاح الأمور بينهما[1]، وهو يخفي ما يعرفه في قرارة نفسه عن صعوبة تحقيق ذلك. وعندما صار ما لابـد منه بـد وحصـل الفـراق، وصـارت زينـب وحيدة، أحس محمد بمسؤولية الوصي وأراد أن يضمها إلى بيته، ولكنـه أشـفق مما يمكن أن يقوله الناس إلى أن سمح له الوحي بـذلك، حـتى لا يكـون علـى المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم.

الغرانيق العلا وحديث الإفك

تقدم لنا قصة الغرانيق العلا، أو ما يدعى بالآيات الشيطانية، نموذجاً من اختلاق قصة في السيرة من أجل تفسير آية قرآنية، والآية هنا هي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ الحج: 52.

---

(1) انصياعاً للتوجيه القرآني: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهمـا أن يصلحا بينهما والصلح خير﴾ النساء: 128.

وقصة الغرانيق تقوم على خبر ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس، مفاده أن النبي قرأ سورة النجم عند المسجد الحرام، ولما انتهى سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس. وعلى الرغم من أن ابن عباس لم يذكر الغرانيق العلا في روايته هذه، ولا السبب الذي دعا المشركين يسجدون مع المسلمين، ولا كيف كشف الله عن بصيرته فرأى الجن أيضاً يسجدون، إلا أن أهل التفسير وأسباب النزول تطوعوا لهذه المهمة وجرت صياغة القصة التقليدية عن الآيات التي وضعها الشيطان على لسان النبي في سياق الوحي، وكانت وراء سجود المشركين، وقد رويت في أكثر من كتاب في أسباب النزول:

لما رأى رسول الله تولي قومه عنه تمنى في نفسه أن يأتيه من ربه ما يقارب بينه وبينهم. فجلس ذات يوم في المسجد الحرام وقد التأم به جمع من قريش، فأنزل الله سورة النجم فقرأها الرسول حتى إذا بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝﴾. ألقى الشيطان على لسانه بعدها: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترجى». فلما سمع المشركون ذلك فرحوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر. وعندما انتهى الرسول من القراءة سجد وسجد جميع من في المسجد، ولم يبق مؤمن ولا كافر إلا سجد. وتفرقت قريش بعد ذلك وعاد الرسول إلى بيته، فلما أمسى أتاه جبريل فقال: ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك وقلت ما لم أقله. فحزن الرسول حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كبيراً. فأبلغه جبريل الآية التي نسخت الآيات الشيطانية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ النجم: 19-27.

هذه القصة من منحولات السيرة، وهي باطلة شرعاً وعقلاً للأسباب التالية:

1- ما من علاقة بين آية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ والآيات الشيطانية في سورة النجم، فالأولى مدنية والثانية مكية، وبالتالي لا نستطيع تفسير الأقدم بالأحدث، لأن ذلك يتعارض مع العِلِّية في المنطق، ومع قواعد أسباب النزول.

2- إن الثناء على غير الله غير ممكن بالنسبة لناقل رسالة التوحيد، كما أنه من غير المعقول أن يكون محمد قد عاد إلى بيته مطمئناً إلى ما نطق به إلى أن جاءه جبريل وقال له مستهجناً: ماذا فعلت؟.

3- إن دخول الشيطان على خط الوحي بين الله ورسوله، يتعارض في اللاهوت القرآني مع طبيعة عمل الشيطان التي أوضحها الخطاب القرآني في سورة الحجر، حيث نقرأ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝﴾ الحجر: 39-41. فإذا لم يكن للشيطان سلطان على الصالحين من الناس، فمن باب أولى أن لا يكون له سلطان على الرسل، ومحمد إذاً لم يكن معصوماً عن الخطأ في سلوكه الشخصي وعن همزات الشيطان، إلا أنه معصوم عن الخطأ في نقل الرسالة.

وقد تبنى مثل هذا الرأي أكثر من مصدر تراثي. فقد قال ابن خزيمة في صحيحه إن القصة كلها من وضع الزنادقة. وقال الإمام البيهقي (والرواية هنا لنظام الدين القمي النيسابوري في «غرائب القرآن ورغائب الفرقان») لو ثبت أن الشيطان ألقى في مسمع الرسول لزال الأمان عن الشرع.

هذا عن الآيات الشيطانية، أما عن حديث الإفك أي الافتراء، فلدينا هنا قصة مختلقة أخرى عن اتهام السيدة عائشة بالزنا وتبرئة الله لها من هذه التهمة الباطلة، وقد شاعت هذه القصة لدى مفسري القرآن الذين رأوا فيها تفسيراً لما ورد في سورة النور:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ النور: 11-17.

وسوف أقدم فيما يلي ملخصاً عن حديث الإفك الذي أورده البخاري في صحيحه، باب كتاب التفسير، الحديث 4749:

فقد اصطحب الرسول معه في إحدى غزواته السيدة عائشة، وفي طريق العودة إلى المدينة توقف الركب للراحة، وعندما نودي للرحيل كانت عائشة قد ابتعدت قليلاً لقضاء حاجتها ثم عادت ولكن عقدها انقطع وراحت تلتمسه وأخرها ابتغاؤه. فجاء حملة الهودج ورفعوه وهم يظنون أنها فيه، ولما وجدت العقد كان القوم قد رحلوا، فَلبثت في مكانها على أمل أن يفتقدوها ويعودوا، ثم غلبها النعاس فنامت. وكان صفوان بن المعطل مكلفاً بالسير وراء الركب لحفظ المؤخرة واستدراك ما فاته المسلمون عند رحيلهم، فلما أدركها وعرفها أناخ راحلته وحملها وانطلق حتى أدركا البقية. وعندما وصلوا إلى المدينة أشاع المنافقون أن عائشة زنت مع صفوان وأن أمر تأخرها عن الركب كان مدبراً بينهما. أما عائشة فقد عادت والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك وهي لا تشعر بشيء، ولكن رابها أنها لم تعد تري من رسول الله اللطف الذي عهدته منه، إلى أن أخبرتها صديقتها أم مسطح بقول أصحاب الإفك، فاستأذنت الرسول في الذهاب لزيارة أهلها أياماً.

وهناك كانت تقضي وقتها في البكاء والنحيب وأبواها يخففان عنها. وفي هذه الأثناء تضاعف شك الرسول حتى إنه فكر بطلاقها، فدعا علي بن أبي طالب وزيد بن أسامة للمشورة؛ فقال له أسامة: يا رسول الله ما نعلم عن أهلك إلا خيراً. وأما علي فقال: يا رسول الله لم يُضيق الله عليك والنساء سواها كثير. ثم إن الوحي جاء ببراءة عائشة في الآيات من 11 إلى 20 من سورة النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ...﴾.

وفي الحقيقة فإن عائشة لم تُتهم في سورة النور ولم تُبرأ، وما علينا سوى قراءة آيات الإفك في سياقها الذي وردت فيه منذ بداية السورة، وجاءت كخاتمة لجملة من التشريعات الخاصة بالزنا وشروط إثباته وعقوبته وفقاً للتسلسل الآتي:

1- تبدأ السورة بفرض عقوبة الزنـا: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ 1-2.

2- ولكن هذا الحد لا يقام إلا بشهادة أربعة شهود على واقعة الزنا: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۞﴾ 4.

3- ثم يتم الانتقال إلى حالة خاصة هي اتهام أحد الزوجين للآخر بالزنى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۞ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞﴾ 6-9.

4- بعـد ذلـك يعـود الخطـاب إلى حالـة عامـة تتعلـق باتهـام النسـاء المحصـنـات، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ.... الخ﴾ وهـذه الحالـة تـأتي في سـياق السورة كخاتمة للتشريعات الخاصة بالزنا وما من مناسبة خاصة بها، وإذا نحن قرأناها في معزل عن السيرة لما وجدنا فيها لا اتهاماً لعائشة ولا تبرئـة لهـا. وليس استخدام الفعل الماضي في قولـه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو....﴾ دلالـة علـى أمـر حدث بل دلالة على أمر سيحدث أو قـد يحدث في المستقبل مثـل قولـه: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ الزمـر: 69. فالحـديث هنـا بصـيغة الماضي عن أمر سيقع في المستقبل. وكذلك الأمر في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۞﴾ الفجـــر: 22-23. وإذا سلمنا جدلاً بأن هنالك قصة ما فإنها ليست قصة الإفك، لعـدم وجـود إشارة ولو غامضة إلى صلتها ببيت النبي على الرغم من أن الخطاب قد تعرَّض أكثر من مرة إلى مسائل تخص حياة النبي الزوجية مثل قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ....﴾ الأحـــــزاب: 32. و: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ...﴾ التحريم: 1.

أبو لهب

لدينا في السيرة قصة أخرى اختُلقت من أجل تفسير سورة قرآنية وهي سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۞﴾.

وأبو لهب هو لقب أطلقته السيرة على عبد العزى بن عبد المطلب عم الرسول، على الرغم من أن كنيته الأصلية التي عُرف بها هي أبو عتبة، وليس له ولد اسمه لهب، أما عتبة فقد أسلم يوم فتح مكة بعد وفاة أبيه وشارك في غزوة حنين وغزوة الطائف. ونظراً لغرابة لقب أبي لهب، فقد قيل في السيرة إن أباه هو من أطلقه عليه في صغره لوسامته وإشراق وجهه. وكانت تربطه بمحمد صلة مصاهرة إذ تزوج اثنان من أولاده بنتي محمد رقية وأم كلثوم، ولكن الأمور ساءت بينهما بعد البعثة، وناصب أبو لهب محمداً العداوة وكان مع عمرو بن هشام الذي لقبته السيرة بأبي جهل من أشد مقاومي الدعوة المحمدية، وكانت زوجته أم جميل تؤذي الرسول بلسانها وأفعالها، كما طلق ابناه عتبة وعتيبة بنتي محمد.

عندما قرر محمد الانتقال إلى العلنية بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية، على ما ورد في السيرة، دعا شيوخ مكة ورؤساء بطون قريش إلى اجتماع على مرتفع الصفا، فحضر معظمهم أو بعث من ينوب عنه. فخطب فيهم محمد بعد أن حمد الله وقال: لو أخبرتكم أن وراء هذا الجبل خيولاً غازية أكنتم تصدقونني؟ قالوا: لم نعهدك إلا صادقاً، قال: إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة (وفي رواية أخرى: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال له أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا، ثم انفض عنه الجمع، ونزلت سورة المسد.

هذه القصة هي سبب نزول سورة المسد لدى كل أصحاب التفسير وأسباب النزول، ولكن هي هي كذلك؟

لطالما رأيت في سورة المسد خطاباً يتسم بالغضب والنزق والرغبة في الانتقام، ومشاعر سلبية تجاه شخص بشري لا يمكن بحال أن تنسبها لخطاب إلهي. ولذلك فقد تشكل لدى رأي مفاده أن هذه السورة هي حديث نطق به محمد بعد الإهانة التي وجهها له أبو لهب، وجد طريقه إلى القرآن خلال عملية الجمع. وقد شجعني على تكوين هذا الرأي ذلك الجدل الذي ثار بين الصحابة خلال عملية الجمع التي تمت في عهد الخليفة عثمان بخصوص المعوذتين، وهما سورة الفلق ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ①﴾ وسورة الناس ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾. فقد رأى عبد الله بن مسعود أنهما ليستا من القرآن وفق ما روى عنه البخاري في صحيحه دون أن يؤيده أو ينفيه؛ ثم أيده شارحه ابن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» فقال إن ابن مسعود لم يكتب المعوذتين في مصحفه، فقد كان يسمع الرسول يعوّذ بهما الحسن والحسين مثلما كان يعوذهما بدعاء «أعوذ بكلمات الله التامة». ولكن البحث قادني بعد ذلك بعيداً عن هذا الرأي.

فماذا لو لم يكن أبو لهب شخصاً بعينه[1] أو عماً للرسول بل نموذجاً في الأخلاق والسلوك تشجبه المنظومة الأخلاقية القرآنية؟

وأول ما قادني إلى هذا التساؤل ذلك الشبه الذي وجدته بين سورة المسد وسورة الهمزة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥﴾ الهمزة: 1-5. وإليكم المقارنة:

ويل لكل هُمزة لُمزة	تبت يد أبي لهب وتب
الذي جمع مالاً وعدده	ما أغنى عنه ماله وما كسب
أيحسب أن ماله أخلده	
لينبذنّ في الحطمة (وجهنم)	سيصلى ناراً ذات لهب

---

(1) قال بهذه الفكرة الباحث المغربي محمد المسيح في برنامجه على اليوتيوب «التاريخ المبكر للإسلام» الحلقة 64، ولكن كلاً منا توصل إليها على طريقته وعالجها بطريقة مغايرة.

وما أدراك ما الحطمة	وامرأته حمالة الحطب
نار الله الموقدة	في جيدها حبل من مسد

وعلى ما نلاحظ من هذه المقارنة، فإن الموضوع في السورتين واحد، وهو الشخص الذي يعكف على جمع المال ولا يبذله للمحتاجين. وقد ركزت سورة المسد على يدي أبي لهب، لأن المجاز القرآني يُعبر عن البخل باليد المغلولة إلى العُنق وعن الإنفاق باليد المبسوطة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الإسراء: 29. ولدينا آيات كثيرة عالجت هذه المسألة في الخطاب ومنها: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ التوبة: 34. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران: 180. ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝﴾ النساء: 37. وقد بلغ عدد الآيات القرآنية التي تحض على الإنفاق وعون المحتاجين نحو 150 آية.

فأبو لهب ليس شخصاً بعينه كما فهم المفسرون، بل هو صاحب النار المنذور للهيب جهنم لبخله في الحياة الدنيا. واستخدام كلمة «أبو» هنا يشبه استخدام الشاعر لكلمة «أخو»!

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله	وأخو الجهالة بالضلالة ينعم

وأيضاً:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل	ببيداء لم يعرف بها ساكن رسماً
أخي جفوة فيه من الإنس وحشة	يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

وقد عانت زوجة البخيل في سورة المسد الأمرّين من بخله، ولذلك ستكون هي التي تحمل الحطب وتوقد عليه في جهنم، وتحزم هذا الحطب بحبل من ليف مربوط إلى عنقها.

تعاني أخبار أبي لهب في السيرة قلة واضطراباً. ولعل أشهرها ما ورد في مسند ابن حنبل عن ربيعة الديلي: «رأيت النبي في سوق المجاز يدعو الناس وخلفه رجل أحول (قارن مع الوسامة المنسوبة إليه في أخبار أخرى) يقول: لا يصدنكم هذا عن دينكم إنه كذاب. قلت: من هذا؟ قالوا: هذا عمه أبو لهب». وعلى الرغم من اتفاق الأخبار على أن لقب أبي لهب لا يعني أن له ولداً بهذا الاسم، فقد ورد في تفسير الكشاف خبرٌ مفاده أن النبي دعا على أبي لهب قائلاً: اللهم سلط عليه كلبك، ثم إن أبا لهب جهز تجارة إلى الشام وأوكل بها غلمانه وبعث معهم بولده لهب، وأوصاهم قائلاً: إني أخاف عليه دعوة محمد. فكانوا كلما نزلوا منزلاً ألصقوه بالحائط وجعلوا عليه الثياب والمتاع. وفي أحد الأيام وبينما هم كذلك جاء سبع فانتشله وقتله.

هذا الغموض وتضارب الأخبار يؤيد ما ذهبنا إليه في تفسير سورة المسد. ونحن إذا لم نقبل بمثل هذا التفسير علينا أن نقبل فكرة أن الله أنشأ خصومة مع شخص من عصر النبي، ولشدة غيظه منه ذكره بالاسم وهذا أمر غير معهود في الخطاب القرآني.

معجزات الرسول

المعجزة في اللغة هي ما يعجز الإنسان عن القيام به، وبالمفهوم الديني هي أمر خارق للمألوف يظهره الله على يد نبي تأييداً لنبوته. وقد استخدم الخطاب القرآني كلمة «آية» بهذا المعنى ولم يستخدم كلمة معجزة. مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ المؤمنون: 50. كما استخدمها بمعنى علامة وأمارة: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ آل عمران: 41. وبمعنى عبرة: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ يونس: 92.

ولكي نفهم الدور الذي أدته المعجزة في القرآن، علينا أن نعي حقيقة في غاية الأهمية مفادها أن كل ما أورده القرآن من معجزات زود بها الله أنبياءه، ينتمي إلى أساطير أو قصص الأولين في الأدبيات الدينية المسيحية واليهودية بشقيها القانوني

وغير القانوني). وقد رويت تلك المعجزات كما وردت في مصادرها دون إضافة أو نقصان إلا ما تطلبته جماليات السرد الأدبي.

ولكن عندما يتحول الخطاب من روايات الماضي إلى رواية الحاضر، أي إلى عصر الدعوة المحمدية، ينحو أسلوبه نحو الواقعية وتفقده المعجزة دورها في تثبيت الإيمان، كما يغدو المخاطب مطالباً بالتفكير والتعقل والتدبير بدلاً من التطلع إلى معجزة صارت أثراً من الماضي:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ آل عمران: 91.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: 176.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يونس: 24.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: 4.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ الحجر: 46.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾ محمد: 24.

ولذلك مدح الخطاب العلم والعلماء لأن طريقهم إلى الإيمان ممهد:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر: 9.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 230.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ آل عمران: 7.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ الحج: 54.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ الروم: 22.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ آل عمران: 18.

ومع ذلك كان المشركون يصرون على النبي أن يأتيهم بآية حسية مادية، وكان الجواب هو أن نبوة محمد خالية من تلك الآيات.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝﴾ الرعد: 7. أي إن طريق الهداية في نبوة محمد ليس طريق الأنبياء السابقين، وعليهم ألا ينتظروا آية.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ۝ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝﴾ الإسراء: 89-93.

هذا الرد القاطع للرسول على من يطلب المعجزة يترافق مع التعليل القرآني لعدم تزويد محمد بالآيات المادية:

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ البقرة: 211.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ يونس: 96-97.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ الإسراء: 59.

ويبقى كل ما ذكرناه آنفاً من دليل قرآني لا ضرورة له أمام الحقيقة الناصعة وهي أنه لو كان لمحمد معجزة واحدة لما سكت عنها القرآن، والحقيقة أنه سكت وما من إشارة ولو عابرة أو غامضة إليها. ولكن السلف الصالح الذي انقلب على القرآن لم يكتف باختلاق معجزة واحدة بل العشرات منها. وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن في سورة الفرقان: 30. ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝﴾. وفي سورة الإسراء: 46 ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾.

ولعل ابن هشام في سيرته كان أقل هؤلاء الصالحين في عدد المعجزات التي رواها وهي لا تزيد عن العشر.

- فقد كان الحجر والشجر يكلمه في ابتداء النبوة كلما سار وحيداً وابتعد عن البيوت في شعاب مكة، فلا يمر بحجر أو شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

- وخلال جداله مع رُكانة بن عبد يزيد ليقبل دعوته إلى الإسلام دعا إحدى الأشجار فسارت واقتربت حتى صارت بين يديه، ثم قال لها ارجعي فرجعت إلى مكانها.

- وفي غزوة أُحد خرجت عين قتادة بن النعمان من محجرها فأخذها محمد وردها إلى مكانها فعادت سليمة مثل أختها. وهذه المعجزة هي نسخة عما فعله يسوع في إنجيل مرقس عندما جاء حرس الهيكل للقبض عليه فقام أحد تلاميذه بضرب عبد رئيس الكهنة بسيفه فقطع له أُذنه فشفاها يسوع بلمسة منه (لوقا 22: 43-51).

- وفي يوم بدر انكسر السيف بيد عكاشة بن محصن، فأعطاه محمد خشبة تحولت في يده إلى سيف.

- عندما انسل محمد من بيته للهجرة والمشركون يحاصرونه ليمنعوه من ذلك، رماهم بحفنة من تراب فلم يروه وانسل تحت أبصارهم.

- عندما كان المسلمون يحفرون الخندق حول يثرب في غزوة الخندق، وصلوا أرضاً صلبة استعصت عليهم، فدعا محمد بإناء فيه ماء فتفل فيه ثم نضح الماء على الأرض فصارت لينة.

- وهناك معجزتان في تكثير الطعام خلال غزوة الخندق، إحداهما تكثير حفنة من التمر أطعم بها جميع العاملين على الحفر وزاد عنهم. والثانية تكثير قصعة من اللحم لا تكفي لأكثر من أربعة أشخاص أكل منها أهل الخندق فوجاً بعد فوج. ونحن هنا مرة أخرى أمام نسخة من معجزات يسوع عندما عمد إلى تكثير خمسة أرغفة وسمكتين فأطعم مئات الأشخاص الذين كانوا يستمعون إلى موعظته، وزاد عنهم اثنتا عشرة قفة مملوءة من السمك (انجيل مرقس 6: 39-44).

- ويوم فتح مكة طاف محمد على راحلته بالكعبة وحولها الأصنام قائمة على قواعدها مثبتة بالرصاص، فكان كلما أشار بعصاه إلى صنم هوى من تلقاء ذاته إلى الأرض.

- في طريق العودة من غزوة تبوك مر بوادٍ فيه ماء ضحل لا يروي أكثر من ثلاثة، فوضع كفه في الماء ثم نضحه فانبجس الماء وله صوت كصوت الصواعق، فشرب منه كل من كان معه وسقوا رواحلهم.

بعد ذلك تزايدت المعجزات، فوصلت في سيرة ابن كثير إلى مئة وعشرين، وفي كتابه الآخر «البداية والنهاية» صارت بالمئات وأفرد لها فصلاً خاصاً تحت عنوان «دلائل النبوة». وفي سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، أفرد لها مؤلفها أيضاً فصلاً خاصاً. ولم يقتصر الأمر على أهل المذهب السني، وإنما شاركهم به أهل المذهب الشيعي، فنجد في كتاب الهداية الكبرى لمؤلفه الحسين بن حمدان الخصيبي تفصيلاً لثلاثين معجزة من معجزات الرسول.

ولعل أكثر المعجزات شيوعاً لدى عامة المسلمين اليوم هي معجزة شق القمر، ولذلك سوف أتوقف عندها وقفة قصيرة. فقد ورد في البداية والنهاية لابن كثير عن ابن عباس قوله: انتهى أهل مكة إلى الرسول فقالوا: هل من آية نعرف بها أنك رسول الله. فخرج عليهم في ليلة منتصف الشهر القمري وكان القمر في تمام اكتماله بدراً فأشار إليه بيده فانشق نصفين نصفه على الصفا والآخر على المروة ثم غاب. وبعد ذلك نزلت سورة القمر: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ②﴾. التي يرى معظم المفسرين أن وراءها معجزة شق القمر. (راجع أيضاً البخاري الحديث رقم 4869).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل رأى أهل مكة انشقاق القمر وحدهم من دون بقية الناس، أم أنه كان ظاهرة كونية رآها الناس في كل مكان؟ فلو أن سكان مكة رأوه وحدهم فمعنى ذلك أن الرسول خدعهم بسحره فتهيأ لهم انشقاقه، وبالتالي فهو مجرد ساحر لا نبي، ولو أن الانشقاق كان ظاهرة

كونية لشوهدت في جميع مناطق النصف الشمالي من كرة الأرض، ولرصدها علماء الفلك وأثبتتها سجلات الحضارات المتطورة فيما بين اليونان والهند، حيث كانت المراصد تتابع أحداث السماء وحركات الكواكب والنجوم ومسارات المذنبات. كما كان العرب زمن اختلاق هذه المعجزة من قبل السلف الصالح قد التحقوا بركب الحضارة، وكان علماء بيت الحكمة في بغداد قد قاسوا محيط كرة الأرض بالدرجة العربية التي تختلف عن الدرجة اليونانية في حساب الدوائر، وخرجوا بنتائج أقرب ما تكون إلى نتائج العلم الحديث، ولكن حراس الدين الذين عاصروا هذا التقدم كانوا في وادٍ آخر جاهلين بكل ما كان يجري حولهم.

إن التفسير الأقرب إلى الصواب لسورة القمر هو أنها تتحدث عن أحداث اليوم الآخر القريب مجيئه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝﴾ الفرقان: 25. و ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ الأنبياء: 104. ويأتي انشقاق القمر في سياق هذه الأحداث.

حديث الإسراء

الإسراء، وهو في اللغة السير ليلاً، حادثة وقعت للنبي قبل سنتين من الهجرة بعد أن خذله أهل الطائف عندما قصدهم للدعوة، وقد ورد ذكر هذه الحادثة في مطلع سورة الإسراء: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝﴾ فالمسجد الحرام هو الكعبة وما يحيط بها من أرض حرام، أما المسجد الأقصى، أي البعيد أو الأبعد، فمكان لا تسعفنا هذه الآية ولا غيرها من أي الذكر الحكيم في تخمين مكانه، ولكنه بالتأكيد ليس بيت المقدس، لأن القدس في ذلك الوقت كانت مدينة بيزنطية مسيحية ولا يوجد بها سوى بضع كنائس مسيحية مرتبطة بقصة حياة السيد المسيح، ومن المستبعد أن تكون إحداها هي المقصودة بالمسجد الأقصى. وكان اسم المدينة إيليا كابيتولينا وعرفها العرب دوماً وحتى أواسط العصر الأموي بالاسم إيليا، ونجد هذا الاسم على أحجار المسافات التي وضعها عبد الملك بن

مروان بينها وبين دمشق. أما المعبد اليهودي المدعو تاريخياً بهيكل أورشليم، فقد كان أطلالاً منذ نحو أربعمئة وخمسين سنة. وقد بنى هذا المعبد الملك هيرود الكبير الذي أعطاه الرومان السلطة على كامل فلسطين وشرقي الأردن، وحكم قرابة ثلاثين سنة حتى وفاته عام 4ق.م، وكان بناؤه انطلاقاً من المعبد القديم الذي بناء العائدون من السبي البابلي نحو عام 450ق.م. فقد وسع هيرود المعبد القديم بمقدار الضعف، وزاد في بنيانه حتى غدا درة معابد الشرق، في عام 70م قمع الجنرال الروماني تيتوس ثورة عارمة لليهود ضد الحكم الروماني، فاقتحم أورشليم ودمر الهيكل وأحدث خراباً واسعاً في المدينة. وفي عام 335 قمع الإمبراطور هادريان ثورة ثانية لليهود ولم يكتف بتدمير أورشليم بل سواها في التراب وبنى في مكانها مدينة رومانية إيليا كابتولينا، ومنع اليهود من الاقتراب منها على مسافة 100كم، وأبقي على أطلال المعبد الباقية منذ الثورة الأولى لسببين، الأول صعوبة تفكيك المصطبة الحجرية العملاقة التي بنى عليها، والثاني إبقاؤه لتلك الأطلال تذكيراً بعظمة روما وعبرة للآخرين.

عندما تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية (306-337م)، قامت أمه هيلينا ببناء كنيسة المهد في إيليا وتبعتها بقية الكنائس. كما سمح قسطنطين لليهود بدخول المدينة والصلاة عند القسم الباقي من السور الغربي للمعبد، والذي دعي عند اليهود فيما بعد بحائط المبكى، وعند المسلمين بحائط البراق (من أجل مزيد من المعلومات عن تاريخ موقع المسجد الأقصى، راجع بحثنا تاريخ هيكل أورشليم في قسم الملاحق. إيليا هذه هي التي سلمت مفاتيحها للخليفة عمر بن الخطاب وفق المصادر الإسلامية. ولذلك فإن أي خبر تدعى فيه إيليا بالقدس أو بيت المقدس هو صناعة أموية. وإليكم السبب:

لقد كان عبد الملك بن مروان (65-86هـ) في صراع مع عبد الله بن الزبير الذي لم يعط البيعة ليزيد بن معاوية، ثم أعلن نفسه خليفة بعد وفاة يزيد ودانت له مناطق العربية ثم العراق، وفشلت كل محاولات الأمويين في إخضاعه. ولذلك فقد توقع عبد الملك أن تبقى الإمبراطورية موزعة بينهما إلى أمد غير

معروف. وبما أن ابن الزبير كان مسيطراً على الأماكن المقدسة وحامياً لها، فقد أراد عبد الملك أن يكون له في الشام مكان مقدس يقارب في مكانته عند المسلمين مكانة مكة. وبما أن التساؤل حول مكان المسجد الأقصى كان قائماً إلى ذلك العهد، فقد ادعى عبد الملك أنه في إيليا وفي موقع أطلال المعبد اليهودي، وعهد إلي ابنه الوليد بالإشراف على بناء مسجد في ذلك المكان. فشيد الوليد قبة الصخرة فوق نتوء صخري بارز في أعلى المرتفع، قيل فيما بعد أنه المكان الذي عرج منه الرسول إلى السماء، لتكون في قداستها معادلة للحجر الأسود في الكعبة. ثم رفع الوليد جدران الفناء الخارجي للهيكل على أساسات هيرود الكبير، وأكمل بناء حائط المبكى على النمط الإسلامي. ويستطيع الزائر اليوم تمييز القسم الأسفل من الحائط المبني بحجارة رومانية ضخمة عن القسم الأعلى المبني بحجارة إسلامية صغيرة. ويبدو أن ما تبقى من معالم المسجد قد تم في خلافة الوليد، وهي المسجد القبلي، والمصلى المرواني، ومعالم أخرى يصل عددها إلى أكثر من مئة معلم.

وقد حدث ما توقعه عبد الملك، وتحول المسجد الذي دعاه بالأقصى إلى محجة يقصدها المسلمون للبركة ومشاهدة عجائبها المعمارية، وترافق ذلك مع حملة إعلامية منظمة تحت إشراف الخلافة في الترويج لأحاديث نبوية موضوعة في فضل المسجد الأقصى مثل: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى». كما تم بعناية فائقة صياغة حديث الإسراء وحديث المعراج. وإليكم حديث الإسراء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق وفق أكثر من رواية:

بينما رسول الله نائم في المسجد الحرام جاءه جبريل فهمزه بقدمه فجلس، فأخذ بعضده فقام معه، فخرج به إلى باب المسجد فأتاه بالبراق وهو دابة بيضاء بين الحمار والبغل في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، يضع حوافره إذا جرى في منتهى بصره، وهي الدابة التي كان تحمل عليها الأنبياء قبله. فقال له جبريل أن يركبه. فلما دنا منه ليركبه شمس، فوضع جبريل يده على رقبته ثم قال:

ألا تستحي يا براق مما تفعل؟ فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله منه. فاستحيا البراق حتى نضح عرقاً ثم قرّ حتى ركبه، ومضى به وجبريل معه حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فأمهم وصلى بهم ثم عاد إلى مكة كما جاء.

فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فقال أكثرهم إن العير لتمضي إلى الشام في شهر وترجع في شهر أفيذهب محمد في ليلة واحدة؟

ثم مضوا إلى أبي بكر وقالوا له: هل لك في صاحبك. إنه يزعم أنه قد جاء بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة. فقال أبو بكر: والله لئن قال ذلك فقد صدق. ثم أنهم عادوا إلى محمد ومعهم أبو بكر، فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم. قال: يا نبي الله صفه لي فقد جئته وأعرفه، فجعل النبي يصفه لأبي بكر وكلما وصف منه شيئاً قال له أبو بكر صدقت. وزاد النبي على ذلك أنه وصف إبراهيم وعيسى وموسى كما رآهم في المسجد عندما صلى بهم.

لا أعتقد أن سذاجة هذه القصة بكل تفاصيلها بحاجة إلى ما سأقدمه من تعليقات فيما يلي:

1- يبدو من قول أبي بكر أنه يعرف المسجد الأقصى (أو بيت المقدس) وقد زاره، أنه كان بنية معمارية معروفة في مدينة إيليا، ولكن خبر هذه البنية المعمارية لم يرد في أي مصدر تاريخي، ولا يوجد في المدينة سوى الكنائس سواء في داخلها أم على جبل الزيتون المقابل لمرتفع الهيكل شرقاً. ويؤكد ذلك خريطة لإيليا مرسومة على لوحة أرضية فسيفسائية اكتشفت في موقع مأدبا بشرقي الأردن وترجع بتاريخها إلى القرن السادس الميلادي، أي إلى عصر الرسول، ويبدو فيها موقع الهيكل اليهودي فارغاً.

2- ما الذي كان الأنبياء يفعلونه في المسجد الأقصى قبل أن يأتي الرسول ويصلي بهم إماماً؟ وهل كانوا أرواحاً أم أجساداً؟ إن الوصف الدقيق الذي قدمه

الرسول لإبراهيم وموسى وعيسى في خبر ابن إسحاق، يدل على أنه كان يصف أجساداً لا أرواحاً. فكيف حصل ذلك وهم أموات منذ زمن بعيد، والأجساد لا تقوم إلا بعد انقضاء هذا العالم، أما إذا كان يصف أرواحاً تراءت له في أجسام بشرية، فلماذا يصلون والتكليف يسقط بعد الموت، وفي الآخرة لا أحد مكلف.

3- على أن كثيراً من الغموض الذي يحيط بخبر الإسراء ينجلي إذا كان الإسراء قد حصل بالروح لا بالجسد، أي في رؤيا حلمية صادقة أرادها الله له. وهذا ما تفيدنا به سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق، فقد كانت عائشة تقول: ما فُقد جسد رسول الله ولكن الله أسرى بروحه[1]. وكان معاوية بن أبي سفيان إذا سئل عن مسرى الرسول قال: كانت رؤيا صادقة من الله تعالى[2]. وقال الحسن إن الآية 60 من سورة الإسراء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، نزلت فيمن ارتد عن الإسلام بعد سماعه حديث الإسراء. ثم يختم ابن إسحاق هذه الروايات بقوله: كان رسول الله فيما بلغني بقول تنام عيناي وقلبي يقظان. فالله أعلم في أي الحالين كان عندما عاين من أمر الله ما عاين.

4- أما عن البراق دابة الإسراء، فقد جاء وصفه/ وصفها في حديث نبوي أورده العسقلاني في «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» عن ابن عباس: «لها خد كخد الإنسان، وعُرف كالفرس، وقوائم كالإبل وأظلاف وذنب كالبقر، وكان صدرهُ ياقوتة حمراء». هذا التناوب في الوصف بين الذكورة والأنوثة، اعتمد عليه الفن المصور الإسلامي في تصوير البراق برأس امرأة بشرية على ما نراه في الفن الهندي من العصر المغولي. وكذلك الأمر في الفن الشعبي السوري على ما نراه في رسوم أبو صبحي التيناوي (1888-1973).

(1) ومرة أخرى نجد عائشة تروي عن أحداث لم تشهدها، في الوقت الذي نتوقع هنا أن نسمع صوت خديجة الغائب دوماً.

(2) كان معاوية عند الإسراء في سن الثالثة عشرة.

5- تيمة (=فكرة/Theme) البراق لم ينفرد بها الحديث النبوي، بل هي تيمة متجذرة في ميثولوجيا المنطقة وفنونها التصويرية ولعل أقرب الأقرباء إليها هي تيمة «الكروب» في التوراة، وصيغة الجمع منها «كروبيم»، وهم طبقة من الملائكة يظهرون للمرة الأولى في الكتاب في آخر قصة آدم وحواء بعد طردهما من الفردوس، عندما وضع الرب زوجان منهم لحماية الطريق إلى شجرة الحياة: «فطرد الإنسان وأقام (=وضع) الكروبيم شرقي جنة عدن ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة، التكوين 3: 34. ومنظر هؤلاء مزيج من إنسان وحيوان ولكل واحد أربعة أجنحة (سفر حزقيال 1: 6-8 و10: 18-21). وكان إله إسرائيل يركب على كروب كلما قرر زيارة الأرض (سفر المزامير 18: 10). ويبدو لي أن الاسم براق مشتق من الاسم كروب، لأننا إذا حذفنا من كليهما حرف العلة الأوسط لوجدنا أن كلمة براق هي كروب مكتوبة بشكل معكوس ب ر ق/ك ر ب.

والكروبيم أيضاً ليست تيمة أصلية في التوراة، وإنما مستمدة من الفن المصور لثقافة الشرق القديم، حيث نرى البراق/ الكروب على هيئة هي مزيج من ثور وأسد لها أجنحة النسر. ففي بابل وآشور نجد تماثيل ضخمة لهؤلاء على بوابات القصور الملكية والمعابد باعتبارها أرواحاً حارسة. وفي سورية نجد هؤلاء على الأختام الأسطوانية أو المنحوتات البارزة العاجية، وهي تحرس شجرة الحياة أحياناً، أو تحمل عرش الإله في أحيان أخرى.

ولمزيد من المعلومات عن البراق في الفن المصور لثقافة الشرق القديم، راجع مقالة البراق دابة الإسراء والمعراج في قسم الملاحق آخر الكتاب.

حديث المعراج

لحديث المعراج روايتان؛ الأولى لابن إسحاق في سيرة ابن هشام تجعل من قصة المعراج استمراراً لقصة الإسراء، فالرسول لم يعد إلى مكة بعد زيارته المسجد الأقصى في بيت المقدس بل يعرج إلى السماء بواسطة سُلّم يدعوه ابن إسحاق بالمعراج، منصوب بين الأرض والسماء. وهذه الصورة مستمدة من

قصة يعقوب ابن إسحاق عندما فرَّ من أخيه عيسو بعد الخلاف الذي حصل بينهما على ميراث الأب: «فخرج يعقوب من بئر السبع وذهب نحو حاران[1]، وصادف مكاناً فبات هناك ورأى حلماً، وإذا سُلّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهو ذا الرب واقف عليها فقال: أنا الرب إله إبراهيم وإله إسحاق...» سفر التكوين 28: 10-13.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخدري أنه قال: سمعت رسول الله يقول: لما فرغت مما كان في بيت المقدس أوتي بالمعراج، لم أر قط شيئاً أحسن منه، وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حُضر، فأصعدني صاحبي (=جبريل) فيه حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة...الخ.

الرواية الثانية للبخاري، باب المعراج، وفيها تستقل رواية المعراج عن رواية الإسراء، ويحصل الصعود إلى السماء من مكة على ظهر البراق أيضاً:

حدثنا هُدبة بن خالد. حدثنا همام بن يحيى. حدثنا قتادة عن أنس بن مالك. عن مالك بن صعصعة: أن نبي الله حدثهم ليلة أسري به: بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحجر، مضطجعاً إذ أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه، وأشار إلى نحره وأسفل بطنه، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يضع خطوة عند أقصى طرفه، فحملت عليه فانطلق بي حتى أتى السماء الدنيا...الخ.

ووفق أبسط قواعد المنطق، فإنه عندما تتعارض الروايات في كل التفاصيل يغدو الخبر موضع شك وعارياً عن المصداقية. ولكن سوف نتابع القصة لدى ابن إسحاق التي نقلها عمن لا يشك بهم دون ذكر أسمائهم:

---

(1) حرّان في الشمال السوري على الحدود التركية الحالية.

تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقني ملاك إلا ضاحكاً مستبشراً يقول خيراً ويدعو به، حتى لقيني مَلَكٌ فقال مثل ما قالوا ودعا بمثل ما دعوا به، إلا أنه لم يضحك ولم أر منه من البِشْر مثل الذي رأيته منهم. فقلت لجبريل: من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك؟ فقال لي جبريل: أما أنه لو ضحك إلى أحد كان قبلك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك. هذا مالك خازن النار. فقلت لجبريل: ألا تأمره أن يريني النار. فقال: بلى. يا مالك أر محمداً النار. فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى. فقلت: يا جبريل مره فليردها إلى مكانها.

لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم، فيقول لبعضها إذا عُرضت عليه خيراً ويُسر به ويقول روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أف ويعبس بوجهه ويقول روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته. ثم رأيت رجالاً لهم مشافر (=شفاه) كمشافر الإبل في أيديهم قطع من نار كالأفهار (=جمع فهر وهو الحجر على مقدار الكف) يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى. ثم رأيت رجالاً لهم بطون ضخمة لم أر مثلها قط، يمر الآخرون عليهم عندما يعرضون على النار كالإبل المهيومة (=العطشى) يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال:هؤلاء أكلة الربا.

(بعد وصف عدة زمر أخرى من المعاقبين نأتي إلى المرحلة الثانية من الصعود).

ثم أصعدني إلى السماء الثانية: فإذا فيها ابن الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا. ثم أصعدني إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر في ليلة البدر. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب. ثم أصعدني إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل فسألته من هو فقال: هذا إدريس الذي رفعه الله مكاناً علياً ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝﴾

مريم: 58. ثم أصعدني إلى السماء الخامسة، فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية عظيم العثنون (=اللحية) لم أر كهلاً أجمل منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا هارون بن عمران. ثم أصعدني إلى السماء السادسة. فإذا فيها رجل طويل أقنى (الأنف)، فقلت: من هذا يا جبريل؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أصعدني إلى السماء السابعة، فإذا فيها كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور (وهي الكعبة السماوية المناظرة للكعبة الأرضية في مكة) يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يرجعون إلا يوم القيامة. ولم أرَ رجلاً أشبه بصاحبكم (أي محمد) ولا صاحبكم أشبه به منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم.

عند هذه النقطة يتوقف الراوي عن الحديث بلسان محمد، ويتحدث عنه بصيغة الغائب فيقول: وعن عبد الله بن مسعود عن النبي فيما بلغه أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السماوات إلا قالوا له حين يستأذن بالدخول: من هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد. فيقولون: أو قد بُعث؟ فيقول: نعم. فيقولون: حياه الله من صاحب وأخ. حتى انتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربه، ففرض عليه خمسين صلاة في كل يوم.

وهنا أود أن أقطع سردية ابن إسحاق، لأن جملة «ثم انتهى به إلى ربه ففرض عليه خمسين صلاة في كل يوم» تستوقف القارئ، لأن الخيال الفقير لراوي هذا الحديث الذي لم يقله محمد بالتأكيد، لم يسعفه في تصور هذه المواجهة المباشرة بين الله ونبيه، فمر عليها مرور الكرام وكأنها أمر اعتيادي، تفادياً للإجابة عن أسئلة عديدة. فهل رأى محمد ربه؟ أم أنه رأى هوية قدسية تفيض عنه؟ هل تحدث الله بصوت سمعه محمد؟ أم أنه أحس في قلبه بكلمات ربه؟

وقد واجهت هذه المشكلة واضع الصيغة الأخرى للحديث في صحيح البخاري (الذي أوردنا مقدمته منذ قليل)، فزادها غموضاً بعد أن استعار تيمة «سدرة المنتهى» من سورة النجم لإضفاء البعد الأسطوري على المشهد ولكنه وقع في فخ الخرافة فقال بعد لقاء محمد بإبراهيم: «ثم رُفِعتْ لي سدرة المنتهى،

فإذا نبقها (=ثمرها) مثل قلال هجر[1]، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، وإذا أربعة أنهار؛ نهران باطنان ونهران ظاهران. أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات (قارن مع سفر التكوين في التوراة 3: 11-12). ثم رفع لي البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك. ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم». وهكذا ومع استخدامه للفعل المبني للمجهول «فُرضت» يتفادى الراوي أي كلام عن المواجهة بين محمد وإلهه.

ولكي أبين مدى فقر خيال هؤلاء الرواة في وصف المشهد الرئيس في قصة المعراج، وهو مثول محمد أمام القدرة الإلهية، سوف أضعهم في مقارنة مع محرري أسفار التوراة عندما وصفوا المواجهة بين أنبيائهم وإله إسرائيل.

في مطلع الإصحاح السابع من سفر دانيال، يقول النبي: «كنت أرى في رؤى الليل». ثم يتابع قص رؤياه حتى يصل إلى ما يهمنا منها هنا، وهو الحضور الإلهي في المشهد: «كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام[2]. لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار بكراته نار متقدة. نهر نار جرى وخرج من قدامه. ألوف ألوف تخدمه، وربوات[3] وقوف قدامه. فجلس الديان وفتحت الأسفار...».

وفي المواجهة الأولى مع موسى تتجلى القدرة الإلهية في لهيب نار شجيرة صحراوية وتتكلم من قلب اللهب. ويوصف المتكلم بأنه «ملاك الرب» وهذا التعبير التوراتي لا يعني، ملاك من عند الرب «بل الحضور المحسوس للقدرة الإلهية في العالم المادي (راجع على سبيل المثال الإصحاح الثالث عشر من سفر القضاة). نقرأ في سفر الخروج 3: «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من

(1) القلال: جمع «قُلة» وهي إناء من فخار أو غيره لخزن أو حمل الماء، وهجر هو النوع الأكبر بينها.

(2) أي الأول بلا بداية.

(3) الربوة: عدة آلاف.

وسط عليقة. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار ولم تكن تحترق... فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه من وسط العليقة وقال: موسى، موسى. لا تقترب إلي هنا، اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة، ثم قال: أنا إله أبيك إبراهيم...الخ».

ومن ظهورات إله إسرائيل في سيناء، أثناء رحلة الخروج من مصر، أقتبس المشاهد التالية: «وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب تقبل على الجبل وصوت بوق شديد جداً... وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً، فكان صوت البوق يزداد اشتداداً وموسى يتكلم والرب يجيبه بصوت» الخروج 19: 16-19. «فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل، وحل مجد الرب على سيناء وغطاه السحاب ستة أيام. وفي اليوم السابع دُعي موسى من وسط السحاب، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل، ودخل موسى في وسط السحاب» الخروج 24: 15-18.

وعندما هرب النبي إيليا من وجه آخاب ملك إسرائيل لأنه كان يطلب نفسه، التجأ إلى جبل الرب ودخل إلى مغارة وبات فيها. فكان كلام الرب إليه يقول: اخرج وقف على الجبل، ففعل: «وإذا بالرب عابر وريح شديدة وعظيمة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت خفيض: مالك هنا يا إيليا» الملوك الأول 19: 1-14.

وعندما كان النبي حزقيال على ضفة نهر الخابور، وهو الرافد الرئيسي لنهر الفرات في سورية، نظر وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال، سحابة عظيمة ونار متواصلة حولها بريق، ونزلت من السماء عربة الرب التي يجرها أربعة من

الكروبيم لكل منها أربعة أجنحة، صوت خفقانها كخرير مياه كثيرة وكصوت القدير، صوت ضجة كصخب جيش عرم، وعلى رؤوس الكروبيم شبه مقبب كمنظر البللور الهائل، وفوق المقبب شبه عرش كمنظر العقيق الأزرق، وعلى شبه العرش كمنظر إنسان تحيط به نار لها بريق ولمعان. فلما رآه حزقيال خر على وجهه وسمع صوت، متكلم قال له...» حزقيال 1: 28.

نعود إلى حيث توقفنا في رواية ابن إسحاق، حيث تجاوز الراوي تلك المواجهة بين محمد وإلهه وكأنها حدث اعتيادي لا يستحق الوقوف عنده: «ثم انتهى به، أي جبريل، إلى ربه ففرض عليه خمسين صلاة في كل يوم».

قال (ابن إسحاق)، قال رسول الله: فأقبلت راجعاً فلما مررت بموسى سألني، كم فُرض عليك من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة كل يوم. فقال: إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك. فرجعتُ فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي فوضع عني عشراً. ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك، فرجعت إلى ربي فوضع عني عشراً. ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك كلما رجعت إليه فأرجع فأسأل حتى انتهيت إلى خمس صلوات في كل يوم وليلة. ثم رجعت إلى موسى فقال لي مثل ذلك، فقلت: قد راجعت ربي وسألته حتى استحييت منه.

تفتقر هذه الرواية، على ما بينا، إلى الخيال الخلاق الذي يميز النص الأسطوري، وإلى الدقة والإقناع الذي يميز النص العقلاني، وسوف أقتصر في نقدها على ما يتعارض منها مع القرآن الكريم.

1- إن الأصل في التكليف عند الله هو «اليسر»: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ البقرة: 185. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: 233 و286، الأنعام: 252، الأعراف: 42، المؤمنون: 62. ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ الشورى: 19. لذلك من غير الممكن أن يفرض خمسين صلاة على المؤمنين في كل يوم وليلة.

2- الله فعال لما يريد (البروج: 16)، ولا مبدل لكلمات (الأنعام: 115 و34). ولذلك من غير الممكن أن يفرض خمسين صلاة على المؤمنين ثم يفلح محمد في جعله يغير رأيه عدة مرات.

3- في المواضع التي يتطرق فيها الخطاب القرآني إلى تلقي محمد للوحي، نجد أن الذات الموحية هي التي تتكلم، بينما تبقى الذات المتلقية صامتة، لأنه: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ المائدة: 99. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ الحجر: 9. وهذا ما يجعل المساومة بين محمد وإلهه خارجة عن السياق القرآني وعن أدب الوحي.

4- ولدينا في سورة الإسراء نفسها. ما ينفي حدوث المعراج جملة وتفصيلاً. فعندما قال له المشركون أنهم لن يؤمنوا حتى يرقى إلى السماء (الإسراء: 90-94) قال: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً. أي أن محمد بشر وما من بشر قادر على الرقي إلى السماء، لأن السماء مكان روحاني لا يستقبل جسداً مادياً.

5- في مقابل ذلك يقول أهل الحديث إن المعراج معجزة زود الله بها نبيه، وهو قادر على الرقي إلى السماء بقوة الله. ولهؤلاء أقوال إن القرآن يقول لنا بصريح العبارة إن زمن الآيات الحسية ولى وصار شيئاً من الماضي، ومع نبوة محمد تحولت الآيات الحسية إلى آيات عقلية فصّلها لنا الخطاب القرآني: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يونس :24. ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف :32. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ العنكبوت: 51. فالكتاب في نبوة محمد هو الآية، وإذا كانت الآيات في الماضي ترى بالعين، فإن آيات الكتاب ترى بالقلب: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت: 49.

6- لا يوجد في القرآن نص على فريضة الصلوات الخمس، بل هما صلاتان واحدة عند الفجر وأخرى عند الغروب. وثالثة نافلة زائدة عن الفرض

والواجب تقام في أي وقت يختاره المصلي. فقد ورد في سورة الإسراء: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝﴾ الإسراء: 78-79.

فالصلاة الأولى هي قرآن الفجر، وميقاتها وفق السُّنّة الشريفة من بداية طلوع الفجر إلى شروق الشمس. والثانية تقام لدلوك الشمس أي لزوالها (واللام هنا سببية مثل قول الحديث: صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته) إلى غسق الليل أي انتشار الظلمة. أما الثالثة فنافلة وليست فرضاً تؤدى في أي وقت من أوقات الليل، وهي عبارة عن تهجد أي تلاوة القرآن والابتهال والدعاء والتسبيح، أي إنها صلاة ذهنية لا حركية.

ولدينا في سورة هود صياغة مختصرة لفريضة الصلاتين الواردة في سورة الإسراء: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ هود: 114. فطرفا النهار هما الفجر والمغرب. أما «زُلف الليل» فهي صيغة الجمع من زُلفة، وهي الجزء أو القطعة من الشيء، وتعني هنا «أوقات من الليل» فالصلاة الثالثة التي لم يحدد النص وقتها بدقة يمكن أن تقام في أي وقت من الليل يختاره الشخص، وهي نافلة وليست فرضاً لعدم تحديد موعدها.

ولدينا إشارات عامة في النص إلى هاتين الصلاتين، مثل قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ طه: 30. وأيضاً: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝﴾ غافر: 55. ولدينا في مطلع سورة المزمل تأكيد واضح على أن العبادة هي وقف على الليل لأنه وقت فراغ عن اشتغال المرء بأمور المعاش التي يقوم بها في النهار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝﴾ أي إن لك في النهار تصرفاً وتقلباً في مهامك، فلا تتفرغ لخدمة الله إلا في الليل.

ولدينا في سورة البقرة: 238 آية في الصلاة ما زال المفسرون مختلفين بشأنها: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾. وانطلاقاً من فهمهم لكلمة «الوسطى» على أنها التوسط بين طرفين، فقد قال البعض إنها صلاة الظهر وآخرون إنها صلاة العصر. ولكن لو كانت «الوسطى» تعني المتوسطة بين الصلوات لكانت مشتملة بقوله «حافظوا على الصلوات» ولا داعي لذكرها منفردة وإلا لكان هناك ركاكة في النص. ولذلك لابد أن يكون لكلمة «الوسطى» معنى خفي على المفسرين لأنهم يفكرون بخمس صلوات. وهذا المعنى الآخر بإمكاننا أن نعثر عليه في القواميس العربية، راجع على سبيل المثال قاموس المعاني على الشبكة، فالوسطى تعني «الفضلى» أو «الحسنى» وهي صفة للصلاة التي لا تكتفي بأداء الحركات بل تفسح للقلب مجالاً للمشاركة وبذلك يغدو المعنى: اجعلوا من صلواتكم دوماً صلاة فضلى.

هذا الفهم الصحيح لفريضة الصلاة، نجده عند الطوائف الإسلامية التي لا تقيم وزناً للحديث النبوي. فالقرامطة كانوا يصلون مرتين لا خمسة، وكذلك يفعل الإسماعيليون بشقيهم إلى اليوم. وعلى الرغم من أن أفراد الطائفة العلوية يصلون اليوم خمس مرات متأثرين بالمحيط السني، إلا أن الأصل في العقيدة العلوية هو صلاة الفجر والمغرب ونافلة الليل.

الهجرة إلى يثرب

ورد الاسم يثرب في القرآن مرة واحدة في الإشارة إلى مدينة الرسول، وذلك في سورة الأحزاب: 17، كما دعيت بالمدينة في أربعة مواضع: سورة التوبة: 101 و120، وسورة الأحزاب: 60، وسورة المنافقون: 8.

لم تكن يثرب مدينة بالمعنى المتعارف عليه، وإنما منطقة سكن عشوائي بطول 15كم وعرض 4كم، تحصر مساحة تقدر بستين كم2، وهي مساحة تتخللها مزارع وبساتين، وتجمعات قروية، ومضارب للأعراب. أي أنها كانت أشبه بواحة شاسعة تمتزج فيها عدة أنواع من السكن، أكثر منها مدينة متراصة

البنيان ذات طبيعة واحدة. ولإعطاء فكرة عن تباعد مناطقها السكنية، نقول إن منطقة قباء عند مدخلها الجنوبي، حيث نزل الرسول عند وصوله وبنى فيها مسجد قباء، ثم أقام شهرين قبل أن يدخل يثرب، تبعد عن مسجد الرسول الذي بناه بعد ذلك في جوفها مسافة 6كم.

كما أن مجتمع يثرب لم يكن متجانساً كما هو حال مجتمع مكة، وإنما كان مجتمعاً مركباً يضم فئات غير متجانسة أو منسجمة، فهنالك قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج، كانتا في شقاق دائم ومنازعات لا تنتهي، وهنالك ثلاث قبائل يهودية لا نعرف على وجه الدقة تاريخ استيطانها، لهم فيها مزارع وحصون على الأطراف الخارجية، كما كان لهم حضور قوي في أسواقها التجارية وورشاتها الصناعية، وهناك أعراب متبدون يأتون فينصبون خيامهم ثم يهدونها ويرحلون. وغير بعيد من قدوم المهاجرين من مكة للانضمام إلى هذه الفسيفساء الاجتماعية، قامت حرب ضروس بين الأوس والخزرج انجلت عن نصر الأوس الذين وقفت إلى جانبهم قبيلتان يهوديتان هما بنو النضير وبنو قريظة[1].

وقد كان الجانب الخاسر، أي الخزرج، هو الذي رعى هجرة محمد إلى يثرب وعمل على إنجاحها، أما الأوس فكانوا حذرين ومرتابين منذ البداية، ولم يتغير موقفهم هذا حتى يوم بدر بعد ثلاث سنوات. فالأشخاص الستة الذين اجتمع بهم محمد في موسم الحج وعرض عليهم الإسلام كانوا من الخزرج. وفي بيعة العقبة الأولى بعد سنة من ذلك، كان الحاضرون من يثرب عشرة من الأوس واثنان من الخزرج. وفي بيعة العقبة الثانية في السنة التالية، عندما تم الاتفاق على استقبال محمد ومن معه والتعهد بحمايته، كان الذين ختموا على الاتفاق خمسة وسبعين بينهم أحد عشر فقط من الأوس والبقية من الخزرج. بعد ذلك تتحدث سيرة ابن هشام عن هجرة تدريجية سرية للمسلمين، ومحاولة قريش منع هذه الهجرة بالقوة، حتى إنهم وضعوا خطة لقتل محمد لمنعه من الهجرة.

---

(1) د. هشام جعيط، السيرة النبوية، الكتاب الثالث، الفصل الثاني.

إن هذه الأخبار ومقارنتها على الخبر القرآني، من شأنها أن تثير لدى قارئها عدة مسائل أود طرحها فيما يلي:

1- لم يكن لدى قريش سبب لمنع هجرة المسلمين، وربما كانت هي التي سهلت لهم المغادرة، لأن المجتمع المكي سيغدو بذلك أكثر انسجاماً وتماسكاً من الناحية الدينية والاجتماعية، كما أنها سوف تتخلص من مشاغب أتعبها ثلاث عشر سنة. ولدينا في القرآن عدد من الإشارات الواضحة إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾:

- ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ آل عمران: 195.

- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨﴾ الحشر: 8.

- ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الحج: 39-40.

ونحن إذا أخذنا بهذا الرأي الأقرب إلى الصواب، قد يقودنا ذلك إلى إعادة النظر في معظم ما ورد في السيرة عن اضطهاد المسلمين وتعذيب المستضعفين منهم أمثال بلال الحبشي وآل ياسر، أو قيام أبي جهل بطعن سُمية بنت الخياط لجهرها بالإسلام، واعتبار ذلك من قبيل المبالغات التي تهدف إلى تقليد الموروث المسيحي عن اضطهاد المسيحيين الأوائل من قبل السلطة الرومانية.

2- تحدثنا أخبار السيرة عن الاستقبال الباهر الذي لقيه محمد عند وصوله إلى يثرب، فقد خرج أهل المدينة حتى امتلأت بهم الطرقات، وامتلأت أسطح المنازل بالنساء والأطفال، والكل يقول: «الله أكبر جاء رسول الله». ومثل هذا الهتاف يعني أن أهل يثرب قد اعتنقوا الإسلام قبل وصول محمد إليهم وآمنوا برسالته، وهذا محال. وخرجت الفتيات الصغيرات بالدفوف يحملن سعف النخيل وينشدن قصيدة: «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع»، ودخل محمد المدينة بموكب مهيب.

وفي الحقيقة فإن هذا المشهد الفخم لدخول محمد إلى يثرب قد استلهمته السيرة من دخول يسوع المسيح إلى أورشليم في نهاية مسيرته التبشيرية كما صوره إنجيلا متى ولوقا، فقد دخل يسوع راكباً على حمار، والجموع التي استقبلته فرشوا ثيابهم أمامه، وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في طريقه، والجموع الذين تقدموا والذين تأخروا كانوا يصرخون قائلين: «مبارك الآتي باسم الرب». ولما دخل المدينة ارتجت كلها قائلة: «من هذا؟» فقالت الجموع: «هذا يسوع النبي الذي من الناصرة (راجع متى 21: 6-11، ولوقا 19: 33-40).

والحقيقة التي يمكن لنا أن نتوصل إليها من أخبار السيرة، هي أن يثرب لم تكن تنتظر بفارغ الصبر قدوم محمد. فالأوس مازالوا على شكهم وريبتهم من مشروع استقدام محمد، والخزرج الذين رعوا المشروع لم يكن قد دخل منهم في الإسلام سوى الجماعة التي ختمت على بيعة العقبة، أما البقية فكانوا ينتظرون ماذا سيفعله محمد قبل إعطائه ولاءهم. وفيما يتعلق باليهود فقد كانوا قلقين من ظهور نبي عربي يحمل رسالة تنافس رسالتهم القديمة المتجذرة التي كانوا يباهون بها العرب الأميين الذين كانوا على الوثنية. لذلك فقد كان دخول محمد إلى يثرب حدثاً عادياً، ولم تخرج المدينة عن بكرة أبيها لاستقباله. وقد كان من الحكمة أن يتوقف في قباء عند مدخل المدينة تلك الفترة الكافية لبناء مسجد فيها. ريثما يُتم الخزرج ترتيبات قبوله في مجتمع يثرب.

3- على الرغم من المكانة الرفيعة التي تبوأتها قصة الهجرة في السيرة وفي التاريخ المبكر للإسلام، إلا أننا لا نكاد نتبين لها حضوراً في القرآن إلا من خلال إشارات عامة، فنحن لا نعرف من أين هاجر محمد وجماعته ولا وجهة هجرته. كما أن الفعل هاجر وتصريفاته يرد في معظم المواضع على أنه هجرة معنوية لا هجرة مكانية، وذلك مثل قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ النساء: 100. فالهجرة هنا هي الانتقال

من دار الكفر إلى دار الإيمان، أو هجرة ما نهى الله عنه. وفي ذلك يقول القرطبي في تفسير الآية 50 من سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ إن الهجرة المقصودة هنا ليست هجرة مكانية، واللاتي هاجرن هن اللواتي أسلمن، والمهاجر هو الذي هجر السيئات ثم يورد أكثر من شاهد قرآني على ذلك.

6- دور الإملاءات السياسية والمذهبية

عندما يعمل المخيال الجمعي على صياغة سيرة تأسيسية لأصول ثقافية انتقلت من البساطة إلى التركيب، لابد من خضوع هذه السيرة للإملاءات السياسية والمذهبية. وهذا ما نجده بكل وضوح في السيرة النبوية، التي قام مدونوها بجمع شتات من هذه الإملاءات دون بذل جهد للتوفيق بينها، ولذلك نجد لكل مذهب أو حزب سياسي حصة فيها. فبعد وفاة الرسول بدأت الأحزاب السياسية بالتشكل عندما لم يدع الهاشميون إلى اجتماع سقيفة بني ساعدة، حيث تم اختيار خلف للرسول في إدارة الدولة الإسلامية، وما تبع ذلك من تأخر علي بن أبي طالب عن إعطاء البيعة لأبي بكر مدة أسبوع، لأنه اعتبر نفسه الأحق بالخلافة لأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة، والأقرب إليه خلال حياته. ومنذ ذلك الوقت بدأ بالتشكل مصطلح «أهل البيت» الذي عُني به أسرة علي وفاطمة وولديهما الحسن والحسين. ثم تبعهم في ذلك أسرة العباس عم الرسول، الذين اعتبروا أنفسهم أهل البيت أيضاً. علماً بأن تعبير «أهل البيت»، بمعنى آل بيت محمد، قد ورد مرة واحدة في القرآن بمعنى نساء النبي، وذلك في سورة الأحزاب حيث نجد خطاباً موجهاً إلى نساء النبي يبتدئ بقوله ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وينتهي بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ الأحزاب: 32-33.

وعندما آلت الخلافة أخيراً إلى علي، وما تبع ذلك من أحداث الفتنة الكبرى ومعركة الجمل بينه وبين خصومه من الصحابة، ثم معركة صفين بين علي ومعاوية والي الشام، أخذت معالم عدة أحزاب سياسية بالتوضح وهي:

1- شيعة علي، أي الذين وقفوا إلى جانبه وناصروه وحاربوا معه.

2- الحزب الأموي، وهم بنو أمية ومن ناصرهم في تحويل الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان.

3- الخوارج، وهم أتباع علي الذين انشقوا عنه بعد معركة صفين لقبوله التحكيم مع معاوية وقالوا: «لا حاكم إلا الله»، وأن الخلافة يجب أن تكون للأكفأ وأنه لا فضل لأحد لمجرد انتمائه بالنسب إلى النبي، لأن أكرم الناس عند الله أتقاهم (سورة الحجرات: 13)، ولأن النبي أعلن عن موقفه من الخلافة عندما قال: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى». وما عدا ذلك من أحاديث في فضل «آل البيت» باطل في رأيهم، وقد تجمع أربعة آلاف من هؤلاء في النهروان غير بعيد عن موقع بغداد فيما بعد، فحمل عليهم علي وأفناهم تقريباً، ولكنهم بقوا بعد ذلك مشكلة لحكام بني أمية وبني العباس، وقوة عسكرية معارضة أزعجت مقام الخلافة.

4- الحزب الزبيري، وهم اتباع عبد الله بن الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر. وقد نشأ هذا الحزب بعد أن رفض عبد الله بن الزبير مبايعة يزيد بن معاوية على الخلافة، ثم أعلن نفسه خليفة بعد وفاة يزيد الذي لم يستطع إخضاعه، ودانت له بلاد العرب والعراق بعد ذلك.

5- وفي غمرة الصراع بين شيعة علي وبني أمية، والثورات العديدة الفاشلة للحزب الشيعي ضد بني أمية، نشأ الحزب العباسي الذي راح يدعو إلى خلافة بني العباس عم الرسول، باعتبارهم من آل البيت أيضاً.

6- خلال الصراع السياسي بين هذه الأحزاب، تحول بعضها من حزب سياسي إلى طائفة مذهبية، وأخص بالذكر هنا الشيعة والخوارج فبعد استشهاد الحسين في كربلاء على يد الجيش الأموي الذي أرسله يزيد بن معاوية لقتاله، بدأ شيعة علي بالتحول إلى مذهب ديني يقوم على فكرة الإمامة، دعي فيما بعد بمذهب الشيعة الاثني عشرية. وبعد ذلك حصل انشقاق داخل المذهب الشيعي أدى إلى ظهور المذهب الإسماعيلي. كما تحول الخوارج بدورهم من جماعة

سياسية إلى مذهب إسلامي مستقل اعتبر نفسه الممثل الوحيد لدين محمد وكفّر غيره من المذاهب.

7- في سياق العصر العباسي الأول (132-232هـ)، أخذت ملامح المذهب الأورثوذكسي الإسلامي الذي زرع بذوره بنو أمية بالتوضح، وهو المعروف تاريخياً بأهل السنة والجماعة، وتشكلت مذاهبه الفقهية الأربعة التي رفعت من شأن الحديث النبوي إلى مرتبة القرآن سواء فيما يتعلق بالعقائد أو الأحكام. وقد قال هؤلاء بأولوية النقل عن السلف في فهم النصوص. وإلى جانب أهل السنة نشأ المذهب الاعتزالي الذي يعطي الأولوية للعقل لا للنقل. ومع الاعتزال نشأ علم الكلام الذي يستخدم المنطق في معالجة المسائل الاعتقادية التي أدى الخلاف بشأنها إلى ظهور مذهب الأشاعرة واستقلاله عن أهل السنة والجماعة، على الرغم من بقاء هذين المذهبين في خندق واحد في مقابل الشيعة والمذاهب الأخرى.

وقد راح كل فريق من هذه الأحزاب والمذاهب يبحث عن مؤيدات له في الحديث والسيرة اللذين وضعا في خدمة السياسة والمذهبية، حتى صار من الصعب التمييز بين الحقيقي والمتخيل فيما يورد كل فريق على ما سنبينه فيما يلي:

في علي بن أبي طالب:

كان علي بن أبي طالب، وفق أخبار السيرة، أول من آمن من الذكور برسالة محمد، وصلى معه وصدق بما جاءه، وكان عمره عندئذ عشر سنوات، فقد أُوحي للنبي يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء. وعندما وجد أبو طالب علياً يصلي مع النبي قال له: ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال علي: «يا أبت، أمنتُ بالله ورسوله وصدقت بما جاء به وصليت معه واتبعته». وهذا الخبر يتعارض مع بقية أخبار الصلاة في السيرة، والتي تؤكد أن الصلاة لم تفرض في هذا الوقت المبكر وإنما بعد مسرى النبي إلى بيت المقدس.

ولدينا في علي حديث نال حظه من الجدل وهو حديث غدير خم الذي قاله النبي في سياق خطبة له في موقع غدير خم بعد عودته من حجة الوداع، ويرويه الشيعة على الوجه التالي: «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره وأخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث داره ألا فليبغ الشاهد الغائب». أما السنة فيروون الحديث عن زيد بن الأرقم على عدة أوجه وهذا أشهرها: «إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه». ويرى الشيعة في هذا الحديث دليل على أن الإمام والخلافة هما لعلي بعد الرسول، أما أهل السنة فلا يرون في الحديث ما يدل على أنه نص على خلافة علي وإنما فيه توكيد على فضله وعلى مكانته.

في الحسن والحسين :

«اللهم إني أحبه (=الحسين)، وأحبه، وأحب من يحبه». «الحسن والحسين سيدا شباب الجنة». «الحسن والحسين ريحانتان من الدنيا». «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن بغضهما فقد بغضني». وقد تنبأ الرسول بموت الحسين عندما قال: «قام من عندي جبريل فأخبرني أن الحسين يُقتل بشط الفرات، وهذه تربة تلك الأرض». وفي نبوءة الرسول هذه دليل على أن رواة الأحاديث لا يقيمون وزناً للقرآن ولا لمدى تطابق ما يروونه مع الذكر الحكيم. فالله وحده في القرآن علام الغيوب ولا يشاركه في علمه هذا أحد من الأنبياء (المائدة: 109 و116، والتوبة: 78، وسبأ: 48). وفي سورة الأنعام يقول الله لرسوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ الأنعام: 50. وأيضاً: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الأنعام: 59.

في أهل البيت :

«كان رسول الله عند أم سلمة: فجعل الحسن في شق والحسين في شق وفاطمة في حجره وقال: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت». «أناشجرة، وفاطمة حملها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين ثمرها، والمحبون أهل البيت ورقها من الجنة». «لما نزلت آية يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، أدار النبي كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا».

ولدينا حديث روي بصيغتين، الأولى: «يا أيها الناس قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي[1] أهل بيتي». والثانية: «إني تارك فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به كتاب الله وسنتي». فالصيغة الأولى، كما هو واضح، هي رواية الشيعة، والثانية هي رواية السنة. ولكن إذا كان هذا الحديث صحيحاً فلا بد من أن تكون صيغته الأصلية: «تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله». لأن مصطلح «أهل البيت» لم يظهر إلا بعد وفاة الرسول، ولم يرد في القرآن بمعنى نسل محمد من فاطمة وعلي، لأن محمد لم يكن ليعتقد أبداً بأن النعمة التي تلقاها من الله سوف تنسحب على نسله من بناته أو من إحداهن على وجه الخصوص. وكذلك الأمر فيما يتعلق بمصطلحي «الحديث» و«السنة» اللذين لم يظهرا أيضاً إلا بعد وفاة الرسول. فالسُنَّة في القرآن هي سُنَّة الله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ الأحزاب: 62. راجع أيضاً: فاطر: 43 وغافر: 85، والفتح: 23. والحديث هو حديث الله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ الجاثية: 6. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ..﴾ الزمر: 23.

في أبي بكر وعمر :

«وزيراي في السماء جبريل وميكائيل، ومن أهل الأرض أبو بكر وعمر». «بينما جبريل مع النبي إذ مرّ أبو بكر، فقال جبريل: هذا أبو بكر. فقال: أتعرفه يا جبريل؟ قال: نعم، إنه وزيرك في حياتك وخليفتك بعد مماتك».

(1) العترة هي نسل الرجل.

في المهدي :

«المهدي حق وهو من ولد فاطمة». «المهدي من عترتي». «المهدي رجل من ولدي وجهه كالكوكب الدري». «المهدي مني، أقنى الأنف، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما مُلئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنوات». «يخرج المهدي وعلى رأسه ملك ينادي: هذا المهدي فاتبعوه».

في الحزب الأموي :

لقد كان للأمويين في مقاومة الدعوة المحمدية تاريخ طويل لم يكن يؤهلهم لتولي الخلافة، فقد شارك كبيرهم أبو سفيان في غزوة بدر مع ولدين من أولاده، كما كان قائداً لجيش قريش في غزوة أحد، وواحد من قادة غزوة الخندق. وعلى الرغم من أن كل الدلائل المنطقية تشير إلى أنه أسلم مع أولاده بعد فتح مكة مثل بقية الطلقاء الذين عفا عنهم الرسول بقوله: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، إلا أن الحزب الأموي حاول بكل الوسائل تبييض صفحته وصفحة ابنه معاوية، وتسللت إلى السيرة قصة تجعل إسلامه قبل فتح مكة. فعندما وصل جيش محمد إلى مر الظهران بعد أن أحاط عمليته بسرية تامة لكي يفاجئ قريشاً قبل أن تستعد للدفاع عن نفسها، جاء من يخبرهم بأن محمداً قد جاءهم بجيش لا قِبل لهم به. فخرج أبو سفيان بتفويض من أشراف قريش للتفاوض مع محمد بشأن استسلام المدينة دون استباحتها، وجرت بينهما محاورة استهلها محمد بقوله: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يحن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله»؟ فأجاب: «لو كان مع الله إلهاً آخر لأعانني فيما أنا فيه». فقال له: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يحن لك أن تعلم أني رسول الله»؟ فأجاب: «أما هذه ففي النفس منها شيء حتى الآن». ومن الغريب أنه بعد هذه الإجابة التي يعلن فيها أبو سفيان شكه في نبوة محمد، يتابع الراوي فيقول إن أبا سفيان أعلن إسلامه بوساطة العباس عم الرسول الذي قال له: «ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». فشهد أبو سفيان وأسلم. فقال العباس للنبي: «إن أبا سفيان رجل يحب

الفخر فاجعل له شيئاً». قال: «نعم. من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

وبعد ذلك تجعل الرواية الأموية من أبي سفيان واحداً من أكثر المتحمسين للإسلام، فقد قال لمحمد بعد دخوله مكة: «مُرني أن أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين»، وهو الذي أعلن قبل يومين شكه في نبوة محمد. كما جعلته يقاتل إلى جانب الرسول في معركة حنين التي أعقبت فتح مكة ضد قبيلتي هوازن وثقيف، بل وتجعله يشارك بعد ذلك في معركة اليرموك ضد الروم في خلافة أبي بكر، على الرغم من أنه كان قد جاوز السبعين من العمر في ذلك الوقت.

أما معاوية بن أبي سفيان الذي ولاه عمر على دمشق، ثم ولاه عثمان على ديار الشام، ثم ارتقى سدة الخلافة، فقد جعلت منه المداخلة الأموية في السيرة واحداً من صحابة الرسول وكاتباً للوحي. ووضعت الأحاديث التي تعلي من شأنه: «اللهم علمه الكتاب، ومكن له في البلاد، وقه العذاب». «لا تذكروا معاوية إلا بخير»... «من أحب معاوية فقد أحبني، ومن أبغضه فقد أبغضني». أي أن الرسول قد ساوى بين معاوية وبين الحسن والحسين اللذين قال فيهما: «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن بغضهما فقد بغضني». وأيضاً: «أنت مني يا معاوية وأنا منك، لتزاحمني على باب الجنة كهاتين، وأشار إلى الوسطى والسبابة». وهو يتنبأ بحصوله على الملك: «يا معاوية إن ملكت فاحسن». «غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة». «الأمناء عند الله ثلاثة: جبريل وأنا ومعاوية».

في الحزب العباسي:

ترافق فشل الثورات التي قام بها شيعة علي ضد الحكم الأموي، مع ظهور الحزب العباسي الذي ينتمي إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول، والترويج لنفسه كبديل لبني أمية باعتبارهم أيضاً من أهل البيت. وقد ترافق العمل الدعوي للحزب الذي كان ينشط سراً مع عمل دعائي (=Propaganda)، يهدف إلى تبييض صفحة العباس الذي كان موقفه إشكالياً من دعوة الرسول في مكة، فهو

لمْ يُسلم لا سراً ولا علناً. وفي الوقت نفسه لم يقف إلى جانب قريش في حربها على الرسول، ولكنه حضر بيعة العقبة مع وفد المدينة. ولعل موقف العباس الحيادي هذا له ما يبرره؛ فقد كان شخصية مرموقة في مكة، وإليه آلت وظيفة سقاية الحجاج من أبيه عبد المطلب، ولذلك لم يتأخر عن المشاركة في غزوة بدر مع قريش فوقع أسيراً. وعندما قرر محمد إطلاق أسرى بدر لقاء فدية مالية، جرى حوار بين محمد وعمه يلخص العلاقة بين الطرفين. فقد قال محمد لعمه: يا عباس افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب، فأبى وقال: إني كنت مسلماً قبل ذلك وإنما استكرهوني. قال محمد: الله أعلم بشأنك، إن يكن ما تدعي حقاً فالله يجزيك بذلك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك. ففعل العباس وتم إطلاقه (عن عبد الله بن عباس، رواه أحمد في مسنده).

بعد ذلك لا يتوفر لدينا دليل مقنع على أن العباس تحول إلى الإسلام قبل فتح مكة، ولكن المداخلة العباسية في السيرة التي هدفت إلى استبعاد العباس من قائمة الطلقاء (الذين قال عنهم عمر وفق المؤرخ البلاذري: لا يصح للطلقاء ولا لأبناء الطلقاء أمر الخلافة)، خرجت بقصة مفادها أن العباس قرر أخيراً الهجرة إلى يثرب والالتحاق بالنبي، وذلك في نفس الوقت الذي خرج محمد بجيشه لفتح مكة، فلقيه ببعض الطريق وانضمّ إليه. وهنا تتشابك قصة إسلام العباس مع قصة إسلام أبي سفيان التي رويناها منذ قليل، في تفاصيل طريفة من شأنها إظهار فضل بني العباس على بني أمية من خلال العلاقة بين الشخصيتين وما جرى بينهما، على ما نتابع في سيرة ابن هشام:

فعندما نزل محمد بجيشه في مر الظهران، قال العباس لنفسه: والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوا فيستأنسوه، فإن في ذلك هلاك قريش إلى آخر الدهر. فركب على بغلة الرسول وخرج يلتمس أحداً يخبر قريشاً بمكان الرسول ليخرجوا إليه فيستأنسوه، ولم يبتعد كثيراً حتى سمع صوت أبي سفيان يحدث مرافقه فعرفه وصاح: يا أبا حنظلة. فقال: مالك. قال: ويحك لئن ظفر بك

رسول الله ليضربن عنقك. فاركب ورائي عجز البغلة فنأتي رسـول الله فنستأنسـه. وعندما قدما على الرسول وجرت بينه وبين أبي سفيان المحاورة الـتي أوردناهـا والتي أعرب فيها أبو سفيان عن شكه في نبوة محمد، قال لـه العبـاس: ويحـك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد أبو سفيان وأسلم.

في هذه القصة عدد من العناصر التي تظهر فضل العباس/العباسـيين علـى أبي سفيان/الأمويين. فالعباس سابق في الإسلام على أبي سفيان، وبغلة الرسول التي ترمز هنا إلى مركبة الإسلام يجلس العباس على صهوتها وأبو سـفيان علـى عجزها. وأبو سفيان الذي أعلن شكه في نبوة محمد يعلن إسلامه تحـت ضـغط العباس الذي هدده بالقتل.

وفي الحقيقة، فإن هذه التفاصيل لم تحدث قط. فالعباس لم يخرج مهاجراً في الوقت الذي توجه به محمد لفتح مكة. وأبو سفيان جـاء ممـثلاً عـن أشـراف قريش لعقد الصلح مع محمـد، ولم يكـن مضـطراً لإعـلان إسـلامه، ومحمـد بالمقابل لم يطلب منه ذلك كشرط للصلح. واللقاء بين الطرفين كان لقاء زعيمين يحترمان بعضهما بعضاً.

وكـان للحـزب العباسـي مـداخلات في الحـديث تجعـل الرسـول يتنبـأ بظهورهم ويحث على تأييدهم: «إذا خرجت الرايات السود من خراسان هي لنـا أهل البيت». «إذا رأيتم الرايات السود خرجت فأتوها ولو حبواً على الثلج». «إذا أقبلت الرايات السود من قِبل المشرق لا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء (=بيـت المقدس)».

* * *

الباب الثاني

الوحي وشخصية جبريل

1- في مفهوم الوحي

يبتدئ التدين في تاريخ الحضارة البشرية عندما توصل الإنسان، نتيجة ملاحظته لكل ما يجري من حوله، إلى الاعتقاد بأن الوجود برمته ينقسم إلى مستويين؛ الأول مادي ظاهري يشتمل على كل ما هو حوله في العالم الطبيعي الحي منه والجامد، والثاني قدسي خفي فاعل من خلال قوته في المستوى المادي، ويقف خلف كل ما يجري فيه من تحولات. وقد كانت أولى محاولات الإنسان للتواصل بينه وبين القدسي، عبارة عن مجموعة من الطقوس يهدف من خلالها إلى تسخير قوته لصالحه أو اتقاء غضبه، ويغدو الطقس حالة فعل تهدف إلى إحداث رابطة مع ذلك المجهول الحاضر.

وعندما وُلدت الآلهة المشخصة من رحم القوة القدسية غير المشخصة، صارت قنوات التواصل بين القدسي والدنيوي أكثر يسراً، وتحول الطقس السحري الذي كان يمارسه الإنسان لتسخير القوة القدسية لمنفعته أو كف أذاها عنه، إلى صلوات مرفوعة لتلك الآلهة لاستجلاب رضاها وتعاونها، أو تقنيات عرافة تتنبأ بسلوكها. وهذا التواصل، على ما تفيدنا النصوص الأسطورية للحضارات الشرقية المبكرة، يحدث في اتجاهين، الأول من الأسفل إلى الأعلى على ما نجده في نصوص الصلوات والأدعية. والثاني من الأعلى إلى الأسفل عندما يقوم الآلهة بالتواصل مع واحد من البشر على ما نجده في بعض النصوص الأسطورية. فالإله انكى إله الماء العذب والحكمة في الميثولوجيا السومرية، كلم الملك الصالح زيوسودرا من وراء جدار، فأعلمه بالطوفان العظيم القادم، وأمره ببناء سفينة يحمل عليها بذور الحياة على الأرض. وإله السماء إيل في الميثولوجيا الكنعانية، كلم الملك الصالح كِرت في الرؤيا وبشره بميلاد وريث له على العرش، والإله شمش في ملحمة جلجامش البابلية كان يكلم جلجامش من السماء فيسمع صوته دون أن يراه.

على أن أمثال هذه الصيغ في التواصل بين القدسي والإنساني تبقى من طبيعة عَرَضية، ولا تترك أثراً على الحياة الدينية للقوم التي تتابع مسيرتها به أم بدونه. أما التواصل الحق الذي ندعوه بالوحي، والذي ينجم عنه تغيير جذري في دين القوم، وينجم عنه عقيدة جديدة تخرج بها شخصية متفوقة فكرياً وروحياً، فيبتدئ، مع ظهور الأديان التوحيدية التي نستطيع التثبّت من وجودها تاريخياً خارج الكتب المقدسة، وأولها في ترتيب الظهور هي الزرادشتية. فقد تلقى زرادشت، الذي ظهر في إيران في زمن ما من النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، وحي الإله الواحد أهورامزدا عن طريق وسيط سماوي، ودوّنه في الكتاب المقدس الوحيد المعزو إليه وهو «أناشيد الغاثا»، الذي تفصح لغته القديمة عن أنه دُون بين عام 800 وعام 600ق.م. وفي كتاب التوراة وهو وثيقتنا الوحيدة عن نشوء الديانة اليهودية، يبدأ الوحي مع موسى عندما كلمه الإله يهوه في سيناء، وخلال أربعين سنة تابع إنزال الشريعة عليه، والإفصاح عن شخصيته وطبيعته الإلهية. وبعد وفاة موسى تتابع أنبياء بني إسرائيل الذين تابعوا تلقي الوحي الإلهي ضمن الخطوط العامة لرسالة موسى. وفي إيران ظهر نبي آخر يدعى ماني في أواسط القرن الثالث الميلادي، بشّر بديانة عالمية انتشرت شرقاً وغرباً عرفت باسم المانوية، تقوم على وحي تلقاه ماني من إله الأنوار الواحد بواسطة وسيط سماوي. وعلى الرغم من أن المسيحية ليست ديانة وحي من حيث المبدأ لأن يسوع المسيح هو نفسه كلمة الله، إلا أننا نجد في إنجيل يوحنا أقوالاً ليسوع تدل على وجود نوع من الوحي النبوي، مثل قوله: «إن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله» يوحنا 3: 34. «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني» يوحنا 14: 34. «أنا أعطيتهم كلامك والعالم قد أبغضهم» يوحنا 17: 14. «الذي أرسلني هو حق، وما سمعته منه أقوله للعالم» يوحنا 8: 26. «لأني لا أتكلم من نفسي لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم» يوحنا 12: 49. وأخيراً تأتي رسالة محمد بن عبد الله لتختم الوحي، وتغلق قناة التواصل بين المقدس والدنيوي، وصار الإنسان متروكاً لشأنه، ربما لأن الإنسانية قد بلغت سن الرشد.

نخلص من كل ما سبق إلى تعريف للوحي سوف نتابع تطويره وتوضيحه فيما تبقى من هذا الباب. فالوحي هو اقتحام المقدس على الدنيوي في ضمير النبي لا يجد له دفعاً، يتمثل بمعانٍ وأفكار تأتي من عالم الغيب، مع اقتناعه بأنها من مصدر خارجي لا تهيؤات ذاتية أو أوهام تتولد في النفس. وعندما يقوم النبي بصياغة هذه المعاني بخطاب منطوق، يتحول إلى رسالة ذات مغزى ودلالة، وبتعبير آخر إلى نص ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ القيامة: 16. ونحن هنا لسنا معنيين بإصدار حكم قيمي على ظاهرة الوحي نفياً أو إثباتاً، قدر عنايتنا بوصفها وصفاً موضوعياً بعيداً عن الأحكام القيمية، وننطلق منها كواقعة تتأبى على النفي أو على الإثبات.

ولعل أفضل ما نبدأ به في استجلائنا لمعنى «الوحي» وفعل «أوحى» وتصريفاته في القرآن، هو أن نتبع مواضع ورودها في النص، مبتدئين بالآية 51 من سورة الشورى التي تقدم لنا مدخلاً إلى التعريف القرآني للوحي:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾

﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾

﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾

ولدينا هنا ثلاثة أنواع (أو فلنقل درجات) من الوحي، الأول تركته الآية دون شرح أو تعريف وهو الوحي المحمدي، والثاني الكلام من وراء حجاب كما هو الوحي الموسوي، والثالث الوحي من خلال رسول سماوي كما هو حال بقية النبوات السابقة على محمد. وقد اقترب بعض المفسرين في فهمهم لهذه الآية من تعريفنا للوحي، فقال فخر الدين الرازي إن كل واحد من هذه الأقسام وحي، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام فهو يقع دفعة واحدة، فكان تخصص لفظ الوحي به أولى. ووصول الوحي بلا واسطة يعني أن الموحى إليه ما سمع عين كلام الله. وقال

ابن كثير إن الله تبارك وتعالى يقذف في روع النبي شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي...». والمعنى هنا أن وسيط الوحي رمى في قلب أو ذهن النبي. وقال الماوردي: وفي قوله وحياً وجهان؛ أحدهما أنه نفث في قلبه فكان إلهاماً. والثاني رؤيا يراها في منامه، وقال البغوي: يوحي إليه في المنام أو الإلهام. وقال الشوكاني: يوحي إليه فيلهمه ويقذف ذلك في قلبه. وقال ابن عثيمين: الوحي هو ما يحصل للرسول من الإلهام، لأن أصل الوحي هو الإعلام بسرعة وخفاء.

فالوحي ليس تبليغاً بكلام منطوق بإحدى لغات البشر، والله لا يتكلم بحروف وأصوات. والقرآن عربي على ما ورد في أكثر من آية: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يوسف: 2، لأن الرسول الذي نطق به عربي: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مريم: 97. ولو كان الرسول صينياً ومرسلاً إلى الصينيين لأُنزل قرآناً صينياً. والعربية هي لغة الإبلاغ لا لغة التنزيل.

ولذلك علينا أن نعي أن مفردة «قال» القرآنية إذا أُسندت إلى الله، ليست إلا مجازاً يدل على إرادته النافذة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾ يس: 82. أي «ما شاء الله كان» وفق ما ورد في الحديث النبوي. وكلمات الله هي ما صدر عنه من موجودات، وليست كلماته المنطوقة: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ۝﴾ الكهف: 109. وإرادة الله النافذة هذه هي الوحي الذي يجسد فعالية الله في العالم، ويقع على كل الموجودات المادية وسلوك الكائنات الحية. ولعل الآيات التالية التي ورد فيها فعل أوحى وتصريفاته تؤكد مقولتنا هذه. فالله يوحي إلى الملائكة، وإلى بعض البشر من غير الأنبياء، وإلى مظاهر الطبيعة الحية والجامدة:

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ الأنفال: 12. وهنا يمكن المقارنة مع قوله: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝﴾ ص: 71، لنلاحظ كيف تبادل «الوحي» و«القول» مكانيهما.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ القصص: 7.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ المائدة: 111.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ (=آل إبراهيم) أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الأنبياء: 73.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ النحل: 68.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ فصلت: 11-12.

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ الزلزلة: 1-5.

هذا عن الوحي. أما عن وسيط الوحي جبريل الذي لم نتعرض له حتى الآن، والحاضر بقوة في السيرة والحديث من خلال ما لا يحصى من الأخبار، والغائب نسبياً في القرآن، فسوف نستكشف شخصيته ودوره في الفصول الثلاثة القادمة.

2- جبريل في السيرة النبوية

1- جبريل في الخطاب الشعبوي

كما هو الحال في بقية قصص السيرة التي يتناولها خطابان واحد شعبوي وآخر نخبوي أكثر تركيباً وحنكة، كذلك هو حال أخبار جبريل كملاك مكلف بنقل وحي الله إلى الرسول.

على أننا قبل الشروع في تقصي أخبار جبريل في الخطاب الشعبوي، لا بد لنا من وقفة عند مفهوم «الملاك» تقدم لنا مدخلاً إلى تقييم تلك الأخبار والحكم عليها. فالملائكة تنتمي إلى العالم القدسي ووجودها أشبه بطيفٍ من الوجود الإلهي، ولذلك فإن حضورها في العالم المادي هو بشكل ما نوع من الحضور الإلهي. ففي العقيدة الزرادشتية تولدت الملائكة من نور الله كمن يشعل شمعة من مشعل، وفي القرآن الكريم لدينا ما يشير إلى أنهم خلقوا من جوهر النار (ص: 76 والأعراف: 12)، وهذا يعني أنهم طاقة صافية لا أجساد لها، ولذلك فإن رؤية واحد منهم مستحيل على البشر بصورته الملائكية.

فلقد رأى محمد جبريل مرة واحدة فقط في القرآن الكريم وذلك في سورة النجم: 1-18 ولكن دون إشارة إلى طبيعة هذه الرؤية. أما السيدة مريم فقد رأته وقد لبس صورة بشرية: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ مريم: 17. وبشرها بميلاد عيسى. وفيما عدا هذين الموضعين لا يوجد في السردية القرآنية إشارة ولو غامضة إلى رؤية جبريل من قبل أحد.

على أن الخطاب الشعبوي نزع عن جبريل هالة القداسة الملائكية، وجعل منه زائراً عادياً يأتي محمداً في أي وقت مثلما يفعل الجار أو الصديق، وكان أهل بيته يرونه أحياناً، وكذلك بعض الصحابة، حتى أن خديجة أشارت إلى جبريل

بصفة «صاحبك» عندما قالت لمحمد في إحدى المرات: «أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك، فلما جاء جبريل وجلس إلى النبي فجاءت خديجة، فقال النبي: يا جبريل هذه خديجة. فقال جبريل: أقرئها من الله ومني السلام». وفي رواية عن عائشة «أن النبي قال لها: اجلسي حتى يأتيني جبريل وتسلمي عليه، فجاء جبريل ثم رجع ولم يدخل. وعندما لقيه مرة أخرى قال له: يا جبريل، جلست عائشة لتسلم عليك وتدعو لك بالخير فرجعت عن بابنا ولم تدخل. فقال جبريل: وجدت تلك الدويبة (=تصغير دابة)». ولكنها رأته بعد ذلك في خبر مقتضب عن شهر بن حوشب عن عائشة: «رأيت جبريل عليه عمامة حمراء مرخيها بين كتفيه». فلقد كان جبريل مغرماً بالأزياء وفي كل مرة كان يظهر بزي جديد. فعن أبي موسى الأشعري: «نزل جبريل وعليه عمامة سوداء بذؤابة». وعن عائشة أيضاً: «رأيت جبريل منهبطاً عليه ثياب سندسٍ معلقاً به اللؤلؤ والياقوت». وعن أنس بن مالك عن النبي: «أتاني جبريل ذات يوم وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وسيف مجلى».

وكان النبي يقدمه لزواره فيسلمون عليه ويرد عليهم السلام. فعن عبد الله بن عمر أنه كان مع النبي في البيت، فقال له النبي: أتدري من معنا في البيت؟ قال: من يا رسول الله؟ قال: جبريل. قال ابن عمر: السلام عليك يا جبريل. فقال النبي: إنه قد رد عليك السلام. ولم يكن محمد وصاحبه يكتفيان بالاجتماع داخل البيت بل كان لهما نزهات في الهواء الطلق. عن أبي هريرة: «بينما جبريل مع النبي إذ مر أبو بكر، فقال جبريل: هذا أبو بكر. فقال: أتعرفه يا جبريل؟ قال: نعم. إنه في السماء أشهر منه في الأرض». وعن حارثة بن النعمان قال: «مررت على رسول الله ومعه جبريل فسلمت عليه ومررت، فلما رجعنا وانصرف جبريل قال الرسول: هل رأيت الذي كان معي؟ فقلت: نعم. قال: فإنه جبريل وقد رد عليك السلام». وعن ابن عباس: «مررت بالنبي وإذا معه جبريل وأنا أظنه دحية الكلبي». ودحية هذا هو صحابي اشتهر بالمَلاحَة والوسامة، وقد ظهر جبريل على صورته في العديد من الأحاديث: عن عائشة «رأيت رسول الله

واضعاً يده على مِعرفة فرس (موضع العرف) وهو يكلم رجلاً. قلت: رأيتك واضعاً يدك على معرفة فرس ودحية الكلبي وأنت تكلمه. قال: ذاك جبريل وهو يقرئك السلام.

وبهذه الطريقة حوّل الخطاب الشعبوي التلقي الرؤيوي للوحي المنزّل على الرسول في سورة النجم إلى رسائل نصية ينقلها ساعي بريد في رحلات مكوكية بين السماء والأرض، دعي بالاسم القرآني جبريل.

وكان جبريل يصلي مع النبي على الرغم من أن الملائكة غير مكلفين مثل البشر. فعن جابر بن عبد الله: «جاء رجل رسول الله فوجده يصلي وجبريل حيث يصلى على الجنائز. فقال الرجل: يا رسول الله من هذا الرجل الذي رأيته معك؟ قال: وهل رأيته؟ قال: نعم. قال: لقد رأيت خيراً كثيراً، هذا جبريل. كما كان جبريل يؤم المسلمين أحياناً في صلاتهم. فعن بشر بن معاذ الأسدي أنه صلى مع النبي هو وأبوه وكان غلاماً، وكان جبريل أمام النبي والنبي ينظر خياله فإن تحرك الخيال ركع النبي. كما كان يقدم الفتاوى الشرعية للنبي من علمه الخاص. فعن أبي هريرة أن النبي استشار جبريل في مسألة القضاء باليمين والشاهد، فأشار عليه بالأموال لا تعدو ذلك.

وهو ملاك حارس يحمي محمد من أذى خصومه. فقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس، أن أبا جهل أخذ عهداً على نفسه بأن يضرب محمداً بحجر ضخم على رأسه، فلما أصبح قصد المسجد الحرام فوجد النبي يصلي، فحمل الحجر وأقبل نحوه فلما دنا منه رجع متهيباً مذعوراً وقد يبست يده على الحجر، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: لما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، فهمّ أن يأكلني. أما محمد فقال لمن حوله: ذاك جبريل، لو دنا منه لأخذه.

وفي تفسيره لما ورد في سورة الحِجر: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝﴾ الحجر: 94-95. يورد ابن إسحاق عن عروة بن الزبير

القصة التالية التي يقوم منها جبريل بمجزرة ضد المستهزئين بالرسول فقتل او عطبَ منهم خمسة:

«وأتى جبريل رسول الله وهم (أي الخمسة) يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله إلى جنبه. فمر به الأسود بن المطلب فرمى (جبريل) في وجهه بورقة خضراء فعمي. ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات حيناً (وهو مرض استسقاء البطن). ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك فخدش في رجله ذلك الخدش فانتقض به (=تجدد) فقتله. ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله فدخلت فيه شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتحض (=انتشر به) قيحاً فقتله.

وبصرف النظر عن أن سورة الحجر لا تحتوي على إشارة إلى رغبة محمد في الانتقام من هؤلاء، أو إلى ما قام به جبريل لتحقيق هذه الرغبة، فإن التوجيه القرآني لمحمد في كيفية التعامل مع خصومه ينفي صحة هذه القصة:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ النساء: 81. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ النساء: 63. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ السجدة: 30. ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾ النجم: 29. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الأحزاب: 48. ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ النحل: 125.

هذا ويبلغ الخطاب الشعبوي أقصى مدى له في الابتذال والتحول إلى خطاب عامي سوقي في حديث طبق الهريسة، وهو طبق يُعَد من نوع من الخضار يدعى بالفلفل أو الفليفلة ذو طعم حار. فعن أبي هريرة أن رسول الله اشتكى لجبريل قلة الجماع (=ضعف القدرة الجنسية)، فتبسم جبريل حتى تلألأ مجلس الرسول من بريق ثناياه (=أسنانه الأمامية)، ثم وجهه إلى أكل الهريسة فإن فيها قوة أربعين رجلاً. وبما أن جبريل لا يتورع عن تقديم الخدمات الشخصية لمحمد، فقد جاءه بطبق من

الهريسة من الجنة. فعن معاذ بن جبل: «يا رسول الله هل أُتيت بطعام من الجنة؟ قال: نعم. أُتيت بهريسة فأكلتها فزادت قوتي أربعين وفي النكاح أربعين».

وأخيراً، تأتي الرواية الشيعية لحديث الكساء لتلحق جبريل بأهل البيت. وقد ورد حديث الكساء المروي عن عائشة في مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن جابر بن حيان الأنصاري، وهذه روايته الشيعية عن عبد الله بن نور الله البحراني في كتابه عوالم العلوم، أوردها ملخصة:

دخل علي أبي (والكلام لفاطمة) وقال: إني أجد في بدني ضعفاً، آتني بالكساء اليماني فغطني عليَّ ففعلت. فإذا بولدي الحسن أقبل وطلب أن يدخل تحت الكساء، فأذن له. ثم جاء الحسين ففعل الشيء نفسه، ثم جاء أبو الحسن علي فاستأذن ودخل. ثم أتيت نحو الكساء واستأذنت فدخلت. فلما اكتملنا جميعاً تحت الكساء أومأ بيده نحو السماء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فاجعل صلواتك وبركاتك ورضوانك علي وعليهم، واذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقال الله عز وجل: يا ملائكتي، إنني ما خلقت سماءً ولا أرضاً ولا قمراً ولا شمساً ولا فلكاً يدور ولا بحراً يجري إلا في محبة هؤلاء. فقال جبريل: يا رب، أتأذن لي أن أهبط إلى الأرض لأكون معهم سادساً؟ فقال الله: نعم، قد أذنت لك. فهبط الأمين جبريل فاستأذن فأذن له. فدخل جبريل تحت الكساء[1].

2- جبريل في الخطاب النخبوي:

أعاد الخطاب النخبوي لحالة الوحي بعضاً من قدسيتها، بعد أن كانت حالة اعتيادية في الخطاب الشعبوي، عندما كان النبي يتلقى الوحي من جبريل وجهاً لوجه مثلما يتلقى الجار من جاره أخبار الحي. ونستطيع رصد الحالة غير

(1) من أجل النص الكامل للحديث راجع: «حديث الكساء كامل مكتوب، قناة الكوثر على الشبكة».

الاعتيادية للوحي من الأخبار والأحاديث التي تصف النبي أثناء اقتحام الوحي عليه. فقد كانت من الشدة بحيث يظن النبي أنه شارف على الموت. فعندما سأله عبد الله بن عمر عن كيفية تلقيه الوحي قال: «أسمع صلاصل (جمع صلصلة: وهي دوي الرعد أو قرع الأجراس)، ثم يفصم عني وقد وعيت ما يقول. وما من مرة يوحي إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض. وعن عائشة: «لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرودة فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً». وقد يطلب أن يغطى بثوب، فيُسمع له من تحته غطيط (=تردد الأنفاس) كغطيط البكر (=البعير الفتي). وإذا كان راكباً على ناقته فإن الناقة تبرك من ثقل الوحي. ويسمع الحاضرون أحياناً أصواتاً غير معتادة عند وجهه كأنها دوي النحل. ومن الملفت للنظر أنه في جميع هذه الحالات ما من إشارة مباشرة إلى جبريل.

على أن أرقى تصور للوحي في هذا الخطاب نجده في قصة التجلي الأول والوحي الأول في غار حراء. ويبدو لي أن هذه القصة هي من أوائل الحديث الذي جرى تداوله في زمن قريب إلى زمن النبي، وكان راويها على معرفة تامة بمفرداتها ومعانيها، ومقاصدها التي غابت عن المفسرين اللاحقين. فلقد كان مشهد التجلي في الغار على قدر كبير من العمق والتركيب والبعد عن البساطة، وحتى السذاجة التي تطالعنا في الخطاب الشعبوي، ففي مشهد التجلي في الغار نحن أمام كينونة ما ورائية مجهولة تظهر دون مقدمات وتقول للنبي: «اقرأ». ولذلك فإن رواية البخاري المنسوبة لعائشة تقول: «جاءه المَلَك» دون تحديد، أما رواية ابن إسحاق في سيرة ابن هشام فتقول على لسان النبي: «جاءني جبريل» على الرغم من أنه لم يكن يعرف شيئاً عن جبريل أو عن عالم الملائكة. وسأقدم فيما يلي رواية البخاري عن عائشة ثم أتبعها برواية ابن إسحاق التي لم ينسبها إلى عائشة:

«أول ما بُدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك. حتى جاءه

الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني (=عصرني عصراً شديداً) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يكن يعلم. فرجع بها رسول الله يرجف بها فؤاده».

هذا هو المتن الأصلي للحديث، وما تبقى منه عبارة عن ملحقات أضيفت فيما بعد. وهذه رواية ابن إسحاق عن وهب بن كيسان مولى أبي الزبير:

«كان رسول الله يجاور في حراء من كل سنة شهراً... حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله إلى حراء ومعه أهله (؟)، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى. قال رسول الله: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط (=سفط) من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ. فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت ما أقرأ. فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ماذا أقرأ. ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع لي، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عني، وهببتُ من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً.

تختلف رواية ابن إسحاق عن رواية عائشة في أربع نقاط: 1- فقد قال الرسول: «فجاءني جبريل وأنا نائم». ثم يقول في آخر الحديث: «فهببت من نومي». وهذا يدل على أن التجلي حصل في المنام. 2- في رواية ابن إسحاق يقدم الملاك كتاباً موضوعاً في سفط من ديباج ويقول له: اقرأ. وفي رواية عائشة لا يقدم له مثل هذا الكتاب. 3- يرد الرسول على طالب اقرأ في رواية عائشة

بقوله: «ما أنا بقارئ»، وفي رواية ابن إسحاق: «ما أقرأ» مرتين، وفي الثالثة: «ماذا أقرأ». وفي الروايتين يقوم الملاك بفعل عنيف ضد الرسول فيضغط عليه بذراعيه كما يفعل المصارع ضد خصمه ثم يطلقه.

فما معنى كل ذلك؟

سيكون مفتاحنا لمعرفة المعنى هو البحث عن دلالة المفردة القرآنية «اقرأ». فنحن إذا رجعنا إلى القواميس العربية، لوجدنا لها عدداً من المعاني غير قراءة كلام مخطوط، فنحن نقول:

«قرأ النحو على فلان» أي درسه على يديه.

«قرأ ما بين السطور» أي استشف المعنى الضمني.

«قرأ الغيب» أي تكهن به.

«قرأ علامات الغضب على وجهه» أي لاحظها.

«قرأ عليه السلام»، و«فلان يقرئك السلام» بمعنى يبلغك.

«قرأ على الناس»، أي تلا شيئاً من الذاكرة لا من مخطوط.

ولعل في قولنا «قرأ عليه السلام» و«قرأ على الناس»، أقرب المعاني إلى المفردة القرآنية «اقرأ» في حديث وحي الغار. ويبدو هذا المعنى واضحاً من قول النبي بعد أن سمع الكلمات القرآنية من الملاك: «فقرأتها وانصرف عني»، بمعنى تلوت ما سمعت لأنه لم يكن يقرأ مخطوطاً وإنما ينطق بما سمع. وهذا ما يقودني إلى القول بأن القراءة التي قصدها الملاك هي «التبليغ»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ المائدة: 67. وكذلك «الدعوة»: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ النحل: 125.

وفي منظومة اللغات السامية الغربية التي تنتمي إليها اللغة العربية، لدينا كلمة تعادل في لفظها ومعناها المعنى الذي نرجحه لكلمة «اقرأ» وهي «قَرا» بدون همزة على الألف ففي الأوغاريتية والعبرية والآرامية تعني «نادِ»، «صِحْ»،

«ارفع صوتك بالنداء»، «بلغ بصوت مسموع»، وهذا ما نجده في التوراة عندما تناهى إلى سمع النبي إشعيا: «صوت قائل نادِ. فقال بماذا أنادي؟» إشعيا 40: 6. أو: «صوت قائل: قرا. فقال: ماه أقرا؟». وهذا يحيلنا إلى رواية ابن إسحاق: «فقال: «اقرأ». قلت: «ما أقرأ» أو «ماذا أقرأ؟».

وقد كان صديقي عمر الخولي الباحث في فقه اللغات السامية الغربية هو الذي نبهني في أحد حواراتنا إلى هذا التشابه والتطابق في المعنى بين المفردتين. وبعد ذلك استشرت موقع Biblehub[1] على الشبكة الخاص بالباحثين، والذي يعطيك اللفظ العبري لأي موضع في التوراة بحروف لاتينية مع ترجمته إلى الإنكليزية، وهذا ما وجدته بخصوص إشعيا: 40: 6. بعد أن أضفت اللفظ بحرف عربي (=نقحرة) وترجمته العربية:

اللفظ العبري بحرف لاتيني	اللفظ العبري بحرف عربي	ترجمة إنكليزية	ترجمة عربية
qô-wl	قول	the voice	صوت
,ô-mer	أومر	said	قال
qə-ra	قرا	cry out	نادِ
wə-'ō-mar	وأَمَر	and he said	فقال
mah	ماه	what	ماذا/بماذا
ēq-ra	أقرا	shall I cry	أنادي

وبمقارنة الجملتين:

إشعيا 40-6: «صوت قائل: نادِ، فقال بماذا أنادي؟

حديث الغار: «اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ، أو: ماذا أقرأ.

(1) Https//biblehub.com/text/Isaiah/40-6-htm.

وبذلك تغدو الآيات الأربع الأولى من سورة العلق التي قرأها الملاك على محمد واضحة المدلول، فهي تأمره أن يعلن للملأ عن الإله الذي خلق العالم وخلق الإنسان وعلمه بالقلم ما لم يكن يعلم. والمقصود بالقلم هنا هو وحي الله لأنبيائه الذي دُون بالقلم وتحول إلى كتب مقدسة.

ولكن لماذا مارس الملاك العنف ضد النبي في كل مرة كان يسمع منه رده؟ لقد قال مفسرو الحديث القدماء إن صيغة رد النبي «لست بقارئ» تعني أنا لا أعرف القراءة. ولكن إذا كان النبي لا يعرف القراءة فما من سبب لردة فعل جبريل، ولا بد من أن يكون في الرد أمر استفز الملاك، وهو أن صيغة «لستُ بقارئ» قد تعني لا أعرف القراءة، ولكنها هنا عبارة عن صيغة نفي مثل قولنا «ما أنا بذاهب» أو «ما أنا بسارق» أو «ما أنا بعاشقٍ متيمٍ». فالنبي هنا يرفض الأمر الصادر عن كائن مجهول لا يعرف من هو. وهذا ما يفسر السلوك العنيف للآمر، وعودته لتكرار الأمر بالقراءة قبل أن يفصح عن مضمون ذلك الأمر: «اقرأ باسم ربك الذي خلق...الخ».

عند هذه الآيات الأربع الأولى من سورة العلق، ينتهي ما دعوته بالمتن الأصلي للحديث الذي جرى بعد ذلك توسيعه وإضافة عدد من الملاحق عليه اختلفت باختلاف الرواة، أسوقها باختصار:

ملحق 1: لقد كان رواة هذا الحديث يعرفون جيداً أن القرآن لم يُشر إلى الوحي الأول في الغار، وإنما روى عن حادثة واحدة لهذا الوحي في سورتين. فلقد رأى محمد وسيط الوحي في «الأفق المبين» وذلك في سورة التكوير، وفي «الأفق الأعلى» في سورة النجم، ولذلك جعلوا من الرؤية في الأفق تجلياً ثانياً حدث بعد تجلي الغار مباشرة. وهنا يتابع ابن إسحاق قصته في سيرة ابن هشام فيقول:

ثم خرجتُ (من الغار) حتى إذا كنت في وسط من الجبل، سمعت صوتاً من السماء يقول: «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل». فرفعت رأسي إلى السماء أنظر. فإذا جبريل في صورة رجل صافٍ قدماه في أفق السماء يقول يا

محمد أنت رسول الله وأنا جبريل: فوقفت أنظر إليه وأُصَرّف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر ناحية إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي.

ملحق 2: فرجع النبي إلى خديجة فقال: زمّلوني، فدثّروه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ⑦﴾ المدثر: 1-7. ومن المفترض أن هذا هو الوحي الثاني بعد وحي الغار. وكما نلاحظ بوضوح، فإنه بعيد صياغة الوحي الأول.

ملحق 3 ـ رواية أخرى للملحق 2: ولما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل، فحزن لذلك حزناً شديداً حتى كان يغدو إلى جبل ثبير مرة وإلى جبل حراء مرة أخرى يريد أن يلقي بنفسه منه. فبينما هو كذلك عامداً لبعض تلك الجبال، إذ سمع صوتاً من السماء فوقف صعقاً للصوت، ثم رفع رأسه فإذا جبريل على كرسي متربعاً عليه يقول: يا محمد، أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل. فانصرف رسول الله وقد أقر عيناً وربط جأشه (الألباني، السلسلة الضعيفة 4859).

ملحق 4:قال ابن إسحاق: وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي. ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ومضت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله أنه رأى وسمع. فقال ورقة: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه نبي هذه الأمة، فقولي له أن يثبت (سيرة ابن هشام).

كلمة أخيرة أود قولها بخصوص وحي الغار. فقد أكد المؤرخ التونسي المعروف د.هشام جعيط في ثلاثيته عن السيرة النبوية[1]. إن وحي الغار لم يحدث قط لأنه غير مذكور في القرآن، وذلك اعتماداً على معياره في الفصل بين ما هو تاريخي في السيرة وما هو متخيل، وهو أن الواقعي يأتي من القرآن أما المتخيل فمما دبّجه رواة السيرة والحديث. وعلى الرغم من أنني أتفق معه في هذا الطرح، إلا أنني أقول إن مهمة مؤرخ السيرة هي البحث عما هو تاريخي في الحدث الإنساني (ميلاد الرسول، دعوته في مكة، الهجرة إلى الحبشة، الهجرة إلى يثرب، فتح مكة)، أما الحدث الإلهي، وأعني به تداخل الإلهي بالإنساني، فيقع خارج مجال التقصي التاريخي لأنه ليس حدثاً مادياً يمكن إثباته أو نفيه، وبالتالي علينا أن نبحث عن معناه ومغزاه لا عن تاريخيته، لذلك فإن وحي الغار عند المؤرخ يقف على قدم المساواة مع الرؤية في الأفق الأعلى (سورة النجم) والأفق المبين (سورة التكوير) مما سنعرضه في الفصل التالي.

(1) الجزء الأول، فصل قصة الغار ولماذا اختُلقت؟

3- جبريل في القرآن
ولقد رآه بالأفق المبين

في مقابل مئات المرات التي ورد فيها ذكر جبريل في السيرة والحديث، لم يرد ذكره في القرآن إلا ثلاث مرات، واحدة منها فقط في سياق علاقته بالوحي، وذلك في سورة مدنية نزلت بعد أكثر من 13 سنة على البعثة:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ البقرة: 98.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ التحريم: 4.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ البقرة: 97.

وبعد ذلك يختفي الاسم جبريل لتحل محله صيغ أخرى في الإشارة إلى وسيط الوحي:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ الشعراء: 193-194.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ النحل: 102.

وصيغة «روح القُدُس» تعني «روح الله»، لأن «القُدس» هو «القدوس» وهو من الأسماء الحسنى لله تعالى. ولذلك قال:

﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يوسف: 87.

وقال:

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا (=مريم) رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ مريم: 7.

وقد ترد كلمة «الروح» غير مضاف، مثل قوله في سورة غافر: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ في القراءة التقليدية، وفي قراءتي: (يلقي الروحُ من أمره):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ الإسراء: 85.

نخلص من ذلك إلى أن:

الروح = الروح الأمين= روح القدس= روح الله= جبريل

فإذا عرفنا أن الاسم «جبريل» يتألف من مقطعين هما «إيل» و«جبر» وأن «جبر» في اللغات السامية الغربية تعني «قوة» وأن «إيل» في التوراة وفي القواميس العربية تعني الله تعالى، نخرج بنتيجة مفادها أن معنى الاسم هو: قوة الله، وهذا ما يجعله في انسجام مع بقية صيغ الأسماء.

هذه الكينونة القدسية ذات الأسماء لا تنتمي إلى جنس الملائكة، لأن الخطاب القرآني في أكثر من آية يميز بينهما:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ النبأ: 38.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ القدر: 3-4.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ المعارج: 4.

وسوف نكشف عن طبيعة هذه الكينونة فيما يلي من تفسيرنا لسورة التكوير: 15-25، وسورة النجم: 1-8، وهما الموضعان اللذان تحدث فيهما الخطاب القرآني عن «حالة» الوحي، عندما تجلى الروح الأمين للنبي في الأفق المبين وعلمه ما لم يكن يعلم. وبعد ذلك صمت الخطاب عن هذه الحالة حتى النهاية.

تتناول السورتان الحدث نفسه، عندما تجلى وسيط الوحي (الذي لم يُذكر بالاسم) في الأفق لمحمد، فأطلعه على مكنونات عالم الغيب، وعلى آيات ربه الكبرى عندما رأى الجنة رؤية القلب، وسدرة المنتهى بوابة الحياة الخالدة، التي يؤول إليها سعي الصالحين.

سورة التكوير:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾
الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾
وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾
ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾
مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾
وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾
وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾
وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

نحن هنا، وفي سورة النجم، أمام حالة التجلي الأول، والوحي الأول بصرف النظر عن أي ترتيب زمني مفترض للنزول[1]. وهذا الوحي يوصف بأنه «قول رسول كريم»، أي ليس من عند محمد بل من وسيط الوحي نيابة عن الله. كما يوصف هذا الوسيط بأنه «ذو قوة عند ذي العرش». وهذا ما يحيلنا إلى المعنى الأصلي للاسم جبريل بأنه جبر ـ إيل: أي «قوة الله». كما يوصف بأنه «مطاع ثم أمين». وهذا ما يحيلنا إلى الآية 193 من سورة الشعراء: «ونزل به الروح الأمين». وقد رأى محمد هذه الكينونة الغامضة في «الأفق المبين» أي البيّن والواضح، فلم يضنّ عليه بما يجب أن يعرفه من أمور الغيب.

---

(1) سوف نبحث لاحقاً في تورخة القرآن، أي الترتيب الزمني للنزول، ونعطي رأينا فيما قالته المصادر الإسلامية وما قاله المستشرقون.

أما عن طبيعة هذه الرؤية، فنجدها في سورة النجم التي تتناول الموضـوع نفسه:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢

وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦

وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩

فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣

عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤

عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾

تعيد الآيات من 1 إلى 12 سرد ما ورد في سورة التكوير، ولكن مع بعض التوسع، على ما تظهره المقارنة التالية:

التكوير	النجم
- إنه لقول رسول كريم	- وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى
- ذي قوة عند ذي العرش مكين.	- علمه شديد القوى ذو مِرة فاستوى
- مطاع ثم أمين.	
- وما صاحبكم بمجنون	- ما ضل صاحبكم وما غوى
- ولقد رآه بالأفق المبين	- فاستوى وهو بالأفق الأعلى
- وما هو على الغيب بضنين	- فأوحى إلى عبده ما أوحى

إن ما تقوله سورة النجم هو أن ما ينطق به محمد لا ينجم عن ضياع الرشد أو أهواء في النفس، بل هو وحي إلهي ينقله إليه من وُصف في سورة التكوير بذي قوة، ويوصف هنا بأنه «شديد القوى» و«ذو مِرة» أي ذو عزم وشدة. وقد رآه محمد في حال الاستواء (أي الاستقامة والاعتدال) في الأفق الأعلى وهو كبد السماء، ثم هبط تدريجياً حتى صار قريباً منه مقدار وتري قوس، فأوحى إلى عبده ما أوحى. والرؤية هنا، كما في سورة التكوير، رؤية لكيان متموضع في الزمان والمكان، ولذلك فإن فؤاد محمد (أي فكره وعقله) لم يُكذب هذه الرؤية باعتبارها شيئاً لا وجود له، وبالتالي لا مجال لمجادلته أو تكذيبه فيما رأى. أما ما الذي رآه محمد فأمر لا يعرفه غيره، ولا يمكن لأحد التكهن به، أو الركون إلى الأحاديث مثل الحديث الذي أورده مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: «ما كذب الفؤاد ما رأى. قال: رأى جبريل له ستمئة جناح» مسلم 174.

إن الغموض الذي يغلف آيات سورة النجم ليس مقصوداً، بل هو من طبيعة موضوعها الذي لا يمكن التعبير عنه بصيغ الكلام العادي المألوف. وهذا

الغموض يبلغ ذروته في التجلي الثاني عندما نزل روح القدس مرة أخرى ليتابع إبلاغ محمد بالعناصر الأساسية لرسالته:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾
مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾
لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

هذا التجلي الثاني يضع محمداً في حالة نفسية إنخطافية Transendental يوجهها الوجد Extecy لا العقل، تحل فيها رؤى القلب محل رؤى البصر، نقلته من المستوى الأرضي إلى المستوى القدسي، فرأى الجنة دون أن يبرح مكانه، حيث سدرة المنتهى ونور الله يغشاها فتشع به وتلتمع. والسدرة واحدة من شجر السيدر وهو النبق الذي ينمو في بلاد العرب، ذو جذع أسطواني يرتفع إلى ما يقارب من 80 قدماً. ولكنها في هذا السياق ترمز إلى شجرة الحياة القائمة في وسط الجنة، والتي تهب الحياة الخالدة لمن يأكل منها، على ما ورد في سفر التكوين التوراتي 2: 9 و3: 22. وقد وصفت هنا بأنها «سدرة المنتهى» لأنها المآل الذي ينتهي إليه سعي الصالحين في الحياة الأولى لتهبهم الخلود في الحياة الثانية. وقد جرت الإشارة إلى هذا «المآل» أو «المنتهى» في موضع لاحق من سورة النجم الآيات من 39-42:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾
ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾
وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

كما جرت الإشارة إلى المنتهى، أو الرجعى، في عدد من الآيات ومنها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢

فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ النازعات: 42-44.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ القيامة: 12.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾ الانشقاق: 6.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ العلق: 8.

فلقد تضمن الوحي الأول[1] في سورة التكوير وسورة النجم الأفكار الرئيسية في العقيدة القرآنية، والتي ستطورها بعد ذلك السور المكية، وعلى رأسها أن العالم مؤقت وزائل، ويسعى إلى نقطة في الزمن هي المنتهى، عندما يؤول كل شيء إلى الله الذي يغدو كل شيء في كل شيء. وهذه هي الفكرة الناظمة للإيديولوجيا القرآنية، وعنها تتفرع بقية الأفكار: «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ النحل: 77.

وهذا ما يعقد صلة بين الوحي الأول في سورة النجم، الذي أودع في قلب النبي الأفكار التي سيقوم عليها المشروع المحمدي ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ وبين وحي ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ القدر: 1-5. وبما أن كلمة «القدر» هنا تعني القدر العظيم والشأن الرفيع عند الله، فقد وصفت في موضع آخر بأنها ليلة مباركة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ الدخان: 3. وقد حدث ذلك في إحدى ليالي شهر رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ البقرة: 185.

---

(1) وأنا هنا أضرب صفحاً عن وحي غار حراء، الذي ابتكرته السيرة على الرغم من عدم وجود إشارة إليه في القرآن.

وما أود التوكيد عليه من هذه المقارنة هو المطابقة بين الوحي في الأفق الأعلى والانزال في ليلة القدر، وأن ما ورد في سورة القدر هو إشارة إلى ما ورد في سورة النجم.

وقد حار المفسرون في كيف نزل القرآن كله في مناسبة واحدة، وذلك للاعتقاد السائد بأن الوحي ينزل على سمع النبي بكلام ينطق به وسيط الوحي نيابة عن الله. فقال بعضهم إن أول القرآن نزل في ليلة القدر، وقال آخرون إن الله أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا حيث مواقع النجوم[1] ثم أنزله منجماً بعد ذلك على نبيه. وفي الحقيقة فإن إنزال القرآن جملة واحدة في سورة القدر، يأتي في اتفاق مع تعريفي للوحي في مطلع هذا الباب، بأنه حالة وجدية تفتح بوابة الاتصال مع المستوى القدسي للوجود، تولّد في نفس النبي أفكاراً ومعاني وخلاصات معرفية لا يد له فيها، إي إنها ليست أوهاماً أو تهيؤات ذاتية. وعندما يقوم النبي بتحويل ما تلقاه إلى خطاب منطوق بلغته، يغدو رسالة ذات مغزى ودلالة، أي إلى نص، فلغة النص والحالة هذه ليست لغة الإنزال وإنما لغة التبليغ أي لغة الرسول، فالله لا يصدر عنه صوت، لأن ما يصدر عنه صوت هو جسم بالضرورة، فالصوت هو مرور الهواء بجسم، وليس الله بجسم.

جبريل ليس ملاكاً:

بقيت هناك نقطة غامضة في سورة النجم لم يحسم الخلاف بشأنها بين المفسرين، فوسيط الوحي ظهر في الأفق الأعلى:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩

فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾

(1) وهم في ذلك يفسرون أيضاً ما ورد في سورة الواقعة: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ الواقعة: 75-76.

إن كل القواعد النحوية والبلاغية تدل على أن ضمير الغائب في كلمة عبده يعود على وسيط الوحي، كما أن افتتاح الكلام جرى في أول السورة بالخبر عن الرسول وعن جبريل لا عن الرسول والله. فكيف يكون الرسول عبداً لجبريل؟ وما طبيعة الهوية التي تجلت في الأفق الأعلى لمحمد، ثم دنت فتدلت فأوحت؟

في الإجابة عن هذه التساؤلات تقودنا تفاسير القرآن في متاهة لا خروج منها، وهذه بعضها:

«ثم دنى ربه فتدلى».

«ودنا رب العزة فتدلى فأوحى إليه ما شاء».

«أوحى الله إلى محمد مواجهة بلا واسطة».

«سألتُ ابن عباس: هل رأى محمد ربه؟ قال: نعم. دونه ستر من اللؤلؤ».

«سُئل أبو ذر: هل رأى محمد ربه؟ قال: سألته فقال: نور على نور أنى أراه».

«وسئلت عائشة فقالت: لقد أعظمَ الفرية من قال إن النبي رأى ربه بل هو جبريل».

«وعن ابن عباس أنه رآه بقلبه».

«ثم دنا الرب من محمد فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى».

«دنا محمد من ربه فتدلى فأهوى للسجود فكان منه قاب قوسين».

فهل رأى محمد ربه؟ وإذا لم يكن قد رآه فما هي طبيعة الهوية التي رآها؟ في جوابي على هذه التساؤلات أقول إنه رآه ولم يره في آن معاً. ومن أجل شرح هذه المقولة التي تبدو غامضة، سوف أقدم فيما يلي معالجة لاهوتية لمفهوم «الله» ومفهوم «جبر ـ إيل».

إن عامة الناس محجوبون عن الله بأفكارهم الخاطئة عنه؛ فهم يرونه شخصاً له ما للأشخاص من طباع وأمزجة، منفرد في السماء فوق الخلائق جميعاً، ينظر إليهم ويسمع كلامهم ويعلم ما في ضمائرهم. وبما أن الشخصية

غالباً ما تتمتع بهيئة منظورة، فقد تصوره البعض على هيئة بشرية، ونُسب إلى النبي قوله: «رأيت ربي في أحسن صورة» و«رأيت ربي في صورة شاب أمرد، جَعِد، عليه حلة خضراء» وكلا الحديثين حسن الإسناد[1]. وهنا لا نستطيع إلا أن نرى أثر الصورة التوراتية عن الله في سفر التكوين: «يوم خلق الله الإنسان على صورة الله خلقه...» التكوين 5: 1. وأيضاً: «فخلق الله الإنسان على صورته، على شبه الله عمله» التكوين 1: 27.

أما خاصة الناس ممن هم فوق هؤلاء في العلوم والمعارف ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر: 9. فإن أفكارهم الصحيحة عنه تقودهم إلى الاعتقاد بأنه ليس بشخص ولا صورة، لا يعلم أحد من خَلْقِهِ ما هو وأين هو وكيف هو. المتحدث في ذات الله صامت، والناظر باهت، عز أن تدركه العقول وجل أن تجول فيها الأفهام والأفكار. لم يخلقه أحد لأنه فوق مبدأ السببية الفاعل في العالم المادي والثنائيات التي تحكم مجرياته. ولذلك لا يمكن التحدث عنه بصيغة «هو كذا» بل بصيغة «هو ليس كذا».

هذه الاستقلالية التامة لله عن العالم، تجعله لا يتصل به إلا من خلال كينونة قدسية تصدر عنه من خلال عملية الفيض وتتوسط بينه وبين العالم، بواسطتها تمت عملية الخلق الأول، ومن خلالها يمارس الله فعاليته في العالم. ونظرية الفيض التي نتبناها هنا لتفسير استقلال الله عن العالم واتصاله به، هي نظرية فلسفية صوفية ترجع في أصلها إلى الأفلاطونية المحدثة التي ازدهرت في القرن الثالث الميلادي مبنية على تعاليم أفلاطون، ويُعد الفيلسوف اليوناني الإسكندري أفلوطين من المساهمين الأوائل في تشكيلها، وهو الذي دعاه الفلاسفة العرب بالشيخ اليوناني. وقد أثرت هذه الفلسفة بقوة على الفلسفة العربية، وعلى تعاليم الفرق الباطنية الإسلامية. ويظهر تأثير الأفلاطونية المحدثة ونظرية الفيض بشكل خاص في رسائل إخوان الصفاء التي كانت متداولة في القرن الرابع الهجري.

---

(1) انظر الرواية التي أوردها ابن الجوزي في «العلل المتناهية 36/1».

يقول إخوان الصفاء إن الباري جل ثناؤه لا يباشر الأجسام بنفسه ولا يتولى الأفعال بذاته، وبالتالي فإن العالم ليس صنعة يديه وإنما أظهره إلى الوجود عبر كينونة قدسية فاضت عنه كما يفيض النور عن الشمس هي «العقل الفعال» (الذي يدعى في المنظومات الفلسفية الأخرى بالعقل الأول أو العقل الكلي)، وهو جوهر روحاني في غاية التمام والكمال، فيه صور جميع الأشياء كما تكون في فكر العالم صور المعلومات. ثم فاض من العقل فيض آخر دونه في الرتبة هو النفس الكلية، وهو جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور والفضائل من العقل الفعال على الترتيب والنظام. وفاض من النفس فيض آخر دونها في الرتبة هو الهيولى الأولى التي قبلت المقدار الذي هو الطول والعرض والعمق، وهي الأبعاد الثلاثة، فصارت بذلك جسماً للعالم[1].

كما يظهر أثر نظرية الفيض في التصوف الإسلامي لاسيما عند ابن عربي، الذي يرى أن الألوهة لا تفعل في الطبيعة بشكل مباشر بل عبر مرحلتين من الفيض ينتقل من خلالهما الفعل من الجانب الإلهي إلى العالم المادي، فقد فاض عن الله جوهر روحاني بسيط دُعي في القرآن قلماً وروحاً، وفي السنة عقلاً. فقد ورد في الحديث «إن أول ما خلق الله العقل». وكذلك: «أول ما خلق الله القلم»[2]. فالعقل الفعال أو المتعلم قبل العلم بالتعلم، ونقل عن الله ما علمه ونقشه في النفس الكلية المنفعلة، فكان العقل بمثابة القلم والنفس بمثابة اللوح المحفوظ، ومن النكاح المعنوي بينهما ولد العالم المادي[3].

لقد استعنت بالفلسفة والتصوف لغرض إيضاح فكرتي عن الفيض الإلهي الذي نجم عنه وسيط الوحي، الذي دُعي في القرآن بقوة الله، والروح الأمين،

---

(1) راجع بشكل خاص الرسالة 31 والرسالة 32، من رسائل إخوان الصفاء، طبعة دار صادر بيروت.

(2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، 344-6، وتهذيب التهذيب 2-192.

(3) من شروحات د. سعاد الحكيم على الفتوحات المكية وعلى نصوص الحكم في كتابها المعجم الصوفي.

والروح، وروحنا. هذه الصيغ التبادلية للاسم جبر - إيل. تدل على أنه ليس وسيطاً للوحي النبوي فحسب، بل هو تعبير عن فعالية الله في العالم وحضوره فيه. وبما أن النص القرآني ضنين في التحدث عن حالة الوحي، فإنني سوف أتحول إلى كتاب التوراة الذي أعطانا معلومات غزيرة عن هذه الكينونة القدسية. وما نجده في التوراة ليس تأملات لاهوتية لأنه خال منها، وإنما مواقف يظهر بها الرب لا بذاته بل من خلال كينونة قدسية قد تبدو من خلال هيئة مادية: غمامة، عمود سحاب، عمود من نار. ففي أول تجلٍ له ظهر لموسى في هيئة نارية عندما رأى شجيرة صحراوية تتقد بالنار دون أن تحترق، فاقترب منها موسى فسمع صوت الرب من داخلها (الخروج: 3). وعندما قاد بني إسرائيل في صحراء سينا، كان يسير أمامهم في عمود سحاب نهاراً وفي عمود نار ليلاً ليهديهم في الطريق. وبعد أن انتهى موسى من بناء خيمة المسكن التي كان الرب يحل فيها متى شاء ويغادرها متى شاء، حضر الرب على هيئة سحابة غطت الخيمة وملأ بهاؤه المسكن (الخروج: 40). وعندما انتهى الملك سليمان من بناء الهيكل في أورشليم، حل مجد الرب في هيئة سحابة ملأت بيت الرب (الملوك الأول: 8).

وقد تتمظهر هذه الكينونة القدسية في هيئة بشرية يدعوها النص بملاك الرب. وهذا التعبير لا يعني ملاكاً من عند الرب وإنما طيف الرب أو خيال الرب، وهو الحضور المعاين لإله إسرائيل في العالم. ذلك أن إله إسرائيل في ذاته لا يمكن رؤيته: «حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل» إشعيا 45: 15. وقد قال لموسى: «لا يراني إنسان ويعيش». ولذلك فإن الرؤية أينما وجدناها في النص هي رؤية لملاك الرب لا للرب ذاته. وسأورد فيما يلي شواهد من النص على ما أقول:

نقرأ في سفر القضاة أنه كان رجل من بلدة صرعة من عشيرة الدانيين اسمه منوح وامرأته عاقر لم تلد. فتراءى ملاك الرب للمرأة وقال لها: «ها أنت عاقر ولم تلدي، ولكنك تحبلين وتلدين ابناً يكون نذيراً لله من البطن وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين». فدخلت المرأة فكلمت رجلها قائلة: «جاء إلي رجل

الله ومنظره كمنظر ملاك الرب مرهب جداً، ولم أسأله من أين هو ولا هو أخبرني عن اسمه». ثم روت له ما سمعته من الرجل. فخرج منوح وقال لملاك الرب: «دعنا نعوقك ونصنع طعاماً من جدي المعزى». فقال ملاك الرب لمنوح: «لو عوقتني لا آكل من خبزك، ولكن اعمل محرقة[1] وأصعدها للرب». فأخذ منوح جدي معزى وأحرقه على الصخرة للرب. فكان عند صعود اللهيب نحو السماء أن ملاك الرب صعد في لهيب المذبح ومنوح وامرأته ينظران، فسقطا على وجهيهما إلى الأرض لأنهما عرفا هوية الزائر، وقال منوح لامرأته: «موتاً نموت لأننا رأينا الله». أي إن رؤيتهما لملاك الرب هي بشكل ما رؤية غير مباشرة لله. فقالت: له امرأته: «لو أراد الله أن يميتنا لما أخذ من يدنا المحرقة ولما أرانا كل هذا» القضاة 13: 1-23.

ويتكرر هذا المشهد في قصة الفتى جدعون الذي جاءه أمر الرب بتخليص إسرائيل من سلطة المديانيين. فقد جاء ملاك الرب وجلس تحت شجرة البطم في الأرض التي لوالد جدعون، وظهر له فقال: «الرب معك يا جبار البأس، اذهب وخلص إسرائيل من يد مديان». فقال جدعون: «بماذا أُخلص إسرائيل وعشيرتي هي الأذل في سبط منسي وأنا الأصغر في بيت أبي». فقال له الرب: إني أكون معك وستضرب مديان كرجل واحد»[2]. فقال جدعون: «لا تبرح من هنا حتى أتي إليك وأُخرج تقدمتي وأضعها أمامك. ثم دخل فعمل جدي معزى وخبزاً وقدمها أمامه. فقال له ملاك الرب: «خذ تقدمتك وضعها على تلك الصخرة». ففعل ذلك. فمدَّ ملاك الرب طرف العصا التي بيده ومسها، فصعدت نار من الصخرة وأكلتها، واختفى ملاك الرب عن عيني جدعون. فعرف جدعون أنه ملاك الرب، وقال: آه يا سيدي الرب، لأني رأيت ملاك الرب وجهاً لوجه. فقال له الرب[3]: السلام لك، لا تخف لن تموت. فبنى هناك جدعون مذبحاً للرب

---

(1) المحرقة هي طقس للتقرب إلى إله إسرائيل يتضمن تقديم ذبيحة على المذبح ثم إحراقها ليصعد دخانها إلى السماء. ويدعى إصعاد محرقة.

(2) لاحظ هنا الاستخدام التبادلي لتعبير «ملاك الرب» وتعبير «الرب».

(3) لاحظ مرة أخرى الاستخدام التبادلي للتعبيرين.

دعاه يهوه شلوم. هذا وقد ظهر تعبير «ملاك الرب» نحو 70 مرة في أسفار الكتاب، للدلالة على الحضور المرئي للرب في العالم.

كما استخدم محررو التوراة تعبير «مجد الرب» بدلاً من «ملاك الرب» ليؤدي المعنى نفسه، كما هو الحال في المواضع التالية:

«فحدث إذ كان هرون يكلم كل جماعة بني إسرائيل (في سيناء)، أنهم التفتوا نحو البرية، وإذا مجد الرب قد ظهر في السحاب، فكلم الرب موسى قائلاً: سمعت تذمر بني إسرائيل...» الخروج 16: 10.

«فصعد موسى إلى جبل الله... وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام ودُعي موسى من وسط السحاب، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل» الخروج 24: 12-17.

«فتراءى مجد الرب لكل الشعب، وخرجت نار من عند الرب وأحرقت المحرقة والشحم على المذبح، فرأى جميع الشعب وهتفوا وسقطوا على وجوههم» اللاويين 9: 23-24.

هذا وقد بلغ عدد المرات التي ورد فيها تعبير «مجد الرب» في الكتاب نحو 100 مرة.

وفي سفر الأمثال يدعى وسيط الخلق بالحكمة، أي حكمة الله الفاعلة في العالم والمدبرة لشؤونه: «طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة وللرجل الذينال الفهم. الرب بالحكمة أسس الأرض، أثبت السماوات بالفهم. بعلمه انشقت اللجج وتقطر السحاب بالندى» 3: 13- 20.

«أنا الحكمة... الرب حازني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل مسحتُ منذ البدء من أوائل الأرض. إذ لم يكن غمرٌ أُبدِئتُ إذا لم تكن ينابيع كثيرة المياه. من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت، إذا لم يكن قد صنع الأرض بعدُ. لما ثبَّت السماوات كنت هناك لما رسم دائرة على وجه الغمر.

لما أثبت السحاب من فوق لما تشددت ينابيع الغمر، لما وضع للبحر تخماً فلا تتعدى المياه تخمه، لما رسم الأرض، كنت عنده صانعاً» 8: 12-30.

هذه التجليات للألوهة التوراتية في العالم، عبرت عنها الترجمة الآرامية للأسفار الخمسة المعروفة باسم ترجوم أونكيلوس Targum Onkelos[1] بكلمة شيخينه Shekhinah، وهي مشتقة من المصدر Shakhan أي السكن والإقامة، والهاء في آخر الكلمة هي أداة التأنيث كما في العربية، وتدل على الحضور المرئي للألوهة المحجوبة. وبإضافة الكلمة إلى الرب يقال شيخينته.

وقد توسع هذا الترجوم في استخدام كلمة شيخينه حتى اشتمل على كل موضع في الكتاب يُفهم منه الحضور المرئي لإله إسرائيل، أو يعزو إليه خصائص مشتركة مع البشر. فالآية التي تقول على لسان يهوه: «فيصنعون لي مَقدِساً لأسكن في وسطهم»، يوردها الترجوم: «فيصنعون لي مقدساً لأدع شيخينتي تسكن بينهم» الخروج 25: 8. والآية التي تقول: «وهرون وبنوه أقدسهم لكي يكهنوا لي وأسكن في وسط بني إسرائيل» يوردها: «... ... وأجعل شيخينتي تسكن في وسط بني إسرائيل» الخروج 29: 12-16. والآية التي تقول: «ولا تنجسوا الأرض التي أنتم مقيمون فيها التي أنا ساكن في وسطها» يوردها: «... ... التي تسكن فيها شيخينتي» العدد 35: 34. والأمثلة على مثل هذا التأويل أكثر من تحصى في الترجوم، ونجدها في المواضع التي لم يرد فيها تعبير «ملاك الرب» أو «مجد الرب».

ويتابع حكماء التلمود بعد ذلك استخدام مصطلح الشيخينة في التمييز بين يهوه وظهوره المحسوس في العالم، من خلال التمييز بين ظاهر النص وباطنه؛ فعندما يقول الظاهر إن مسكن الرب أو خيمة الاجتماع صنعت لكي يقيم الرب فيها بين بني إسرائيل، فإن باطنه يقول إن الخيمة قد صنعت لكي تكون مسكناً

---

(1) ظهرت هذه الترجمة ببابل خلال القرن الثاني الميلادي، وأقرَّتها السلطات الدينية اليهودية. وكلمة ترجوم في الآرامية تعني ترجمة.

للشيخينه، وكذلك الأمر بالنسبة لهيكل أورشليم الذي قال فيه الملك سليمان بعد الانتهاء من بنائه: هو ذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك، فكم بالأقل هذا البيت الذي بنيته لك (الملوك الأول 8: 27).

هذا وقد أخذ حكماء التلمود منذ القرن الثالث الميلادي بالمطابقة بين الشيخينة والروح القدس[1]، الأمر الذي يعطي مصداقية لنظريتي في جبر - إيل القرآني أو روح القدس، أو «السكينة». فقد وردت كلمة شيخينة التلمودية بصيغة «سكينة» في ستة مواضع من النص القرآني، والتي ظن المفسرون أنها من السكون:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ البقرة: 248.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة: 26.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ التوبة: 40.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ الفتح: 4.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ الفتح: 18.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الفتح: 26.

* * *

---

(1) لمزيد من المعلومات عن مفهوم الشيخينة، انظر مرجعنا:
- Raphael Patai, The Hebrew Godess, Wayn University Press, Detroit, 1978, chapter 4.

الباب الثالث

الوحي والنص

1- النص والخطاب

مأزق النبي :

الوحي، على ما أسلفنا، هو فيض صادر عن الله بتوسط العقل الفعال الذي يدعى بروح القدس أو الروح الأمين، وبأشباه هذين من الأسماء. وهذا الفيض يهبط على قلب النبي الذي يحوله إلى كلام مفهوم لسامعه[1]. فالنبوة ليست تلقياً سلبياً لأنها تستدعي فعلاً يقوم به النبي الواقع بين مطرقة الوحي وسندان النص، فهو يحول المعقولات إلى رموز حسية ومجازات تقربها إلى أفهام الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة: 67.

ولكن الصعوبة في هذا التبليغ تكمن في أن سواد من بتوجه النبي إليهم بالخطاب هم من العامة الذين لا يفقهون إلا المحسوسات، وعليه أن يخاطبهم بما يناسب مخيلتهم، لكي يحملهم على الإيمان بأيسر الطرق، ولهذا فإن معظم ما يقوله عن الله ينحو منحى التجسيم والتشبيه. فهؤلاء ليسوا بحاجة إلى إله مفارق للطبيعة لا يحزن أو يغضب ولا يحب أو يكره، وما إلى ذلك من المشاعر الإنسانية، قدر حاجتهم إلى إله عاطفي يمكن التقرب إليه بالشعائر وطلب عونه بالدعاء. وبما أن الانفعال هو الذي يتحكم بالعامة لا التفكير العقلاني، كان لابد للنص من أن يملأ خيالهم بالترغيب والترهيب الذي نجده يتردد في جنبات القرآن، من أجل دفعهم إلى التزام الشريعة والمنظومة الأخلاقية. وهذا ما يضفي الطابع البراجماتي على النص، لأنه يريد الوصول إلى ثلاث شرائح من

(1) وهذا رأي إمام الحرمين أبو المعالي الجويني الذي قال إن الوحي يأتي بعضه بالمعنى وبعضه الآخر بكلام.

المجتمع؛ فهو يتضمن خطاباً للعامة الذين تحكمهم الخرافة والخوف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ النساء 56. وهنالك خطاب للخاصة الذين يدعوهم بالعلماء والراسخين في العلم والذين أوتوا العلم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝﴾ السجدة: 17. وخطاب ثالث له معنى ظاهري يفهمه الجمهور وآخر باطني يفهمه الخاصة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ القيامة: 22.

ولقد جاء الوحي الأول في سورة التكوير وسورة النجم بالأفكار الأساسية التي يقوم عليها المشروع المحمدي، ولكن هذا لا يعني أن الوحي بعد ذلك قد توقف، وإنما استمر وفقاً لمتطلبات الدعوة، وتزويد النبي بالتأييد والدعم المعنوي. فعلى الرغم من أن محمداً كان صامتاً دوماً في حضرة الوحي، مستجيباً غير مجيب. إلا أن نوعاً من الحوار كان يجري في خلفية المشهد. فقد كان ربه عارفاً بدخيلته وما يعتمل في صدره، ينصت إليه وإن لم يسأل. فعندما ظن أن ربه قد تركه جاءه الجواب على ظنونه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ...﴾ الضحى: 1-3. وعندما تزايد شقاؤه في مهمته التي بدت مستحيلة، جاءه العزاء من ربه وإن لم يجأر بالشكوى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝﴾ طه: 1-7. وكذلك الأمر عندما ضاق صدره باتهام قومه له بأنه ساحر أو مجنون: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝﴾ الحجر: 97-99. وربما جاءه العتاب على سلوك غير مستحب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾ عبس: 1-10.

وكإنسان له من خصائص القوة وخصائص الضعف ما لكل البشر، كانت تأتي على محمد أوقات يشعر باليأس فيها من فلاحه في إتمام رسالته. ولا ندري أية خواطر عرضت له جعلت العتب في خطاب ربه يتحول إلى تقريع وتهديد ووعيد على ما نجده في الآيات التالية:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ ﴾ الحاقة: 40-46.

والوتين هنا هو الشريان الرئيسي الذي يصدر عن القلب.

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ ﴾ الإسراء: 73.

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ ﴾ الإسراء: 74-75.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ الزمر: 65.

﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ يونس: 94-95.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ ﴾ الأحزاب: 1-2.

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝ ﴾ الإسراء: 39.

مع هذا التهديد بنار جهنم يقف محمد على قدم المساواة مع بقية البشر.

ولدينا ملاحظة جديرة بالاهتمام فيما يتعلق بالخطاب الموجه إلى محمد، وهي أنه يستخدم صيغة (يا أيها النبي) أو (يا أيها الرسول)، بينما يغيب الاسم

محمد عن هذا الخطاب. كما أن الاسم لم يرد في السردية القرآنية سوى أربع مرات، وجميعها في السور المدنية:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ آل عمران: 144.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ الأحزاب: 40.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ محمد: 2.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح: 29.

وهذا ما يعزز رأي القائلين بأن «محمد» هو لقب لا اسم، أطلق عليه في الفترة المدنية من الدعوة.

في مفهوم الخطاب :

لقد استعملنا حتى الآن كلمة «النص» بالمعنى الواسع وغير الحصري للكلمة، ولكن ما ينتجه النبي في تحويله لما يجده في نفسه من معاني وأفكار إلى رموز حسية ومجازات ليس نصاً بل هو خطاب. وسوف نبين فيما يلي الفرق بين الاثنين، مع التنبيه إلى أن ما أعنيه بالنص ليس النص الأدبي وإنما النص الذي يقدم أفكاراً ومعلومات وتوجيهات.

1- النص كلام مكتوب في نشأته وفي تداوله، واضح لكل من يعرف لغته. أما الخطاب فشفوي في نشأته وفي تداوله.

2- النص ثابت لا يتغير بالإضافة بعد أن ينتهي منه صاحبه. أما الخطاب فمتغير يقبل الإضافة وربما الحذف.

3- يعالج النص موضوعاً محدداً على تشعبه، أما الخطاب فيتناول مواضيع عديدة لا يجمع بينها سوى مقاصد منشئه.

4- لا يتوجه النص إلى جماعة معينة حاضرة ومشخصة، وقارئه غائب يتلقاه عند قراءته، أما الخطاب الذي يفترض وجود سامعٍ فيتوجه إلى جماعة بعينها أو أكثر من جماعة.

5- لا يحصل النص على ردود أفعال فورية من قارئه، أما الخطاب فيقـوم على التفاعل المباشر بين المرسل والمتلقي، أي إنه فعالية تواصلية.

6- هذه الفعالية التواصلية تستدعي الحوار والجدال والسجال بين الطرفين. وهـذا ما يجعل المتلقي عنصراً فاعلاً في هذه العلاقة، وهو يستجيب إما قبولاً أو رفضاً.

7- لا نسمع في النص سوى صوت الكاتب، بينمـا تتعـدد الأصـوات في الخطاب الذي غالباً ما يستدعيها للرد عليها والحوار معها. ويأتي تعدد الأصوات من تعدد الجهات المخاطبة.

8- التكرار عيب في النص، ولكنه سمة أساسية في الخطـاب، لأن الـنص يُنجز دفعة واحدة وخلال فترة قصيرة نسبياً من حياة مؤلفه، والمتلقي يقرؤه دفعة واحدة أيضاً، وبالتالي لا مجال ولا ضرورة للتكرار. أما الخطاب فينجـز خـلال فترة طويلة، وهذا ما يستدعي إما التذكير بما قيل سـابقاً، أو التوكيـد عليـه، أو استحضاره عند السجال.

9- يتحول الخطاب إلى نص عندما يتم تدوينه.

اعتماداً على هذه النبذة المختصرة، عن النص والخطاب، نقول إن المصحف نص والقرآن خطاب، وسوف أبسط فيما يلي الخصائص الخطابية للقرآن.

1- لقد كان النبي ينطق بالقرآن لمستمعين ولم يكـن يخطـه لقـراء، أي إن تداول القرآن كان يتم شفوياً عن طريق الحفظ والتلاوة طيلة حياة النبي. وإذا كان النبي قد اتّخذ كتّاباً للوحي كما تقول الأخبار التي أشـك بهـا، وكـان يـوجههم لوضع التنزيل الجديد في مكانه من النص، فإن ما دونه أولئك الكتـاب بقـي في حوزة النبي ولم يوضع بين أيدي المسلمين لقراءته أو إنتاج نسخ عنه. ونحـن إذا صدقنا الأخبار التي تقول بأن الجمع الأول للقرآن في مصحف قـد تم في عصـر أبي بكر بإصرار وتوجيه وإشراف من عمر، فإن هذا المصحف قد بقي في حوزة عمر ثم آل إلى ابنته أم المؤمنين حفصة، على ما تقول أخبار الجمع الثاني، وبقي المسلمون يتداولون القرآن شفوياً دون أن يخطر في بال أحد أن يطلع على النص

المكتوب. وقد بقي الأمر على هذه الحال حتى بعد أن انتهى الخليفة عثمان من عملية الجمع الثاني، ووزع نسخاً من مصحفه على الأمصار تختلف الأخبار في عددها وفي الأمصار التي أُرسل إليها. فهذه المصاحف بقيت مجرد خبرٍ غير موثق لأننا لم نعثر على واحد منها حتى الآن، وكل ما وجدناه نسخٌ متأخرة من مصحف عثمان ترجع إلى القرن الهجري الثاني مثل مصحف المشهد الحسيني بالقاهرة ومصحف قصر توب كابي في استانبول. وحتى هذه المصاحف لم تكن متاحة لعامة المسلمين، ولعل نظرة واحدة على مصحف المشهد الحسيني كافية لإقناعنا بذلك. فالمصحف مخطوط على رق جلد الغزال في نحو 1000 صفحة قياسها 57×68سم، وتبلغ سماكته 40سم، أما وزنه فيبلغ 80كغ، وباختصار لم يكن مُعداً للقراءة مثله في ذلك مثل مصحف عثمان. أما متى بدأ المسلمون يقرؤون المصحف، فقد كان عليهم الانتظار إلى العصر العباسي الأول بعد بناء بغداد، وتوفر الورق، وشيوع مهنة الوراقين الذين تخصصوا في نسخ الكتب لمن يشاء من زبائنهم. كل هذا يعني أن القرآن لم يتحول إلى مصحف بالمعنى الفعلي، إلا بعد مرور أكثر من قرن على وفاة محمد بن عبد الله. وخلال هذه المدة الطويلة كان خطاباً شفوياً.

2- بين الوحي الأول في سورة النجم والوحي الأخير أثناء حجة الوداع، انقضت نحو 23 سنة كان الخطاب القرآني يتغير بالإضافة وربما بالحذف، ولا أعني بالحذف هنا الناسخ والمنسوخ لأنه لا ناسخ ومنسوخ في القرآن، والحذف إن وجد لا يعلم به سوى محمد وربه، لأن القرآن لم يكن قد تحول إلى مصحف.

3- القرآن حافل بالمواضيع، ففيه شرائع وعقائد وأخلاق، كما أنه حافل بقصص الأولين ومللهم وأخبارهم.

4- يتوجه الخطاب القرآني إلى عدة جماعات حاضرة ومشخصة فهنالك المؤمنون، واليهود، والنصارى، والمشركون، والمنافقون، وأهل الكتاب إذا اجتمع اليهود والنصارى.

ومع تعدد المخاطبين تتعدد الأصوات في الخطاب. ففي سورة الفاتحة لدينا صوت المؤمنين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝﴾... ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ آل عمران: 193. وغالباً ما يظهر صوت المؤمنين مسبوقاً بالسؤال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ البقرة: 189. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى...﴾ البقرة: 222. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ البقرة: 215. وفي معظم الأحيان نجد صوت اليهود مسبوقاً بفعل «قالوا»: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ النساء: 46. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ القصص: 36. وكذلك حال المشركين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ الأنفال: 31. والمنافقين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝﴾ الأحزاب: 23.

5- هذه الأصوات غالباً ما يجري استدعاؤها من أجل الدخول في سجال معها:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ آل عمران: 65-67.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الإسراء: 49-50.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝﴾ يس: 77-79.

6- إن صيغة «قالوا»: وجوابها «قلنا» الواردة في تساؤلات المشركين أعلاه، وفي مواضع عديدة أخرى، يدل على الفعالية التواصلية للخطاب القرآني وبنيته التحاورية، فهم يتلقون الخطاب وينكرون ما ورد فيه ليأتيهم الرد والتعليل.

7- إضافة إلى هذه الجماعات الحاضرة والمشخصة بتوجه الخطاب القرآني إلى الناس كافة بصيغة (يا أيها الناس) أو (يا بني آدم): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات: 13[1].

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأعراف: 35.

8- التكرار خصيصة أساسية في الخطاب القرآني، وقد قيل قديماً إن الكلام إذا تكرر تقرر، يضاف إلى ذلك طول الفترة التي تشكل خلالها الخطاب وتعدد المخاطبين. الأمر الذي يستدعي أحياناً إعادة ما قيل سابقاً، ولكن بفائدة جديدة وحجية وبيان. وهو على أنواع، فقد ترد الآية المكررة بنصها دون تغيير أو بزيادة أو نقصان أو بمعناها ومن مبناها.

وقد يحصل التكرار في الآية الواحدة؛ فقد تكرر كلمة الصلاة ثلاث مرات في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ النساء: 103. وقد يأتي التكرار في السورة الواحدة مثال ذلك آية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ التي تكررت في سورة الشعراء 8 مرات. وآية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ التي تكررت 10 مرات في سورة المرسلات. وآية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ التي تكررت في سورة الرحمن 31 مرة.

وقد يحصل في السور، فقد تكررت آية ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ 6 مرات في القرآن، وذلك في سورة يونس: 48، والأنبياء: 38، والنمل: 71، وسبأ: 29، ويس: 48، والملك: 27. وتكررت آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في سورة التوبة: 73 وسورة التحريم: 9.

---

(1) الذكر والأنثى هنا هما آدم وحواء. والمقصود أن شعوب الأرض كلهم إخوة من أب واحد وأم واحدة. آية تصلح لأن تكون شعاراً للأمم المتحدة.

وقد يحصل مع تغيير وتبديل في المفردات مع الحفاظ على المعنى، على ما نجد في الآيات التالية:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: 4.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة: 219.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: 97.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ الأنعام: 65.

وهنالك تكرار في المعنى دون المبنى نجده في آيات وصف نعيم الجنة وعذاب النار، كما نجده في القصص. فالقصص القرآني ونموذجها قصص موسى وقصة قوم لوط، تروى بعناصرها الرئيسية في أكثر من سورة، ثم تروى كاملة بتفاصيلها في إحدى السور. ولنأخذ على سبيل المثال قصة قيام بني إسرائيل بالتعبد لصورة عجل صنعوه عندما غاب عنهم موسى في الجبل أربعين ليلة. فهذه القصة ترد باختصار في المواضع التالية:

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ البقرة: 51-52.

﴿۞ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝﴾ البقرة: 93.

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ النساء: 153.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ۝﴾ الأعراف: 152.

بعد ذلك تأتي القصة الكاملة في سورة طه: 85-97 حيث تظهر شخصية غامضة تدعى السامري، الذي صنع لهم العجل ليضلهم به: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ طه: 88. وقد عزف بعض المفسرين عن

الخوض في مسألة السامري، وقال آخرون إنه من أهل كرمان يعبدون البقر، أو إنه كان من عظماء إسرائيل من قبيلة في الشام يقال لها السامرة. ولعل السبب في حيرة المفسرين هو أن هذه الشخصية لم ترد في سياق قصص موسى في التوراة، ولكن البحث عنها يقودنا إلى كتاب العهد الجديد، حيث نجدها في سفر أعمال الرسل. ففي ذلك السفر الذي يتحدث عن أعمال رُسل يسوع المسيح بعد صلبه وقيامته، هنالك شخص من السامرة يدعى سمعان الساحر نقرأ عنه في الإصحاح 8 ما يلي: «وكان في المدينة رجل يفتري السحر ويفتن أهل السامرة زاعماً أنه رجل عظيم وكانوا يلزمونه من كبيرهم إلى صغيرهم لأنه كان يفتنهم بأساليب سحره. فلما آمنوا بكلام الرسول فيليبوس الذي بشرهم بملكوت الله واسم يسوع تعمدوا رجالاً ونساء» الأعمال 8: 9-12. وفي أحد الأناجيل غير القانونية الذي يقص عن أعمال الرسول بطرس، نجد سمعان وبطرس في روما وكل منهما يُظهر الآيات والمعجزات لإثبات صحة رسالته. وهذا يعني أن شخصية السامري قد ظهرت في القرآن في مكان مختلف وزمان مختلف، كما هو حال شخصية هامان في قصص موسى. فهامان القرآني يظهر في قصص موسى على أنه وزير لفرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ القصص: 38.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ القصص: 5-6.

راجع أيضاً: غافر 4، و36، والعنكبوت: 39. أما في التوراة فيظهر هامان في سفر استير على أنه وزير للملك الفارسي أحشويرش الذي حكم في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد (راجع سفر استير، الإصحاح الثالث). وهذا يعني أن هامان القرآني كان مصرياً وعاش قبل هامان الإيراني بنحو 700 سنة.

2- من القرآن إلى المصحف

إن بقاء الخطاب القرآني متداولاً شفوياً خلال حياة الرسول، وإلى فترة طويلة امتدت قرناً بعد وفاته، ليس حالة منعزلة في تاريخ الثقافة والدين، بل إنه حالة عامة نجدها في الثقافات الكبرى عبر التاريخ، فأسفار الفيدا وهي السجل الفكري والتاريخي والحضاري للآريين الذي هاجروا إلى الهند في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد لم تدون بلغتهم السنسكريتية إلا في القرن الثامن قبل الميلاد، عندما جاء تجار هنود من آسيا الغربية بأبجدية سامية اشتُقت منها حروف الهجاء السنسكريتية. وأسفار الديانة الزرادشتية مثل أناشيد الغاتا والأفيستا، لم تدون إلا بعد عدة قرون من عصر زرادشت. والملاحم اليونانية مثل الأوديسة والإلياذة، وكتاب هزيود في أصل الآلهة، أو الثيوغونيا، التي تحتوي على مقدسات الشعب اليوناني، بقيت على حالتها الشفوية مدة تزيد على الثلاثة قرون قبل أن تدون في القرن السادس قبل الميلاد، وكانت محفوظة في ذاكرة الشعراء الجوالين، مثلما كان القرآن محفوظاً في ذاكرة القراء، الذين تقول الأخبار إن 150 قارئاً منهم قد قتلوا في حروب الردة التي شنها الخليفة أبو بكر بعد وفاة النبي، الأمر الذي جعل أبا بكر يوافق عمر بن الخطاب على جمع القرآن في مدونة، وحسم الصراع بين القائلين بضرورة بقاء الوحي في الذاكرة والقائلين بتدوينه.

يسود الاضطراب أخبار عملية جمع القرآن التي أنتجت المصحف، والتي نجدها في المصادر الرئيسية التالية؛ وهي متوفرة بطبعات حديثة:

- أبو بكر بن أبي داود السجستاني (ت عام 316هـ)، كتاب المصاحف.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت عام 483هـ)، الفهرست.
- بدر الدين الزركشي (ت عام 794هـ)، البرهان في علوم القرآن.

- جلال الدين السيوطي (ت عام 911هـ)، الاتقان في علوم القرآن.
- وهناك مادة متوفرة أيضاً في مصنفات الحديث.

فقد قيل إن الجمع تم في حياة الرسول بأمر منه بعد أن كان موزعاً في رق وحرير وصحف وما شابهها من مواد، وقام بذلك خمسة من الأنصار في المدينة. وقيل إن أول من جمع القرآن علي بن أبي طالب، الذي اعتكف في بيته ثلاثة أيام بعد وفاة الرسول حتى أتم المهمة، وكان مرتباً حسب النزول. وقيل إن الجمع تم في ولاية عمر بعد أن سأل عن آية في كتاب الله، فقيل له كانت فلان الذي قتل يوم اليمامة أثناء حروب الردة، فقال: إنا لله، ثم أمر بجمع القرآن وكان أول من جمعه في مصحف. وقيل إن الجمع تم في ولاية أبي بكر بتحريض من عمر، جمعه زيد بن ثابت الأنصاري. فقد ورد في صحيح البخاري عن زيد قوله:

«أرسل إلى أبو بكر الصديق يوم مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر جالس عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استحر القتل بالمواطن الأخرى، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت فيه ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: «قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وكنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف[1] وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ التوبة: 128 حتى آخر

(1) العُسب هي جريد النخل. وهو قضبانها الطويلة المجردة من أوراقها، واللخاف هي الحجارة البيض الرقاق.

السورة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر طيلة حياته، ثم عند حفصة بنت عمر» راجع البخاري الحديث رقم 4986، والترمذي 3103.

هاتان الروايتان المتناقضتان عن الجمع في ولاية أبي بكر أو ولاية عمر، تنفيان رواية الجمع في حياة الرسول، كما تقدمان لنا معلومة عن جمع المادة من مصدرين هما ما دُوّن على العسب واللخاف وغيرها من المواد، وما هو محفوظ في صدور القراء، دون أن نعرف نسبة هذه إلى تلك، فربما كان قليلها مدوناً وكثيرها محفوظاً في ذاكرة القراء، لأن عمر كان متخوفاً من حصول مقتلةٍ كاليمامة في أماكن أخرى فيذهب كثير من القرآن. وهنا لا بد للمرء من أن يتعجب كيف تتسع العُسب واللخاف لسورة طويلة واحدة كالبقرة تتألف من 286 آية. وإني لأرجح اعتماداً على المنطق نفسه أن شيئاً لم يكن مدوناً في حياة الرسول الذي كان يعرف فضل الخطاب على النص، ولعل كل ما قيل في موضوع اتخاذ الرسول لكُتاب وحي، هو من قبيل الدفاع عن مشروعية المصحف الذي أنتجه عثمان في عملية الجمع الوحيدة الموثقة لنا وفق المنطق التاريخي، وهذا ما تؤيده بعض الأخبار. فقد قال الشعبي صاحب كتاب «معرفة القراء الكبار» إنه لم يجمع القرآن أحد من الخلفاء الأربعة إلا عثمان.

فقد قام عثمان فقال: من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به. ثم شكل لجنة تحت إشراف زيد بن ثابت ضمت: سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن حارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير، وأمرهم بإعداد المصحف وقال لهم: ما اختلفتم فيه فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. وبناءً على تعليماته لم تكن اللجنة تقبل من القرآن شيئاً حتى يشهد عليه شاهدان، أي من جاء به ومعه شاهد آخر على صدقه. كما أرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر يطلب منها أن ترسل إليه المصحف الذي آل إليها من أبيها لمقارنته مع ما يرد إلى اللجنة، ففعلت ثم استعادته بعد الانتهاء.

بعد فراغ اللجنة من عملها أمر عثمان بإنتاج عدة نسخ من المصحف الإمام أرسلها إلى الأمصار، تختلف المصادر في عددها وفي الأمصار التي أرسلت

إليها، وترك نسختين في المدينة وأمر بإحراق بقية المصاحف التي يحتفظ بها الصحابة. وأكثر ما نعرفه منها مصاحف عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وأبي بن كعب. وقد نجا مصحف حفصة من المحرقة ولكن إلى حين. فعندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان وعين مروان بن الحكم والياً على المدينة. راح مروان يرسل إلى حفصة طالباً تسليمه المصحف فتأبى إلى أن توفيت، فأرسل من جاءه بتلك الصحف فشققت. ويبدو أن ذلك المصحف الإمام ونسخه قد ضاعت إلى الأبد، لأن أقدم المصاحف التي وصلت إلينا هي من الجيل الثاني والثالث من المصحف الإمام.

ويبدو أن ما فعله عثمان بمصاحف الصحابة كان من أهم الأسباب التي أدت إلى مقتله على يد المتمردين الذين جاؤوا من مصر والعراق، وإلى عدم دفنه في مقبرة المسلمين. وعندما آل المُلك إلى بني أمية جرى توسيع المقبرة حتى اشتملت على قبر عثمان.

على الرغم من فقداننا لنصوص مصاحف الصحابة، إلا أنها بقيت حية في ذاكرة القراء الذين بقوا يتداولونها، لاسيما مصحف عبد الله ابن مسعود الذي حفظت لنا المصادر العديد من الفروق الطفيفة بينه وبين المصحف الإمام، نسوق فيما يلي أمثلة عليها.

المصحف الإمام	مصحف ابن مسعود
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ النساء: 40	﴿إن الله لا يظلم مقدار نملة﴾
- ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ المائدة: 64.	﴿بل يداه بسطان﴾
- ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ...﴾ البقرة: 197	﴿وتزودوا وخير الزاد التقوى﴾
- ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾ البقرة: 61	﴿من بقلها وقثائها وثومها﴾

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ...﴾ البقرة: 198	﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج...﴾.
﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ العصر: 1-2	﴿والعصر إن الإنسان لفي حشر، وإنه فيه إلى آخر الدهر...﴾
﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ البقرة: 202	﴿أولئك لهم نصيب بما كسبوا﴾
- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ البقرة: 148.	﴿ولكل جعلنا قبلة يرضونها﴾
- ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ البقرة: 196.	﴿وأتموا الحج والعمرة للبيت﴾
- ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ الإسراء: 110	﴿ولا تخافت بصوتك ولا تُعال به﴾
- ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾البقرة: 48	﴿ولا يؤخذ منها شفاعة﴾
- ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البقرة: 177	﴿لا تحسبن أن السبر أن تولوا وجوهكم...﴾
- ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ②﴾ آل عمران: 2	﴿الله لا إله إلا هو الحي القيام﴾

من المفترض بعد ذلك أن مصحف عثمان قد حقق الاستقراء للنص القرآني في أواخر العقد الثالث للهجرة، ولكنه في حقيقة الأمر لم يفعل ذلك، لأن ما وصلنا من الجيل الثاني من المصاحف، مثل طرس صنعاء[1] تبدي اختلافات مع المصحف الذي بين أيدينا والمفترض أنه ينتمي إلى المصحف الإمام.

(1) الطرس، هو النص الذي مُحي ثم كتب في مكانه.

عُثِر على طرس صنعاء في جامع صنعاء الكبير عام 1972 بين عدد آخر من المخطوطات، وهو يحتوي على أجزاء من النص القرآني مدونة على الرق، وقد تبين بعد فحصه بالأشعة السينية أنه دُوِن فوق نص آخر قد تم محوه والكتابة فوقه، وقد أرجع الخبراء تاريخه إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجري. وعند قراءة النص السفلي بواسطة الأشعة، أظهر عدداً من الاختلافات مع النص المعياري الذي بين أيدينا، والذي من المفترض أنه من سلالة المصحف الإمام، وهذه نماذج منها[1]:

طرس صنعاء	النص المعياري
- ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم﴾ آل عمران: 22	﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾
- ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المفلحين...﴾ التوبة: 18	﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾
- ﴿هم فيها خالدين﴾ التوبة: 22.	﴿خالدين فيها أبدا﴾.
- ﴿ومن وليهم فأوليك هم الظالمون﴾ التوبة: 23.	﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾
- ﴿يقسمون بالله ما قالوا﴾ التوبة: 74	﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾

فإذا جئنا إلى الجيل الثالث، ونموذجها المصاحف الثلاث التي اعتبرت من مصاحف الأمصار، ولكن البحث الحديث يرجعها إلى القرن الثاني الهجري وهي مصحف طاشقند وقصر توب كابي والمشهد الحسيني، تواجهنا اختلافات من النوع نفسه مع النص المعياري، وهذه نماذج من مصحف المشهد الحسيني[2]:

---

(1) محمد المسيح: مخطوطات القرآن، دار Water Life، كندا 2017.

(2) المرجع السابق.

النص المعياري	المشهد الحسيني
﴿وكفى بجهنم سعيرا﴾	- ﴿كفى بجهنم سعيراً﴾ النساء: 55
﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾	- ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ النساء: 56
﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات﴾	- ﴿والذين أمنوا وعملوا الصالحات ندخلهم جنات﴾
﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مؤمنين﴾	- ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ يونس: 84.
﴿... فإذا أنزلنا عليها الماء﴾	- ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت﴾ فصلت: 39
﴿وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه﴾	- ﴿وأما الإنسان إذا ابتلاه ربه﴾ الفجر: 15

ونحن إذا تمعنا في هذه النماذج من اختلاف المصاحف، لوجدنا أنها مجرد اختلاف في القراءات لا في المعاني.

3- سور أم شذرات

يسود الآن لدى عموم المسلمين اعتقادان في مسألة كيفية ترتيب الوحي الذي تلقاه النبي في وحدات تجمع المتفرق، الأول شعبوي ساذج يرى أن القول القرآني تنزل سورة تلو سورة وفق ما نجده في مصحف عثمان، والثاني نخبوي يرى اعتماداً على بعض الأحاديث، أن النبي كان يوجه كُتاب الوحي إلى المكان الذي ينبغي أن توضع فيه آيات الوحي الجديد ضمن سورة وُضع لها الاسم واستُهلت بالبسملة، ثم جاءت لجنة الجمع بعد ذلك وتبنت هذا الترتيب. ولكننا نجد في أخبار الجمع، ما يدل على أن تشكيل السور كان كيفياً وخاضعاً لوجهة نظر أعضاء اللجنة. فقد أورد السجستاني في كتاب المصاحف على لسان زيد بن حارثة في عملية الجمع الأولى التي أشرف عليها عمر بنفسه الخبر التالي:

أتى الحارث بن خزيمة إلى عمر بهاتين الآيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. فقال له عمر: ومن معك في هذا (من الشهود)؟ قال: لا أدري، إلا أنني سمعتها من رسول الله ورعيتها وحفظتها. قال عمر: وأنا أشهد أنني سمعتها منه، لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة واحدة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوهما، فألحقتها في آخر سورة براءة (=التوبة)[1].

وكمثال آخر يمكن إيراده بهذا الخصوص، أن المفسر نظام الدين النيسابوري قال في تفسيره لسورة الفيل وسورة قريش أنهما كانا نصاً واحداً، وأن الصحابيين أُبي بن كعب وعمر بن الخطاب كانا يقرآنهما في الصلاة سورة واحدة[2].

(1) راجع تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري.

(2) المصدر نفسه.

وأيده في ذلك ابن كثير في تفسيره لسورة قريش فقال: «هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام كتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت متعلقة بما قبلها كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم». أي أن ابن كثير يرى أن لجنة الجمع هي التي فصلت بين الفيل وقريش بالبسملة وجعلتهما سورتين.

كما يبدو أن اللجنة لم تعط رأياً قاطعاً في سورة التوبة وعلاقتها بسورة الأنفال، وما إذا كانتا سورة واحدة أو اثنتين، ولذلك اكتفت بحذف البسملة، وما عدا ذلك من الأسباب التي يوردها بعض المفسرين عن حذف البسملة لا يعول عليه.

وما أريد أن أخلص إليه من إيراد أمثال هذه الأخبار، هو أنه فيما عدا القصص القرآني الذي نزلت وحداته في سردية مطردة وقرئت كذلك، فإن كل ما عداه قد نزل في شذرات تحتوي كل شذرة منها على آية واحدة أو عدة آيات مترابطات كان النبي يُبلغها للمؤمنين عند نزولها، ثم يجمع الشذرات في وحدات تُقرأ في الصلاة، ويتداولها المؤمنون أو يُطلعون الأغيار عليها من أجل استمالتهم. فالشذرة تحتوي على طاقة إيحائية عاصفة، وتقدم الفكرة بطريقة تستنهض المخيلة وتجعل المتلقي في حضرة القدسي:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ سورة التكاثر.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧﴾ سورة التين.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ⑳﴾ آية الكرسي.

فالسورة أسلوب في جمع القرآن من ابتكار زيد بن ثابت في عملية الجمع الأولى، ثم سارت عليه اللجنة في عملية الجمع الثانية، من أجل جمع المتشذر وضمه إلى بعض في وحدات طويلة. ولكن لا هو ولا لجنته كان لديهم معايير محددة أو رؤية واضحة لجمع المتفرق في واحد. وكان أن تحول الخطاب القرآني الحيوي إلى نص جامد تداخل فيه القديم والجديد والمكي بالمدني، وتراصت الشذرات إلى جانب بعضها دون أن نعرف سبب وضع هذه الشذرة أو تلك في هذا الموضع دون ذاك، ولماذا تأتي آية مكية في سياق مدني، أو آية مدنية في سياق مكي.

إن من تعود قراءة المصحف يعرف تماماً عن أي شيء أتحدث، ولكن من قرأه مرة واحدة بشكل متصل، ربما كان بحاجة إلى مثال توضيحي من النوع الذي أسوقه فيما يلي. نقرأ في سورة البقرة:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾154.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ...﴾ 155-157.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ...﴾ 158.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ...﴾ 159-160.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ...﴾ 161-162.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ 163.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ 164.

وكما نلاحظ، فإن هذه الشذرات التي جُمعت في سردية واحدة، لا تنتمي إلى موضوع واحد ولا تخدم فكرة بعينها.

بعد الانتهاء من إنتاج السور، كان لا بد من إيجاد طريقة لضم بعضها إلى بعض، فاختارت اللجنة أسوأها وأبعدها عن المنطق، وهي جمع الطوال مع الطوال والقصار مع القصار، فوضعت الفاتحة وهي مكية في بداية المصحف، ثم تتالت السور بعدها حسب طولها، بصرف النظر عن أسبقية النزول وكون السورة مكية أم مدنية. وبذلك فقد ضاعت معالم المعنى، وصارت الرحلة في النص القرآني أشبه برحلة في صحراء مترامية تفتقد إلى علامات تهدي المسافر.

هذه الملاحظات التي أسوقها على المصحف العثماني، لا أقصد منها إلى الانتقاص من قيمته، لأن المسلمين لم يطلعوا على القرآن طيلة تاريخهم إلا من خلاله، الأمر الذي أكسبه ما للقرآن من قدسية لديهم. ولكنني أدعو إلى إعادة إحياء فكرة الجمع وفق ترتيب النزول، وإعداد مصنف في ذلك يكون رديفاً للمصحف العثماني لا بديلاً عنه. ولتبيان أبعاد هذا المشروع علينا أن نتحول إلى الاستشراق الأوروبي الذي كان علماؤه أول من عمل عليه، فنعرض ما قدموه في تورخة القرآن ونعلق عليه.

لعل أهم ما جاء به الاستشراق الأوروبي في دراسة القرآن هو تورخته، أي ترتيب سوره حسب النزول، ومن خلال منظور يعيد الحياة إلى النص. وقد كان السبّاق إلى ذلك الألماني ثيودور نولدكه (1836-1930) في كتابه تاريخ القرآن[1]، تلاه الفرنسي ريجيس بلاشير (1900-1973) في كتابه «القرآن، نزوله وتدوينه»[2]. وقد أنفق هذان الباحثان حياتهما الفكرية في دراسة القرآن ترجمة وتفسيراً.

قسم نولدكه سور الفترة المكية إلى ثلاث مراحل هي: 1- المكية الأولى. 2- المكية الثانية. 3- المكية الثالثة، ومجموعها تسعون سورة تشكل ما يقارب ثلثي القرآن: أما الثلث الباقي فيشتمل على السور المدنية وعددها

---

(1) ثيودور نولدكه: تاريخ القرآن، ترجمة رضا سعيد، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1974.

(2) ريجيس بلاشير: القرآن، نزوله وتدوينه، ترجمة رضا محمد الدقيقي، وزارة الأوقاف، الدوحة 2011.

اثنان وعشرون، تبدأ بالبقرة وتنتهي وفق ترتيبه بالمائدة. وبما أن المجال الذي خصصته لهذا الموضوع لا يتسع لمناقشة تورخة نولدكه بكاملها، فإنني سوف أكتفي بعرض ومناقشة السور العشر الأولى من ترتيبه للنزول والخمس الأخيرة، علماً بأن بلاشير قد اتبع هذا الترتيب مع تعديلات طفيفة.

العشر الأولى	الخمس الأخيرة
العلق	الإخلاص
المدثر	الكافرون
المسد	الفلق
قريش	الناس
الكوثر	الفاتحة
الهمزة	
الماعون	
الفيل	
الليل	
البلد	

يبدو بوضوح لدارسي ترتيب نولدكه الذي اعتمد عليه بلاشير، مدى تأثره بالسيرة النبوية، ومن دون كبير عناية في النظر إلى مضمون السورة، وما يحمله من إفصاح تدريجي عن رسالة القرآن، في زمن لم تكن فيه السيرة ولا الحديث موضع شك كما هو الحال الآن. كما أن نولدكه افترض أن السور موجودة منذ أيام محمد، وما عليه سوى إعادة ترتيبها، بينما كانت السور من إعداد لجنة زيد بن ثابت على ما بيّنا، عندما ضمت الشذرات إلى بعضها في مجموعات أعطي لكل منها اسم.

إن أي ترتيب زمني للقرآن يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ما تتضمنه الشذرة أو السورة من أوليات الرسالة المحمدية، وعلى رأسها الثلاث التالية: 1- وحدانية الإله. 2- اسم الإله الواحد. 3- الإله الواحد هو خالق السماء والأرض ما نعلم وما لا نعلم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: 8. لهذا من غير الممكن أن تكون سورة العلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ في ترتيب نولدكه وفي السيرة هي أول ما نزل من القرآن، لأن النبي هنا يؤمر بأن يبشر وينادي باسم رب لا يعرفه، في زمن كانت السماء والأرض حافلة بالآلهة ولاسيما في جزيرة العرب (ود، سواع، يغوث، هبل، ذو الشرى، شيِّع القوم...إلخ)، وأي واحد من هؤلاء مرشح لأن يكون المعني بهذا الوحي الأولي. كما أن هذا الإله المتكلم لا يدعي الوحدانية ولا ينسب إلى نفسه خلق العالم.

ولكي أوضح مدى أهمية إفصاح الإله عن اسمه في الوحي الأول أسوق مثالين؛ الأول من التوراة والثاني من سورة طه.

فخلال إقامة موسى في صحراء مدين، وفق الرواية التوراتية، حيث استضافه كاهن مدين وزوجه إحدى بناته، خرج ليرعى غنم حميه فساقها حتى جاء إلى جبل حوريب، حيث رأى عليقة (=شجرة من نبات العوسج الشوكي) تتوهج بالنار دون أن تحترق، فمال ليرى هذا المنظر العظيم ولما اقترب ناداه الله (=إيلوهيم باللفظ التوراتي) من وسط العليقة وقال: لا تقترب إلى ههنا، اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قال: أنا إله آبائك إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم، فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون لتخرج شعبي إسرائيل من مصر فتعبدون الرب على هذا الجبل. فقال موسى: ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد (الخروج: 3).

وفي الرواية القرآنية للقصة نفسها، يعلن الله عن وحدانيته وعن اسمه في وحيه الأول لموسى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝﴾ طه: 9-14.

وفي سورة القصص التي تورد صيغة أكثر اختصاراً للقصة، يصف الموحي نفسه بأنه صانع الكون وربه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ القصص: 30.

وكما أخذت سورة العلق مكانها كأول سورة في النزول لدى نولدكه اعتماداً على خبر الوحي الأول، الذي نزل في غار حراء كما روته السيرة، كذلك حال سورة المدثر التي جاءت الثانية في ترتيبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝﴾ المدثر: 1-10. فنحن نجد في السيرة خبر هذا الوحي الأول مروياً على لسان الرسول: «بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملاك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت منه وجئت أهلي فقلت دثروني فدثروني، فأنزل الله علي يا أيها المدثر...»[1].

ومرة أخرى لا نجد في هذه السورة أثراً لاسم الموحي، ولا لكونه واحداً لا إله غيره، أو خالقاً للعالم. والوحي هنا عن نهاية العام وثواب الله وعقابه، قبل أن نعرف منه عمن أوجد العالم: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝...﴾ لذلك ما من سبب يدعونا إلى إعطاء هذه السورة المرتبة الثانية في ترتيب النزول. وما قلناه عن هاتين السورتين ينطبق على بقية العشر الأوائل.

(1) راجع تفسير الطبري من أجل الصيغ المتنوعة لرواية هذا الحديث.

وفي الحقيقة فإننا ينبغي أن ننتظر سورة البروج في ترتيب نولدكه وبلاشير ورقمها 22 حتى نعرف أن الله هو خالق السماوات والأرض، وذلك في سياق خبر أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ البروج: 8-9. وأن ننتظر سورة المزمل رقمها في ذلك الترتيب 23، حتى نعرف أنه «لا إله إلا الله»: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝﴾ المزمل: 8-9، هذا التأخر في ترتيب السور التي أعلنت أحدية الله يوصل بلاشير، الذي لم يخامره شك في صحة ترتيبه، إلى أكثر النتائج ضلالاً في تورخة القرآن، وهي أن محمد لم يتوصل إلى فكرة التوحيد إلا تدريجياً وفي سياق دعوته لا في بدايتها.

وبما أنني لست بعنياً هنا باستبدال ترتيب نولدكه وبلاشير بترتيب آخر، قدر عنايتي بعرض منهج يستند إلى فهم أعمق لعقل محمد ولمشروعه فإنني أكتفي بالقول إن السورة الأولى في ترتيب النزول هي سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تليها في العشر الأوائل السور التي تنسج على منوالها في التركيز على الاسم، والوحدانية، والخلق ومنها على سبيل المثال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝﴾ الكهف: 109. والكلمات هنا ليست منطوقات الرب بل مخلوقاته. وهذا ما صرنا نعرفه اليوم بعد اطلاعنا على مدى سعة الكون، واحتمال وجود أكوان أخرى موازية.

وكما هو متوقع، فقد تأثر هذا الترتيب للقرآن بعلم أسباب النزول الذي ظهر كرديف لعلم التفسير، لأن أهله رأوا أنه لا يمكن تفسير آية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، وسبب النزول يورث العلم بالمسبب وهو طريق قوي في فهم معاني القرآن. وهذا ما دعى نولدكه إلى وضع سورة المسد «تبت يد أبي لهب وتب...» في المرتبة الثالثة بين العشر الأوائل، وذلك اعتماداً على سبب نزولها وهو القصة المعروفة في السيرة، عندما قرر محمد إعلان دعوته بعد أن كانت سرية، فدعا أقطاب قريش إلى اجتماع على مرتفع الصفا وخطب فيهم

فأعلن أنه رسول الله ودعاهم إلى الإيمان برسالته. وعندما انتهى قال له عمه عبد العزى بن عبد المطلب المعروف بلقب أبي عتبة: تباً لك ألهذا جمعتنا، فنزلت سورة المسد فيه، وصار يدعى في السيرة أبو لهب.

ولكن أسباب النزول علم ظني لا قطعي، وما يورده أهل هذا العلم من أسباب في الآية الواحدة يحتوي على تناقض فيما بينهم، فيورد كل منهم سبباً مغايراً للآخر وبطريقة لا يمكن التوفيق بينها. ولعل عيبها الأبرز هو تحويل فكر المتلقي من المعنى العام الذي قصده الوحي إلى المعنى الخاص الذي يدل عليه السبب.

وقد دخلت الخرافة بقوة في هذا العلم مثلما دخلت على الحديث والسيرة، وكان للقصاصين دور أيضاً في أسلوب روايتها، لاسيما في مراحل تداولها الشفوي، لأنهم كانوا مهتمين في جذب انتباه العامة أكثر من اهتمامهم بنقل الواقعة، وبخلق المناسبة أكثر من التعامل معها كحدث تاريخي. وعندما جرى تدوين المناسبات من شتات حكايا هؤلاء استعاد المدونون المنهجية التي سبقهم إليها أهل الحديث الذين ركزوا على الدّال أكثر من المدلول، أي على سند الحديث أكثر من موضوعه. ففي بداية طرحهم لكل سبب نقرأ مثل هذه الديباجة: «حدثني الحارث قال: حدثنا عبد العزيز قال: حدثنا عبد الوارث عن ابن سعيد عن ابن نجيح عن مجاهد: يسألونك عن الأنفال، قال: ....». كما دخلت الانتماءات الفقهية والمذهبية والسياسية على خط الأسباب فحرمتها القليل الذي تبقى من مصداقيتها.

أعود إلى سورة المسد من أجل التساؤل عن تفصيل صغير في قصتها يطرح مشكلة كبيرة. فالسورة أخذت الترتيب الثالث في تورخة أصحابنا، والسيرة تقول إن إعلان الدعوة والاجتماع الذي دعا إليه محمد على الصفا حصل بعد ثلاث سنوات من البعثة، فهل بقي محمد يدعو إلى دينه هذه السنوات الثلاث وليس لديه من القرآن غير السورتين الأولى والثانية، أي العلق والمدثر، وعدد

كلماتهما لا يتجاوز الثلاثمئة كلمة لا تكفي لأن تكون ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: 2، أو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ البقرة: 185، أو ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ الأعراف: 52. أم أن محمداً كان يروي الأحاديث لكي يرضي الشافعي (رضي الله عنه) الذي قال إن الحديث وحي ثانٍ، وبالتالي يمكن تلاوته بدلاً عن القرآن إذا لزم الأمر.

4- اللغة القرآنية

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ إبراهيم: 4. لذلك فقد نزل القرآن بلغة العرب: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يوسف: 2. وقد تكرر هذا الوصف للقرآن في سورة طه: 113، والزمر: 28، وفصلت: 3، والشورى: 7، والزخرف: 3. أما في سورة الأحقاف: 13 فهو لسان عربي. وفي سورة الرعد: 37 حكم عربي.

ولكن لغة القرآن ليست فقط «عربية»، بل هي «اللغة العربية» لأن القرآن هو النص الأدبي الوحيد الذي وصلنا مدوناً من لغة العرب قبل انقضاء ثلاثة عقود على وفاة النبي، من قِبل من سمعه من فمه، أو أتى بشاهدين سمعاه. أما الأدب الشفوي الذي دوّن في القرن الثاني للهجرة، ونموذجه أقوال الحكماء وخطبهم، والشعر الجاهلي، فلدينا من الأسباب القوية ما يدعونا إلى الشك في أصالته وانتمائه إلى عصره.

ففيما يتعلق بأقوال الحكماء ونموذجها أقوال وخطب قس بن ساعدة (توفي عام 23، قبل الهجرة) والتي رأى فيها بعضهم شبهاً بالأسلوب القرآني لاسيما في خطبته الشهيرة، فإن الرأي الأقرب إلى الصواب هو أن راوي هذه الخطبة في عصر التدوين هو الذي تأثر بالأسلوب القرآني وليس العكس، لاسيما وأن قس يعبر فيها عن إيمانه بالله الواحد وبالبعث وغير ذلك من المفاهيم القرآنية.

أما ما يدعى بالشعر الجاهلي الذي لم يصلنا بيت واحد منه مدون على حجر أو شجر أو رق، فقد نقله إلينا رواة عاصروا أواخر العصر الأموي ومطلع العصر العباسي، وأشهرهم حماد الراوية وخلف الأحمر، اللذان اتُّهما من قِبل معاصريهما بانتحال الشعر والتكسب به. وهما من أصل غير عربي فالأول فارسي

والثاني أوزبكستاني. وقد تواترت الأخبار عن سوء سيرتهما الأخلاقية، فقد كانا سِكيرين عربيدين يعاشران الخلعاء من الناس، ويجترئان دونما وازع على تلفيق الأشعار. إن أقوى دليل على أن ما وصلنا من الشعر الجاهلي منحول، هو أنه وصلنا بلهجة واحدة من لهجات العرب المتعددة التي فصّلت فيها المصادر العربية القديمة وبينت الفروق الواسعة بينها، ولعل ما فعله الرواة هو أنهم أعادوا صياغة ما وصلهم من شعر القبائل بلهجة واحدة هي لهجة العربية الكلاسيكية التي كانت آخذة بالتشكل في سياق القرن الثاني الهجري. وعندما أقول «عربية كلاسيكية» لا أعني لغة القرآن، وهذه مسألة سأعود إليها عند حديثي عن مشكلات اللغة القرآنية. كما أظهر رواة الشعر الجاهلي تأثراً بالإسلام من خلال تقديمهم لأفكار لا تخفى صلتها بتعاليم القرآن، أكتفي منها بما ورد في معلقة زهير بن أبي سلمى:

ولا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يُعجل فيُنقم

وقد وفّى طه حسين هذا الموضوع حقه من البحث في كتابه «في الأدب الجاهلي» ولم يترك لأحد ما يزيد عليه.

وهكذا يقف النص القرآني وحيداً كشاهد على لغة حققت درجة الكمال والتمام في كل ما هو مطلوب من اللغة، دون مرحلة سابقة عليها وممهدة لها، فكل ما وصلنا قبله عبارة عن نقوش قصيرة على الحجر، لا يزيد أطولها عن الأربعين كلمة وتدور موضوعاتها حول مسائل الحياة العملية، مثل البحث عن المرعى، أو التعبير عن شوق المسافر إلى الأهل، أو الابتهال للآلهة من أجل السلامة، أو ذكر فضائل الميت على شاهدة قبره، وهذه النقوش على قلتها ذات فائدة لنا في رصد تاريخ اللغة العربية، نشأتها، وتطورها سواء من حيث المبنى وهو الخط، أو من حيث المعنى وهو الأسلوب والصياغة، وهذا ما سوف نشرع به ولكن بعد وقفة قصيرة أبيّن فيها ما أعنيه بالعرب والعروبة في هذه الدراسة.

فالعروبة ليست اثنية بعينها، ولكنها نمط في الحياة يقوم على الرعي المتنقل وما يفرضه هذا النمط من ثقافة. والعرب الذين أعنيهم هم من أدعوهم بعرب الشمال، وهم العدنانيون بالمصطلح التراثي، من دون عرب الجنوب أو القحطانيين بالمصطلح التراثي، من أهل اليمن وحضرموت الذين استقلوا عن عرب الشمال بلغتهم وثقافتهم الحضرية التي كانت صنواً لثقافة الشام ووادي الرافدين على الرغم من تأخرها عنهما في الزمن، وعدم حصول احتكاك بينهما، لأن علاقات هؤلاء القحطانيين كانت مع الهند وأفريقيا أقوى من علاقاتهم مع الشمال، حتى في التجارة التي كان يقوم بها وسطاء من العدنانيين. ولاشك في أن هؤلاء الوسطاء كانوا بحاجة إلى مترجمين من أجل التفاهم مع أهل الجنوب لبعد الشقة بين اللغتين المستقلتين تمام الاستقلال، على الرغم من أن رواة الشعر الجاهلي قد انتحلوا قصائد لشعراء قحطانيين دبجوها باللغة التي جعلوا الشعراء العدنانيين ينطقون بها، وعلى الرغم أيضاً من أن الثقافة اليمنية لم تنتج الشعر قط.

ولذلك فأنا عندما أتحدث عن العرب هنا، فإنني أعني بهم عرب الشمال ومن انضم إليهم من عرب الجنوب وتبنى ثقافتهم، سواء في العربية (مملكة كندة) أو في الشام (آل جفنة وهم الغساسنة، وبنو لخم وهم المناذرة). فقد كانت الشام بمنزلة الموطن الثاني للعدنانيين بسبب الاتصال الجغرافي بين المنطقتين، وعدم وجود حواجز طبيعية بينهما، وكانت العشائر العدنانية تقصدها للرعي في رحلة الشتاء والصيف، أو تعبرها نحو الجزيرة الفراتية لترعى ماشيتها على بقايا الحصاد في أراضيها الخصبة. والجزيرة الفراتية بالمصطلح التاريخي والجغرافي، تشتمل على مناطق حوض نهر الخابور شرقي الفرات، مع امتدادات تصل إلى نهر الدجلة.

وقد شارك العرب في التاريخ السياسي والثقافي لممالك بلاد الشام منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد، عندما ورد ذكرهم في نص للملك الآشوري شلمنصر الثالث عن معركة قرقرة في الشمال السوري بينه وبين تحالف الملوك السوريين بقيادة ملك دمشق، حيث قدم الأمير العربي جنديبو للتحالف كتيبة من الهجانة

فرسان الجمال. وبعد هذه المعركة تزايد الوجود العربي في الشام، وفي أواخر الألف الأول ق.م، مالت بعض القبائل العدنانية المتجولة إلى الاستقرار وتشكيل ممالك لها. وعندما دخل الاسكندر الكبير إلى سورية بعد معركة ايسوس مع الفرس عام 333ق.م، كان هنالك مملكتان عربيتان في طور التشكل هما مملكة إيطوريا في البقاع الشمالي، ومملكة الأنباط إلى الجنوب من البحر الميت. وتقول أخبار حملة الإسكندر على سورية أن الإيطوريين هاجموا مؤخرة جيشه أثناء حصاره لمدينة صور، وكانوا من أشرس المحاربين الذين واجههم في تلك الحملة.

ومنذ ذلك الوقت تزايد عدد القبائل التي مالت إلى الاستقرار وتشكيل الممالك، حتى بلغ عددها في سياق القرون الميلادية الأولى تسع ممالك تركت بصمتها السياسية والثقافية على المنطقة (راجع فصل التكوين السياسي لعرب الشمال في قسم الملاحق). كما ازداد عدد القبائل التي رحلت إلى الشام (أو بطون منها) ووجدت مواطن لها فيها، مثل: ربيعة، وغسان، وقضاعة، ومذحج، وسليح، وتنوخ، ولخم. وعندما دخلت جيوش أبي بكر الصديق إلى الشام والعراق، كان العرب أحد المكونات السكانية الرئيسية في هذين القطرين.

تاريخ اللغة العربية :

إننا لا نستطيع رصد ومتابعة تاريخ أي لغة إلا عندما تتحول إلى الكتابة في التعبير عن نفسها، ولذلك فإن تاريخ اللغة هو تاريخ نصوصها المكتوبة، والحرف الذي دونت به. وقد كان لعرب الشمال لغتهم السامية التي تربطها أواصر القربى مع بقية اللغات السامية، لاسيما الغربية منها مثل: الأوغاريتية، والفينيقية والعبرية، التي يمكن تصنيفها تحت مصطلح الكنعانية، ثم الآرامية وهي الشق الثاني من اللغات السامية الغربية. وقد تبنت هذه اللغات الكتابة الأبجدية التي ظهرت بوادرها الأولى في مناجم النحاس التي يستغلها فراعنة مصر في سيناء، ومنها انتقلت إلى الشام أولاً ثم إلى اليمن. ومن الشام انتقلت غرباً إلى بلاد اليونان وشرقاً إلى الهند.

يبتدئ تاريخ العربية/القرآنية مع مدونات منطقة تلـول الصـفا في الشـام، وهي حرة بركانية واسعة تقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق وتمتد لتشتمل على مناطق من شمال الأردن. وهي عبارة عن أرض وعرة ملأى بالصـخور البركانيـة الـتي قذفتـها بـراكين كانـت نشـطة في العصـر الجيولـوجي المعـروف بعصـر الهولوسين. وقد وجد فيها الآثاريون واللغويون حـتى الآن نحـو 50.000 نقـش على الحجر مدون باللغة العربية المبكرة وبالخط المسند اليمني، وهي تنتمي إلى الفترة ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي. وتشترك هذه اللغة الصفاتية (نسبة إلى الصفا) مع العربية التقليدية بكثير من الأفعـال، مثـل: نـدم، ولعن، ونهل، وسمع، وقتل، ورعى، وفي كثير من أسماء العلم مثـل: أذينـة، وإياس، وهمام، وحبيب، وسالم، وسعد. وفي العديد مـن أسمـاء الحيوانـات مثل: أسد، ولبؤة، وحمل، وحمار، ووعل، وضبع. أما مواضيع هذه النقـوش فتدور حول مجريات الحياة اليومية، مثل الحزن على وفاة قريب، أو البحث عن المرعى، أو الشوق إلى الأهل، أو التوسـل إلى الآلهـة مـن أجـل السـلامة، أو تخليد ذكرى مدون النص، لأن المدون غالباً ما كان يذكر اسمه، كما هو الحال في أيامنا هذه حيث نرى على بعض جـذوع الأشـجار جملـة محفـورة بالسـكين تقول: «ذكرى فلان الفلاني» متبوعة بالتاريخ. وقد يرفق المدون الصـفاتي نقشـه الكتابي بنقش تصويري يمثل حيواناً من حيوانات المنطقة.

ويورد الدكتور أحمد الجلاد من جامعة هارفـارد في قـرب اللغـة الصـفاتية مـن العربية التي نعرفها، أنه في إحدى زياراته الميدانية للمنطقة بصـحبة دليـل بـدوي، راح يقرأ أحد النقوش بصوت مسموع فكان الدليل يفهم بشكل عام مضمون النقش. وأحمد الجلاد شآمي مولود في أميركا ويعتبر من أبرز علماء فقه اللغات السامية اليوم[1].

---

(1) من أجل مزيد من المعلومات عن اللغة الصفاتية، راجع:

- Elius Mahanna, New History of Arabia Written in Stone, the New Yorker, May 2018 (متوفر على النت)
- Ahmad Al-Jallad, An outline of the Grammar of Safaitic inscriptions, Lieden, Brill, 2015. (متوفر على النت)

وبعيداً عن حرّة الصفا في الشام فقد وُجدت النقوش الصفاتية في شمال غرب العربية حيث نشأت أولى الممالك العربية في شبه الجزيرة منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، وهي ممالك قيدار وتيماء ودوان ولحيان، التي ارتبط تاريخها السياسي والثقافي بتاريخ ممالك بلاد الشام الآرامية، وشاركت في الصراع الآرامي الآشوري، وورد ذكرها في السجلات الآشورية كخصم عنيد للآشوريين.

وسنورد فيما يلي نموذجاً من النقوش الصفاتية الشآمية، وآخر من النقوش الصفاتية لشمال غرب العربية:

1- نقش برد بن أصلح من تلول الصفا:

(1)

(قراءة النقش من الشمال الى اليمين)

النقحرة[1]:

ل ب ر د/ ب ن/ ا ص ل ح/ ب ن/ ا ب ج ر/ و ش ت ا

هدر/ وذ ب ح/ ف هـ ل ت س ل م

(1) أي النقل الحرفي.

الترجمة:

(هذا النقش) لبرد بن أصلح بن أبجر، وشتّى (وقضى الشتاء) في هذا المكان وذبح (=قدم قرباناً)، فيا اللات (نسأل) السلامة[1].

ونلاحظ هنا أن «أل» التعريف لم تدخل بعد على الأسماء، وحلت الهاء محلها في قوله ف هـ لـ ت.

2- نقش سنم بن رضوة/ شمال غرب العربية



النقحرة:

ل س ن م/ ب ن/ ر ض و ت/ ب ن/ خ لـ ف ن/ بن/ رث/ ال/ ذال

ع ب د/ م/ ا ص ر/ و د ث ا/ س ن ت/ ن ج ا

(1) إ.ويلفنسون: تاريخ اللغات السامية، الطبعة الأولى، ص192، النسخة الإلكترونية، ص184 النسخة الورقية.

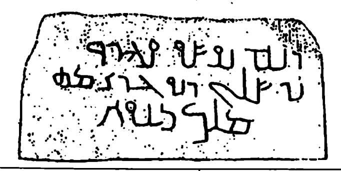
وترجمة ويلفنسون قديمة، وقد نشر كتابه في العقد الثالث من القرن العشرين قبل التوسع اللاحق في الدراسات الصفاتية، ولذلك فقد صححتُ ترجمته لجملة «ف هـ ل ت سلم» حيث قال: «فيا الله أقدم لك السلام»، وترجمتها استناداً إلى معلوماتنا الجديد : «فيا اللات السلامة».

التعليق:

يعتبر هذا النقش مع نقش أم الجمال الشآمي المقارب له في التاريخ، أقدم النماذج المعبرة عن الخط العربي في بواكيره، عندما أخذ بتعديل الحروف النبطية والقيام بمحاولات أولى لوصل الحروف مع بعضها. ونلاحظ فيه وجود مفردات عديدة مشتركة مع اللغة الآرامية مثل: بر (ابن)، برت (ابنة)، ترين (اثنين)، برخ (شهر)، يشنا (يغير)، مري (سيد أو رب)، علما (عالم/ عالمين). كما حافظ النص على الواو النبطية التي تلحق الأسماء، مثل: منوتو كعبو، الحجرو. هذه المفردات ليست مستعارة من الآرامية كما يعتقد دارسو هذه النقوش، ولكنها من صلب العربية المبكرة باعتبارها لغة سامية يجمعها إلى بقية اللغات السامية الأصل الواحد.

2- نقش أم الجمال

المجموعة الشآمية/ 250-270م



النقحرة	الترجمة
1- دنه نفسو فهرو	هذا قبر فهر
2- بر سلي ربو جذيمة	ابن سلي مربي جذيمة
3- ملك تنوخ	ملك تنوخ

= د. مشلح المريخي: أصل الخط العربي، جامعة الملك سعود، الرياض 2020، الصفحات 29 وما بعدها من النسخة الإلكترونية.

وقد أجريت تعديلات طفيفة على ترجمته، وأضفت شروحات على تعليقاته وجدتها ضرورية.

التعليق:

جذيمة المذكور هنا هو جذيمة الأبرش ملك الحيرة المتوفى سنة 267م وقد أطنبت المصادر القديمة في الإشادة بعظمته واتساع سلطانه.

وأود هنا أن آخذ بيد القارئ لملاحظة الصلة بين أحرف هذا النقش وأحرف العربية التقليدية. ففي الكلمة الأولى «دنه»، يمكن لنا أن نتبين حرف الدال متبوعاً بحرفي النون والهاء اللذين قام الكاتب بوصلهما. وكذلك حال «نفسو» التي تليها والتي رسمها بمقطعين؛ الأول هما النون والفاء متصلين والثاني السين والواو متصلين. وبالإمكان تبين السين في المقطع الثاني وقد اتخذت وضعية عمودية وأسنانها متهجة نحو اليمين. وفي كلمة «سلي» في السطر الثاني نستطيع أن نتبين اللام والياء، والطريقة الخاصة التي رسمت بها ياء آخر الكلمة، والتي ما زال بعض الخطاطين يستعملونها حتى الآن.

أما لماذا استعمل كاتب نقش رقوش كلمة «قبر» واستبدلها كاتب نقش أم الجمال بكلمة «نفس» فلأن الكلمتين مترادفتان في العربية المبكرة، ثم اختفت الثانية واعتُمدت الأولى تدريجياً.

3- نقش المابيات

مجموعة العلا/ 280م

النقحرة	الترجمة
1- (السطر مشوه)	(... ...)
2- كتبه سلم على قبر رمنه أنثته	كتبه سالم على قبر رمانة امرأته

3- برت بوكف برعرر ذي من قريا	ابنة يوكف بن عرار التي من قريا
4- ذي متت يوم عشرين وست	التي ماتت يوم السادس والعشرين
5- باير سنت ماه وسبعين وخمس	بأيار (=مايو) سنة خمس وسبعين ومئة

4- نقش النمارة

المجموعة الشآمية/ 328م

النقحرة:

1- تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

2- وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا

3- بزجي في حبج نجرن مدينت شمر وملك معدو ونيل بنيه

4- الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

5- عكدي هلك سنت 223. يوم 7 بكسلول بالسعد ذو ولده

الترجمة:

1- هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك كل العرب، الذي حاز التاج

2- ومَلَك علي بني أسد، ونزار، وملوكهم، وشتت بني مذحم بقوته، وجاء

3- بزجي في مشارف نجران مدينة شمر، ومَلَك على بني معد، وأعطى بنيه

4- (السلطة على) الشعوب، ووكله الفرس على (محاربة) الروم، فلم يبلغ ملك مبلغه.

5- في القوة. هلك سنة 223 اليوم السابع من (شهر) أيلول/ديسمبر، فليسعد أبناؤه.

التعليق:

عُثر على هذا النقش في قرية النمارة من أعمال منطقة حوران في جنوب الجمهورية السورية، وهو عبارة عن شاهدة قبر للملك امرئ القيس بن عمرو (بن عدي) الملك الرابع للحيرة. وقد اختلف الباحثون في ترجمة بعض مفرداته، ولذلك اعتمدت في الترجمة على الرأي الذي وافق الصواب من وجهة نظري.

يعبر هذا النص عن مرحلة متطورة من خط العربية المبكرة، كما بلغت لغته حد الفصاحة في العربية التقليدية، وذلك في جملة «فلم يبلغ ملك مبلغة في القوة». وقد ترجمنا كلمة «عكدي» إلى «قوة»، بالرجوع إلى القواميس العربية حيث وجدنا أن «العُكدة» تعني القوة.

5- نقش وائل بن الجزار

مجموعة العلا/ 410م

النقحرة	الترجمة
1- ذكير وألو بر الجزاز	ذكرى وائل بن الجزاز
2- ببرخ إيلول 305	بشهر أيلول/ سبتمبر 410م

التعليق:

هذا هو النقش الثالث المهم في مجموعة العلا، وهو يمثل مرحلة متقدمة في شكل الحرف العربي أما نقشا سكاكا الأول والثاني اللذان عُثر عليهما في

منطقة الجوف، فلا يعول عليهما لأنهما لا يحتويان إلاّ على اسمي علـم وبـدون تاريخ. لذلك فإن ما تبقى من المجموعة الشآمية هي التي سنتابعها فيما يلي.

6- نقش زبد

المجموعة الشآمية/ 512م

النقحرة:

1- [جزء تالف] الإله شرحو بر

أمت منفو وهلبا بر مر القيس

2- وشرحو بر سعدو وسترو وشريحو

الترجمة:

[بنص] ر الإله

(والبقية أسماء علم)

التعليق:

وجد النقش في موقع خربة زبد غربي الفرات بين حلب وقنسرين، محفوراً على ساكف باب كنيسة مهدمة. والكلمة الأولى في نصه لم يبق منها سوى حرف الراء، ولذلك من المرجح أن تكون «بنصر» مضافة إلى «الإله» أما بقية الكلمات فجميعها عبارة عن أسماء علم للقائمين على مشروع بناء الكنيسة الذي تم بنصر وعون الله. وقد حقق القلم العربي هنا نقلة نوعية في استقلاله عن القلم النبطي؛ فالحروف: ا، م، ت، ح، ف، ق، غ، عين الوسط، لا تختلف عن نظرائها في

نقوش العصر الإسلامي الأول، وقد كتبت السين بأسنانها مائلة نحو يسار الأسفل، بينما بقيت الدال في كلمة سعدو محتفظة بصيغتها النبطية. ونستدل من وجود كلمة «بر» بدلاً عن «ابن» على أن بعض المفردات المشتركة مع الآرامية عند هذه المرحلة ما زالت مشتركة مع الآرامية.

7- نقش أسيس

المجموعة الشآمية/ 528م

النقحرة	الترجمة
1- أنه رقيم بن مغيرة الأوسي	أنا رقيم بن المغيرة الأوسي
2- أرسلني الحرث الملك على	أرسلني الملك الحارث على
3- أسيس مسلخة سنت	أسيس نهاية سنة
4- 423	423 (التقويم النبطي) 528م

التعليق:

عثر على هذا النقش في جبل أسيس على مسافة 100كم إلى الجنوب من دمشق، والملك الحارث المذكور هنا هو الملك الغساني الحارث بن جفنة من ملوك القرن السادس الميلادي.

وقد رسمت حروف النص هنا على طريقة حروف نقش زبد، على ما نجد في: ا، ب، ر، س، م، ح، ك، والغين المفتوحة دون قنطرة في كلمة «مغيرة». ولكن

السين صارتِ أقرب إلى صيغتها العربية اللاحقة. أما كلمة «مسلخة» التي تبدو غريبة فهي من جذر عربي واضح، ففي القواميس: سلخ الوقت، أي انتهى، وسلخنا الشهر، أي صرنا في آخره، وفي القرآن، ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ التوبة: 5.

بعد هذا النقش لا يبقى لدينا سوى نقلة واحدة يحققها القلم العربي قبل الاستقرار.

8- نقش حران

المجموعة الشآمية/ 568م

الترجمة	النقحرة
أنا شرحيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة	1- أنا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول
سنة 463 بعد خراب	2- سنت 463 بعد مفسد
خيبر	3- خيبر
بعام	4- بعم

التعليق:

وُجد هذا النقش على ساكف باب كنيسة مهدمة في حران اللجاة في المنطقة الشمالية من جبل الدروز بسورية. وهو مدون باليونانية والعربية ومؤرخ بالتقويم النبطي الذي يوافق عام 568م، أي قبل التقويم الهجري بأربع وخمسين

سنة. وعلى الرغم من وجود روابط له مع الآرامية؛ مثل استخدامه لكلمة «بر» عوضاً عن «ابن» والواو التي تلحق الأسماء وحذف ألف المد. إلا أنه عربي كامل في حروف كلماته وصيغته اللغوية. أما كلمة «مرطول» فهي صيغة عربية للكلمة اليونانية Martyrion التي تعني الكنيسة المكرسة لأحد شهداء المسيحية، وأما كلمة «مفسد» فهي من فعل فسد يفسد، أي: تلف، أصابه العطب، خرب، على ما نجده في القواميس العربية.

وقد وصل الخط العربي مع نقش حران إلى شكله الأخير المدعو اصطلاحاً بالحجازي، لأن أقدم المصاحف التي بحوزتنا مدونة به. وخلال العصر الأموي طور الخطاطون أشكالاً من هذا الخط دون أن يخرجوا عنه. وفي سباق القرن الثاني الهجري ظهر الخط الكوفي المستمد من الحجازي اليابس ذي الخطوط المستقيمة ودونت به المصاحف.

ولكن القلم العربي، كان خالياً من الحركات الصوتية التي توضع فوق الحروف الساكنة لتحريكها وضبط أواخر الكلمات، ولم تكن تلك الحروف قد قبلت النقاط لتمييز المتشابه منها مثل التاء والثاء والباء. وبما أن الحاجة باتت ماسة لضبط ألفاظ القرآن الكريم، فقد خضع القلم لعملية تطور من نوع آخر، ابتدأت مع أبي الأسود الدؤلي المتوفى عام 69 للهجرة، واكتملت مع الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة 170 للهجرة.

5- من المبنى إلى المعنى
مشكلات اللغة القرآنية

المبنى هو تحويل اللغة إلى رموز كتابية، والمعنى هو حُسن التعبير عن الأفكار والمفاهيم والمجردات، وهو ما قصده الأقدمون بكلمة «الفصاحة»، فقالوا فصُح الرجل أي جادت لغته. وقد قادنا تتبُع تاريخ اللغة العربية من خلال النقوش القليلة التي وصلتنا من عصر ما قبل الإسلام، إلى الكشف عن تاريخ المبنى، أما المعنى فقد بقي شبه غائب عنا لغياب النصوص ذات الطابع الأدبي. ولعل مقارنة بسيطة بين المعنى في نقش حران، (الذي وصل معه القلم العربي إلى غاية نضجه)، والمعنى في أي آية قرآنية، توضح لنا مدى الفارق الشاسع في الفصاحة بين الطرفين. فالنص القرآني يبدو لنا وكأنه انبثق من العدم دونما مرحلة سبقته يمكن الرجوع إليها لحل كل ما يطرحه علينا من مشكلات تتعلق بالصيغ اللغوية ومعاني الكلمات.

وهذه نماذج من المفردات والتعابير التي اختلف المفسرون في دلالاتها، والقائمة أطول مما يمكن لنا إيراده هنا: الحوايا: الأنعام 146، لا شيّة فيها: البقرة 7، وأكدى: النجم 31، يضاهئون: التوبة 30، مليم: الصافات 142، والذاريات ذروا: الذاريات 1، ألواح ودسر: القمر 13، جابوا الصخر: الفجر 9، مهطعين: القمر 8 وإبراهيم 42 والمعارج 36، غاسق إذا وقب: الفلق 3، نزاعة للشوى: المعارج 16، ماءً ثجاجاً: النبأ 14، قسمة ضيزى: النجم 22، وكأساً دهاقا: النبأ 34، وفاكهة وأبّاً: عبس 31، غسلين: الحاقة 36، وقولوا حطة: البقرة 58، حمأ مسنون: الحجر 26، نجسٌ: التوبة 28، كنود: العاديات 6، ويكأن الله: القصص 82، والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً: العاديات 1-2، في كبد: البلد 4، بأيدي سَفَرة: عبس 15، ترهقُها قَتَرَةٌ: عبس 41، قَسْوَرَة: المدثر 51.

فكيف نفسر وجود هذه الغوامض القرآنية، والآية الثانية من سورة يوسف تقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؟ في الحقيقة، لقد كان الجيل الأول من المسلمين على دراية بلغة القرآن، ولم يجدوا مشقة في فهمه. ولا أدل على ذلك من أن محمداً لم يجد ضرورة لشرحه، ولم يؤثر عنه إلا قلة من الأحاديث المفسرة له. ولهذا لم تظهر تفاسير القرآن إلا ابتداءً من أواخر القرن الثاني الهجري مع كتاب «تفسير معاني القرآن» لأبي زكريا الفراء، وبعده تفسير الطبري في أواخر القرن الثالث الهجري، ثم تتالت عشرات التفاسير وصولاً إلى العصر الحديث.

أما لماذا لم يجد صحابة الرسول غوامض في القرآن وكذلك جيل التابعين، ووجدها المفسرون في القرن الثالث الهجري، فلأن اللغة العربية تابعت تطورها في المعنى بعد ثبات المبنى، شأنها في شأن كل لغة حيوية عبر التاريخ، لاسيما عندما تكون الثقافة في حالة دينامية تتبادل الأثر والتأثير مع الثقافات الأخرى. وقد قاد هذا التطور إلى الانتقال من العربية القرآنية إلى العربية الكلاسيكية، كما يدعوها علماء فقه اللغات السامية، والتي بلغت مرحلة النضج خلال القرن الثالث الهجري على أيدي عدد من علماء اللغة[1] في القرن الثاني وتلاميذهم في القرن الثالث.

هذا التطور الذي طرأ على اللغة العربية ليس ظاهرة منعزلة، ويمكن لنا ملاحظته في تاريخ اللغة العالمية الأخرى. وسأكتفي هنا بمثالين؛ الأول إنكليزي والثاني فرنسي. فالقارئ الإنكليزي اليوم يستطيع قراءة تشارلز ديكنز (ت عام 1870م) دونما صعوبة، ولكنه في قراءته لشيكسبير (ت عام 1616م) سوف يستعين مراراً بقاموس الإنكليزية القديمة، أما قراءة جيفري تشوسر في عمله الأساسي «حكايا كانتربري» فبحاجة إلى ترجمة كاملة من الإنكليزية القديمة التي لا يفهمها إلا الاختصاصيون. والقارئ الفرنسي اليوم سوف يستعين مراراً

(1) ويشتمل علم اللغة على: النحو، والصرف، والاشتقاق، والبيان، والبديع.

بقاموس الفرنسية القديمة في قراءته لموليير (ت عام 1673م) وراسين (ت عام 1699م). ولكنه سيجد صعوبة في قراءة رابليه (ت عام 1550م) ومونتين (ت عام 1590)، أما أنشودة رولان من القرن الثاني عشر، وهي أعظم ملاحم البطولة في التاريخ الفرنسي، فمستحيلة دون ترجمة كاملة عن الفرنسية القديمة.

لم تتغير العربية الكلاسيكية عن القرآنية بالقدر الذي تغيرت به الإنكليزية والفرنسية، ولكنها تغيرت على أية حال، والكثير من مفردات اللغة القرآنية صار مهجوراً وسقط من الاستعمال، وليس من المجدي كثيراً البحث عن معناها في القواميس العربية الكبرى لأنها دونت جميعاً بعد القرن الثالث الهجري، والحديث لا يفسر القديم. وأنا هنا لا أنفي ما يمكن أن تقدمه لنا تلك القواميس من فائدة مهما كانت محدودة، وإنما أتطلع إلى وسائل عصرية جديدة، والإفادة من النهضة غير المسبوقة التي حققها فقه اللغات السامية في الغرب خلال العقود القليلة الأخيرة. فاللغة القرآنية لغة سامية تشترك مع اللغات السامية الأخرى في المفردات وجذور الأفعال والصيغ اللغوية، ولذلك فإن التعامل مع غوامض القرآن في تلك اللغات قد يكون أجدى من الرجوع إلى قاموس لسان العرب أو تاج العروس أو المحيط.

وقد لجأ العديد من دارسي القرآن في الغرب منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى عقد مثل هذه المقارنات، سواء في تفسيرهم للقرآن أو في ترجمتهم له. ولكن أكثر هذه المحاولات طموحاً هي التي أنجزها الباحث الألماني من أصل شآمي كريستوف لوكسنبرغ، في كتابه «قراءة سريانية ـ آرامية للقرآن». فالآرامية هي لغة السوريين خلال كامل الألف الأول قبل الميلاد، وانتشرت شرقاً إلى بلاد الرافدين وفارس، أما السريانية التي كانت آرامية الرها/ إديسا في الشمال الغربي من الشام، فقد تبناها المسيحيون السوريون منذ مطلع العصر الميلادي لتمييز أنفسهم عن الآراميين الوثنيين. صدر كتاب لوكسنبرغ بالألمانية عام 2000، وصدرت ترجمته الإنكليزية عام 2007. وقد فسر لوكسنبرغ عشرات المفردات

القرآنية اعتماداً على السريانية، وخرج بنتائج تخالف كل ما خرج به المفسرون المسلمون، ولقي كتابه رواجاً كبيراً لدى عامة القراء، على الرغم من النقد الشديد الذي لقيه من علماء اللغات السامية الذين اعتبروه مجرد هاوٍ. إلا أنه فتح باباً جديداً في الدراسات القرآنية.

وفي اعتقادي، فإن لوكسنبرغ قد فتح باباً جديداً في الدراسات القرآنية لن يغلق بعده. ولكن نقطة الضعف في منهجه هي اعتماده على اللغة السريانية وحدها، والتي يتقنها باعتباره سرياني شآمي متخفٍ تحت اسم أوروبي. والسريانية ما زالت حية بقوة في الشام ويتكلمها السريان في اجتماعاتهم الخاصة ويُدرسونها في كنائسهم. وعلى الرغم من أن الحاضنة التي نشأت فيها اللغة العربية كانت آرامية ـ سريانية. إلا أن ما يعرفه علماء اللغات السامية حق المعرفة هو أن العربية أكثر صلة باللغتين الكنعانيتين الأوغاريتية والعبرية، منها باللغة الآرامية ـ السريانية. ولعل في المقاطع التي اقتبسها أدناه عن نصوص أوغاريت خير دليل على ما أقول:.

* صلاة لدرء الحرب:

	الترجمة
- وشمع بعل لصلاتكم	وسمع بعل لصلاتكم
- يدي عز لثغركم	يبعد العزيز عن تغركم (=مينائكم)
- قارد لحاميتكم	والقوي عن حصنكم

* رسالة ملكية:

- لشفش ملك رب ملك مصريم ملك نعيم	للملك الشمس السيد ملك مصر الملك المنعم
- ملك صادق ملك ملكيم	الملك الصادق، ملك الملوك

* من ملحمة البعل:

- يثوب لي ثور إيل أبي	يثوب (من فعل ثاب يثوب) لي الثور إيل أبي
- يثوب لي وله أثوب	يثوب لي وله أثوب

وفيما يلي أورد بعضاً من الأفعال والأسماء المشتركة بين اللغات الثلاث العربية والأوغاريتية والعبرية، على سبيل المثال لا الحصر لأن القائمة الكاملة تستغرق صفحات: أكل، فعل، حمدَ، زعق، قرأ، حلبَ، ملَكَ، منحَ، فتحَ، بيت، عين، يد، يم، حكمة، عالم، ملحمة (=التحام/حرب)، موت، حلم[1].

نأتي الآن إلى نوع آخر من الاختلاف بين العربية القرآنية والعربية الكلاسيكية وهو المتعلق بالنحو، وهذه نماذج منه على سبيل المثال لا الحصر:

المائدة 69:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ (بدلاً من: والصابئين)

البقرة 124:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (بدلاً من: الظالمون)

الأعراف 56:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (بدلاً من: قريبة)

الأعراف 160:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ (بدلاً من: سبطاً)

---

(1) عن صفحة الباحث عمر حكمت الخولي على الفيس بوك، وهو اختصاصي باللغات السامية الغربية في ألمانيا.

الحج 19:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (بدلاً من: اختصما)

التوبة 69:

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (بدلاً عن كالذين)

المنافقون 10:

﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (بدلاً من وأكون)

النساء 62:

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (بدلاً من والمؤتين)

البقرة 80:

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (بدلاً من: معدودات)

البقرة 177:

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ﴾ (بدلاً من: والصابرون)

طه 63: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (بدلاً من هذين)

ولقد وصف البعض هذه الشذوذات عن النحو الكلاسيكي بأنها أخطاء، ولكن الخطأ هو مخالفة قاعدة نحوية متفق عليها ومعمول بها قبل إنشاء النص لا بعده، وعلم النحو نشأ في سياق القرن الثاني الهجري ولم يستقر إلا في سياق القرن الثالث. أما عشية البعثة المحمدية فقد كان النحو مرناً وما من قواعد صارمة تحكمه؛ وقد أشار ابن عقيل إلى هذه المرونة في شرحه لألفية ابن مالك المتوفي سنة 672هـ، ومما قاله في ذلك: «ومن العرب من يجعل المثنى والملحق به بالألف مطلقاً رفعاً وجراً ونصباً كقولهم: جاء الزيدان، ورأيت

الزيدان، ومررت بالزيدان. وقال ابن كثير في تفسير الآية ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ...﴾ وهذه قراءة لبعض العرب جاءت هذه الآية على إعرابها. ويعني بذلك إن الإعراب لم يكن واحداً عند العرب وإنما متعدد. وقد استمرت مرونة النحو خلال العصر الأموي، وها هو الشاعر أبو النجم العجلي يرفع اسم «ليت» بدلاً من نصبه، وذلك في قوله:

واهاً لريا ثم واهاً واها   هو المنى لو أننا نلناها

يا ليت عيناها لنا وفاها   بثمن نرضي به أباها

* * *

الباب الرابع

المشروع المحمدي
والملحمة الدينية الكبرى

مقدمة

إن ما قدمناه في آخر الباب الثالث من عرض لتاريخ اللغة العربية/القرآنية، يقودنا إلى نتيجة في غاية الوضوح وهي أن المشروع المحمدي يقوم على نص لغوي هو القرآن الكريم، والنص اللغوي لا ينشأ إلا في حاضنة ثقافية معينة، ويعبر عن نفسه من خلال التقاليد الثقافية لتلك الحاضنة ونظامها اللغوي. فهو نص ثقافي يصرف النظر عن مصدره الإلهي، لأن اللغة لا تكون إلا بشرية، وإذا كان هنالك من لغة إلهية فإنها لغة بدون حروف وأصوات. وبالتالي فإن المشروع المحمدي لم ينشأ في فراغ، بل إن كل ما سبقه في الدائرة الثقافية التي ينتمي إليها، قد مهد له وساعد على تبلوره كدين جديد يحتوي على القديم ويتجاوزه في الآن نفسه. ولدينا في تاريخ أديان الإنسان أمثلة عديدة على ذلك.

ففي تاريخ الدين غالباً ما يكون الجديد نتاج عملية انشقاق عن القديم من داخله، على ما نجده في نشوء أكثر من دين عالمي. فالبوذية نشأت في حاضنة هندوسية، والبوذا كان ناسكاً هندوسياً جوالاً يبحث عن سبل خلاص الروح على الطريقة التقليدية، إلى أن انكشفت بصيرته على حقائق الوجود، أو بمصطلح الأديان الإبراهيمية: جاءه الوحي. وعندما عبّر عن عقيدته لغوياً قام بصياغتها من خلال المصطلحات الهندوسية نفسها مثل: الكارما، وهي الفعل وجزاؤه، والدهارما، وهي السنّة الكونية، والسمسارا، وهي الزمن الذي يدور على نفسه كل أربع مليارات سنة فيفني العالم في كل مرة ليخلق من جديد، والموكشا، وهي خلاص الروح والانعتاق من دورة التناسخ في الأجساد. أي أنه خاطب أبناء جلدته من خلال ما يعرفونه ويألفونه، لينتقل بهم إلى مالا يعرفونه.

وزرادشت كان كاهناً على دين إيران القديم قبل أن يتلقى الوحي من الإله الواحد أهورا مزدا، فانشق عن دين قومه وأحدث ديناً جديداً بقيت فيه آثار من

الدين القديم، وتحول بعض آلهة ذلك الدين إلى كائنات ملائكية مثل الإله ميترا. وكذلك ماني مؤسس الديانة المانوية في إيران، الذي كان على مذهب طائفة معمدانية على العقيدة الغنوصية، ثم جاءه وحي إله النور فقال له: «اعتزل هذه الملّة فلست من أهلها»، ثم «أباح له المعارف السرية المحجوبة عن عصور وأجيال بني البشر». فانشق عن طائفته وأحدث ديناً عالمياً انتشر من الصين إلى أوروبا، بقيت فيه عناصر أساسية من العقيدة الغنوصية.

فإذا جئنا إلى المشروع المحمدي، وهو الإسلام القرآني قبل أن تمتد إليه يد البشر بالحذف (الناسخ والمنسوخ)، والإضافة (الحديث النبوي باعتباره وحياً ثانياً)، والتأويل (الآيات المحكمات والآيات المتشابهات)، وخلق المناسبات التي تجعل من المعنى العام معنى خاصاً (أسباب النزول). أقول إذا جئنا إلى المشروع المحمدي، لوجدنا اعتماداً على التنقيبات الأثرية التي تجري في المملكة السعودية منذ عدة عقود، أن الإسلام لم ينشأ عن «العصر الجاهلي» كما وصفته المصادر الإسلامية في العصر العباسي، بل عن بيئة حضارية لعرب الشمال لا تقل عن مثيلاتها في الشام والعراق (راجع قسم الملاحق: التكوين السياسي، والتكوين الديني لعرب الشمال). وهذه البيئة الحضارية جمعتها إلى البيئة الحضارية الشآمية، دائرة ثقافية واحدة شكلت الخلفية التي قام عليها المشروع المحمدي.

فإذا كانت مكة هي مسقط رأس محمد والمكان الذي أطلق فيه دعوته، إلا أن جذور مشروعه كانت مغروسة في الشام لا في بيئة مكة التقليدية المغلقة والمعادية لأي جديد يأتيها من الخارج. وإني لأفترض بثقة ودون دليل موضوعي، أن معرفة محمد بالشام لم تتأت من عدة رحلات تجارية قام بها، بل من إقامة طويلة في ربوعها حصّل خلالها ثقافته الموسوعية.

فقد كانت الشام، فيما بين أواسط الألف الأول قبل الميلاد وأواسط الألف الأول الميلادي، مسرحاً لملحمة دينية كبرى قادت إلى تشكيل أديان ندعوها

اصطلاحاً بالسماوية أو الإبراهيمية، نشأت تباعاً عبر ثلاث مراحل، وقاد كل منها إلى الآخر. فقد نشأت اليهودية عن الديانة السورية الكنعانية، والمسيحية عن اليهودية، ولم يكن الإسلام إلا حركة إصلاحية داخل المسيحية. وموضوع هذه الملحمة هو الانتقال من الوثنية التعددية في العبادات السورية، إلى وحدانية العبادة في اليهودية، إلى التوحيد المشوب بالتثليث في المسيحية، إلى التوحيد الصافي في الإسلام. وبتعبير آخر: من إيل كبير آلهة كنعان، إلى يهوه إله إسرائيل، إلى الآب إله يسوع، إلى الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد إله محمد بن عبد الله. فقد كانت نبوة محمد الحلقة الأخيرة في سلسلة نبوات العهد القديم والعهد الجديد: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ النساء: 163. ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ النساء: 164. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الشورى: 13.

وسوف نعمل فيما يلي من هذا الباب إلى تقصي الملامح العامة لهذه الملحمة الدينية الكبرى على طريق التوحيد.

1- من إيل إلى يهوه
نشوء اليهودية ومسارها

إله إبراهيم :

يبتدئ تاريخ التوحيد بما يدعوه الباحثون في تاريخ الدين بوحدانية العبادة، أو التفريد/Monolatory. وهو مصطلح يدل على قيام مجموعة بشرية (قبيلة، عشيرة، أو حتى أسرة واحدة) بعبادة إله واحد من الآلهة المعروفة في الثقافة التي تنتمي إليها تلك الجماعة، ولكن دون إنكار وجود آلهة أخرى معبودة من قبل الجماعات الأخرى، أو الآلهة الرسمية للمملكة. ونجد هذه الظاهرة في ثقافة الشرق القديم في مؤسسة «دين العائلة»، عندما يقوم رب الأسرة باختيار أحد الآلهة ليكون شفيعاً له وحامياً له ولأسرته، ويتوقع منه العون والمساعدة لقاء عبادته له. وما إن يتم اختيار هذا الإله حتى يغدو مركز التقوى العائلية، إليه ترفع الصلوات وتقدم القرابين، ويدعى إيل ـ أب، أي إله الأب أو الآباء في اللغات السامية الغربية. وهذه الظاهرة لم تكن وقفاً على الشرائح الفلاحية أو الرعوية، لأن الوثائق النصية من بلاد الرافدين وبلاد الشام تفيدنا بأنه كان لكل ملك سومري إله شخصي يحميه ويسدد خطاه ويعينه على اتخاذ القرارات. وتعبير «إلهي الخاص» يرد في العديد من أدعية أولئك الملوك، وفي أحد نصوص مدينة أوغاريت السورية، نجد الملك دانيال يقيم نصباً حجرياً لإلهه الحامي الذي يدعوه «إيل ـ أب» في الحرم المقدَّس، كما يظهر تعبير إيل ـ أب على أحد الأختام الشخصية.

ووحدانية العبادة كانت السمة المميزة لدين بني إسرائيل منذ بدايات القصة التوراتية إلى أواخرها، وهي القصة التي تبدأ بالأب الأول إبراهيم (أو أبرام)، الذي ترك موطنه في مدينة أور بوادي الرافدين وهاجر إلى حاران في الشمال السوري مع ابن أخيه لوط وزوجتيهما، وفي حاران خاطبه الرب دون مقدمات

قائلاً: «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعل منك أمة عظيمة» التكوين 12: 1-2. ففعل أبرام كما قال له الرب وتوجه إلى كنعان التي تعني في التوراة دوماً فلسطين. وعندما استقر في كنعان مع ابن أخيه لوط، كلمه الرب أيضاً وقال له: «أنا الله القدير (=إيل شداي بالعبرية)... لا يدعى اسمك بعدُ أبرام بل إبراهيم (=أبراهام بالعبرية)... وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم» التكوين 17: 1-8. ونلاحظ هنا أن الإله المتكلم قدم نفسه لإبراهيم بالاسم «إيل»، والكلمة في اللغات السامية الغربية تعني مجرد إله من الآلهة، كما تعني كبير آلهة كنعان، ولا يفهم الفرق بين المعنيين إلا من سياق النص. ولذلك فإن معنى «إيل شداي» هنا هو الإله الشديد أو القوي، وليس «الله القدير». وقد استخدم المحررون التوراتيون اسماً آخر لإله إسرائيل هو «إيلوهيم» ويعني «جمع الآلهة»، وذلك لغرض التفخيم والتعظيم.

مع هذا الخطاب الإلهي لإبراهيم تبتدئ مؤسسة دين العائلة بالظهور في قصص الآباء الأولين إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط من أولاد يعقوب الذي أطلق عليه ربه الاسم إسرائيل، ولذلك دعيت ذرية يعقوب ببني إسرائيل، أي أولاد يعقوب.

ولكن محرر سفر التكوين الذي تخيل هذا الخطاب الإلهي الذي ابتدر دين العائلة قد عكس الآية عندما جعل إيل شداي هو الذي اختار إبراهيم ونسله ليكون إلههم بدلاً من قيام إبراهيم باختيار ذلك الإله. وقد وثق شداي هذا العهد مع إبراهيم ولذلك فقد دُعي في قصص الآباء بإله إبراهيم (التكوين 31: 53 و42) ودعاه عبيد الأسرة بإله سيدي إبراهيم (التكوين 24: 12). وقد كان هذا الإله على مقياس العائلة الصغيرة التي اختارته أو اختارها، وصديقاً أنيساً لها يدخل في علاقات شخصية مع أفرادها، دون إحساس منهم برهبة الدنو من المقدس، ويُعنى بتفاصيل حياتهم اليومية.

فعندما يئست سارة زوجة إبراهيم من الحمل قالت لإبراهيم أن يدخل على جاريتها هاجر لعلهما يرزقان منها بنسل، فنزل إبراهيم على رغبة سارة وحملت هاجر بإسماعيل. ولكن سارة شعرت بالغيرة من جاريتها وأذلتها فهربت من وجهها. وهنا تدخل إله العائلة لحل المشكلة وبحث عن هاجر فوجدها عند بئر ماء في البرية وقال لها: يا هاجر، من أين جئت وإلى أين تذهبين؟ فقالت: إني هاربة من وجه مولاتي. فقال لها: ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها، لأكثرنَّ نسلك حتى لا يحصى لكثرته» التكوين 16: 1-10. وعندما أرسل إبراهيم عبده إلى آرام النهرين ليخطب لابنه إسحاق (الذي ولدته سارة بعد فترة عقم طويلة) فتاة من بيت أخيه ناحور في آرام النهرين، وصل العبد إلى أطراف بلدة ناحور وجلس عند البئر عند خروج النساء ليملأن جرارهن، وتوجه بالدعاء إلى إله سيده إبراهيم ليدله على ابنة ناحور بينهن، فقدم له إله العائلة هذه الخدمة الصغيرة» التكوين 24: 1-28.

وقد ورث إسحاق عهد الرب مع إبراهيم لأنه ابن الزوجة، ولم يرثه إسماعيل لأنه ابن الجارية. ثم إن رفقة زوجته حملت فلما حل ميعاد ولادتها إذا في بطنها توأمان، فخرج الأول فدعو اسمه عيسو وتبعه الثاني فدعو اسمه يعقوب. ولما كبر الاثنان تنازعا على حقوق البكورية، ووصل الخصام بينهما حداً خشيت معه أمهما أن يقوم عيسو المفضل من قبل الأب بقتل أخيه يعقوب المفضل من قبلها، فنصحته أن يهرب من وجه أخيه إلى حاران، ويلجأ إلى أخيها لابان حتى يرتد غضب عيسو عنه. فخرج يعقوب من بيت أبيه وتوجه نحو حاران، وفي الطريق وجد مكاناً وبات هناك فرأى حلماً، وإذا سلم منصوبة على الأرض، ورأسها يمسّ السماء وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها والرب واقف هناك فقال له: «أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحاق، والأرض التي أنت واقف عليها أعطيها لك ولنسلك». أي أن إله إبراهيم وإسحاق قد جدد عهده مع يعقوب. ولكن ردة فعل يعقوب على قيام إله إبراهيم بتجديد العهد معه، تدلنا على أن الأصل في دين العائلة هو قيام الشخص باختيار إلهه وليس العكس. فعندما

استيقظ يعقوب من نومه نذر نذراً وقال: «إذا كان الله (=إيل) معي وحفظني في هذا الطريق، وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس، ورجعت بسلام إلى بيت ابي، يكون الرب لي إلهاً» (الإصحاح 28 من سفر التكوين).

وصل يعقوب إلى حاران وضمه خاله لابان إلى بيته فخدمه في رعاية الماشية ورعايتها نحو عقد ونصف من الزمان، وتزوج من ابنتي خاله على التوالي ليئة ثم راحيل، وأنجب منهما ومن جاريتهما زلفة وبلهة اثني عشر صبياً وبنتاً واحدة، وكان آخرالصبيان يوسف ثم بنيامين. وبعد انقضاء هذه المدة قرر العودة إلى كنعان مع أسرته وما امتلكه من الحاشية خلال إقامته، وفي كنعان أقام قرب مدينة شكيم في الشمال الفلسطيني حيث نصب خيامه، وهناك جرت قصة يوسف وما فعل به إخوته في القصة الواردة في كتاب التوراة الإصحاحات من 37 إلى 50 من سفر التكوين، وفي القرآن الكريم في سورة يوسف، وتنتهي القصة بالتحاق يعقوب وأولاده وأحفاده بيوسف في مصر حيث أسكنهم في أرض جاسان (=الدلتا)، فتكاثروا هناك وأثمروا. ومع قصة يوسف ينتهي الفصل الأول من الرواية التوراتية لتاريخ بني إسرائيل.

لا نعثر في قصص الآباء الأولين هذه على تأملات لاهوتية في طبيعة الألوهة وعلاقتها بالإنسان، فعند هذه المرحلة من دين إسرائيل لم يكن الإله قد أنزل شريعة أو أمر بالتزام وصايا، أو حدد طبيعة الطقوس التي يتوجب على جماعته ممارستها. فدين هؤلاء لم يكن قد غدا ديناً مؤسساتياً، فلم يكن لهم مراكز دينية خارج منازلهم، ولا كهنوت منظم، ولا دورة شعائرية سنوية، وعلاقتهم بالألوهة عبارة عن تقوى شخصية وإحساس بوجود قوة خيرة تقدم لهم العون، ولذلك فإن البحث عن جذور مفهوم التوحيد لدى هؤلاء هو جهد لا طائل من ورائه.

فلقد عاش أفراد البيت الإبراهيمي في عالم متعدد الآلهة، ووجود إله العائلة في مركز التقوى العائلية لا يعني الانصراف الكلي عن بقية الآلهة، التي

ربما تباركوا بها وحملوا معهم صورها، ولدينا على ذلك أكثر من شاهد. فعندما قرر يعقوب العودة إلى كنعان، اغتنم فرصة انشغال لابان في بعض أعماله وشرع بالسفر دون أن يعلمه لكي لا يحول بينه وبين مراده. وعندما كانت زوجته راحيل تجهز للسفر «سرقت أصنام أبيها» وحملتها بين متاعها (التكوين 31: 17-21). وكلمة «أصنام» هنا هي ترجمة للكملة العبرية «تيرافيم»، وهي (على ما نفهم من المواضع الأخرى التي وردت فيها) تدل على صور منحوتة للآلهة غالباً ما تكون سهلة الحمل، وقد توضع في المصلى العائلي (راجع سفر القضاة 17). ونستدل على بقاء هذه الأصنام في بيوت أولاد يعقوب بعد استقرارهم في أرض كنعان من قوله لهم: «اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا... فأعطوا يعقوب كل الآلهة التي في أيديهم فطمرها يعقوب» التكوين 35: 3-4. ولكن الآلهة الغريبة بقيت في بيت بني إسرائيل طيلة تاريخهم، وبقي تعبير «اعزلوا أو انزعوا الآلهة الغريبة» يتردد في جنبات كتاب التوراة حتى السبي البابلي (راجع يشوع 24: 23، والقضاة 10: 16، وصموئيل الأول 7: 3، وأخبار الأيام الثاني 33: 15).

على الرغم من أن إله إبراهيم قد دُعي في سفر التكوين بأسمائه الثلاثة إيل، وإيلوهيم، ويهوه الذي يترجم إلى «الرب» في العربية وإلى "Lord" في الإنكليزية، إلا أننا لا نعرف في حقيقة الأمر اسمه، لأنه عندما ظهر لموسى بعد أربعة قرون من عصر الآباء وسأله موسى عن اسمه، قال له: «هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد» الخروج 3: 15. ثم يقول له في الإصحاح السادس: «أنا الرب، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمي يهوه فلم أُعرف عندهم» الخروج 6: 2-3. فإذا كان الآباء القدماء لم يعرفوه بهذه الاسم فإنهم لم يعرفوه أيضاً بأسمائه الأخرى.

إلى جانب غموض الاسم فقد تمتع إله إبراهيم بشخصية غير واضحة المعالم، لأن شخصية الإله تتضح من خلال الأساطير التي تقص عن أعماله

وتوضح مكانته في مجمع الآلهة وعلاقته بالطبيعة وبعالم الإنسان، كما تتضح من خلال الصلوات والتراتيل المرفوعة إليه، ونحن لا نجد أسطورة واحدة في قصص الآباء ولا صلوات أو تراتيل أو أدعية مثل التي نجدها فيما بعد في سفر المزامير التوراتي وفي آداب بلاد الرافدين.

إله موسى :

وفي الحقيقة فإن شخصية الإله التوراتي لم تأخذ في التوضح إلا مع بدايات سفر الخروج عندما أخلى إله إبراهيم مكانه لإله موسى الذي ظهر له في صحراء مديان: «وأما موسى فقد كان يرعى غنم حميه يترون كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل حوريب جبل الله، وظهر له ملاك الرب[1] بلهيب نار من وسط عليقة (=عوسجة) فنظر وإذا بالعليقة تتوقد بالنار دون أن تحترق، فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه من وسط العليقة وقال: موسى، موسى... أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب... إني رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم لأجل مسخريهم وعلمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من هذه الأرض إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً» الخروج 3: 1-9.

وكان بنو إسرائيل قد وقعوا تحت نير العبودية بعد وفاة يوسف عندما ارتقى عرش مصر فرعون لم يكن يعرف يوسف، فاستعبدهم وجعلهم عمال سخرة في مشاريعه العمرانية، وبقوا على هذه الحال نحو أربعمئة سنة. أما موسى فقد ولدته امرأة عبرانية ثم تبنته ابنة الفرعون فنشأ وتربى في القصر الملكي، ولكنه كان على معرفة بأصله العبراني. فخرج في إحدى المرات لينظر في أثقال إخوته المستعبدين فرأى أحد مشرفي العمال يضرب عاملاً عبرانياً فاشتبك معه في عراك أدى إلى مقتل المصري. وعندما انكشف أمره طلب الفرعون دمه فهرب من مصر

(1) أي الحضور الملموس للألوهة في عالم الظواهر، على ما قدمنا سابقاً.

وجاء إلى أرض مديان حيث آواه كاهن مدين المدعو يثرون واستأجره في رعـي الغنم وزوجه من ابنته (الخروج الإصحاح الأول والإصحاح الثاني)[1].

ويبدو أن هذا الإله كان إلهاً صحراوياً معبوداً لدى سكان المناطق القاحلـة الواقعة في سيناء وآدوم (=سعير) الواقعة بين البحر الميت وخليج العربة، وتيمان في منطقة البتراء شرقاً. ومديان المقر الرئيسي لعبادتـه في منـاطق شـرقي خلـيج العقبة، على ما تدلنا عليه إشارات مبعثرة في الكتاب:

- «يا رب، بخروجكَ من سـعير، بصـعودك مـن صـحراء آدوم، الأرض ارتعدت، تزلزلت الجبال من وجه الرب» القضاة 5: 4-5.

- «الله جاء من تيمان، والقدوس مـن جبـل فـاران[2]... وكـان لـه لمعـان كالنور، له من يده شعاع.... نظر فرجف الأمم ودُكّت الجبال الدهرية، وخسفت آكام القدم... رجفت شقق مديان» حبقوق: 3-6. «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران» التثنية 33: 2.

هذه الآيات التي تدلنا على الموطن الذي جاء منه إله موسى يهـوه تعطينـا معلومات عن طبيعته الأصلية؛ فعند ظهوره ترتعد الأرض وتزلزل الجبال القائمة منذ بداية الدهور، وتخسف الآكام وترجف صخور مديان وشقوقها. وهو يتلألأ ويصدر عنه لمعان كالنور ومن يده يصدر البريق. ونحن هنا أمام ظـاهرة بركانيـة لا لُبس فيها تفسر لنا لماذا ظهر يهوه لموسى في خطابه الأول لموسـى في شـعلة نارية. وهذا ما يتأكد لنا من وصف جبل الرب عندما نزل عليه يهوه لكـي يعطـي الوصية والشريعة لموسى بعد أن حرر بني إسرائيل وعبر بهم البحر نحو صـحراء سيناء، فقد نزل الرب على الجبل ودعا إليه موسى فصعد:

«وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبال جداً، فكان صوت البـوق يـزداد اشـتداداً جـداً

(1) وفي القرآن وردت هذه القصة كاملة في سورة القصص.

(2) غير متأكدين من مكان هذا الجبل، وربما كان في سيناء.

وموسى يتكلم والرب يجيبه» الخروج: 19: 14-20. وهذا وصف حي لبركان ثائر يرتج وتصعد الأدخنة من فوهته، وتصدر عنه أصوات تصم الآذان. ويتكرر الوصف في صلاة مرفوعة للإله في سفر صموئيل الثاني على لسان داود:

«في ضيقي دعوت الرب وإلى إلهي صرخت فسمع صوتي، فارتجت الأرض وارتعشت، أسس السماوات ارتعدت وارتجت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت، حجر اشتعلت منه... من الشعاع قدامه اشتعلت جمر نار» صموئيل 21: 7-13.

يدعى الجبل الذي ظهر عنده الرب لموسى وأمره بالذهاب لتحرير بني إسرائيل في مصر ثم أعطاه عليه الوصية والشريعة، بثلاثة أسماء: جبل الرب، جبل سيناء، جبل حوريب، لأن محرر السفر وصلته هذه الأسماء من عدة حكايا مستقلة فاستعملها تبادلياً. ولكن الأرجح هو أن الجبل المقصود يدعى حوريب، وموقعه في مديان بأقصى شمال غرب العربية إلى الشرق من خليج العقبة، حيث تتصل صحراء النقب الشآمية بالصحراء العربية. ومديان هذه تقع اليوم ضمن أراضي المملكة السعودية، وهي تحتوي على عدد من البراكين الهامدة التي كانت نشطة في عصور ما قبل الميلاد، وبينها جبل حوريب الذي اعتُبر إلهاً يجب استرضاؤه وتقديم القرابين له.

ويبدو أن موسى قد تبنى عبادة هذا الإله عندما أقام في مديان بعد هربه من مصر لدى كاهن هذا الإله المدعو يثرون، فخدمه وتزوج من ابنته، كما أقام فيها مع جماعة الخروج زمناً على ما نفهم نم سفر الخروج 18.

بعد أن تلقى موسى الأمر بالتوجه إلى مصر لتحرير بني إسرائيل، وصله خبر وفاة الفرعون الذي كان يطلب نفسه، فسار مع عائلته إلى مصر، وقبل وصوله خرج أخوه هارون لاستقباله في البرية ثم قاده إلى مساكن الشعب حيث اجتمع مع شيوخ إسرائيل فأخبرهم بجميع الكلام الذي سمعه من الرب، فآمنوا لأن الرب افتقدهم ونظر مذلتهم. وبعد سلسلة من الأحداث الدرامية بين موسى

وفرعون فصلها سفر الخروج، والقرآن الكريم في سورة القصص، أطلق فرعون بني إسرائيل فقادهم موسى من أرض جاسان في الدلتا وعبر بهم البحر الذي انشق أمامهم بمعجزة من الرب إلى سيناء التي تجولوا فيها مدة 40 سنة قبل أن يتوجه بهم موسى شمالاً نحو كنعان.

بلغ تعداد جماعة موسى الخارجين من مصر في سفر الخروج 12: 37-38 نحو ستمئة ألف من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير أيضاً من غير بني إسرائيل، فإذا أضفنا إلى هذا الرقم الأولاد واللفيف الكثير فإن عدد جماعة موسى سوف يزيد عن المليون، وهذا رقم غير معقول لأن عدد سكان مصر لم يكن تجاوز بكثير الثلاثة ملايين في عصر رمسيس الثاني (1279-1213ق.م)، وهو فرعون موسى وفق القائلين بتاريخه أحداث الخروج[1]. والرقم المعقول إذا كنا نبحث عن أساس تاريخي لهذه القصة، لا يمكن أن يتجاوز بكثير بضعة آلاف، وهؤلاء لم يكونوا من سلالة أولاد يعقوب بل عمال آسيويون وفدوا من الشام للعمل في المشاريع العمرانية لرمسيس الثاني في منطقة الدلتا، لاسيما مدينة بي رمسيس التي ورد ذكرها في سفر الخروج باسم مدينة رعمسيس التي بناها العبرانيون للفرعون إلى جانب مدينة أخرى تدعى مخازن فيثوم التي يرجح علماء الآثار أنها تل المسخوطة بين مدينة السويس وبور سعيد. وقد كان الدافع وراء هجرة هؤلاء موجة جفاف حلت ببلاد الشام خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأكدها لنا علم مناخ العصور القديمة، كما أشار إليها محرر قصة يوسف: «فكان جوع في جميع البلدان وأما جميع أرض مصر فكان فيها خبز» التكوين 41: 54. فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر قال لبنيه: انزلوا واشتروا لنا من هناك، فنزل عشرة من إخوة يوسف ليشتروا قمحاً من مصر» التكوين 42: 1-3.

---

(1) وأنا أسوق هذا الرقم اعتماداً على المؤرخ اليوناني ديودورس الصقلي الذي قدر سكان مصر في القرن الأول قبل الميلاد بسبعة ملايين.

فإذا تابعنا البحث عن بذرة تاريخية للقصة، لقلنا إن هؤلاء العمال قد بقوا مدة أربعين سنة مع عائلاتهم في مصر خلال فترة حكم رمسيس الثاني التي دامت قرابة سبعين سنة، وعندما انتهت الحاجة إليهم عمدت السلطات المصرية إلى ترحيلهم، فخرجوا تحت قيادة الشخصية الغامضة موسى وتجولوا في الصحارى الجنوبية لبلاد الشام (سيناء، ومديان، والنقب)، ثم صعدوا إلى الشام التي عاد إليها المناخ المطري، وانضموا إلى الجماعات التي كانت تعود إلى الاستقرار في منطقة المرتفعات الفلسطينية التي كانت قد أفرغت من سكانها بتأثير موجة الجفاف، والتي ربما كانت الموطن الأصلي لهؤلاء قبل هجرتهم إلى مصر. وقد جاءت جماعة موسى إلى كنعان بالإله يهوه الذي لم يكن معروفاً في ثقافات بلاد الشام، والذي لم يستطع الاختصاصيون في اللغة العبرية إيجاد جذر لغوي له لا في هذه اللغة ولا في أي لغة سامية غربية أخرى.

أما عما حصل بعد العودة إلى كنعان فلدينا عنه روايتان؛ الرواية التوراتية، ورواية علم الآثار:

تقول الرواية التوراتية إن موسى قد قاد جماعته إلى شرقي الأردن ومات على جبل نيبو على الضفة الشرقية لنهر الأردن بعد حروب مظفرة خاضها بنجاح، فخلفه في القيادة يشوع بن نون الذي عبر نهر الأردن بعد أن انفلقت مياهه أمام جيشه بمعجزة من الرب، وبعد ذلك قام بحملات عسكرية صاعقة فاستولى على أرض كنعان فيما بين الجليل شمالاً وبئر السبع جنوباً، ثم وزع الأرض المكتسبة على القبائل الاثنتي عشر (سفر يشوع). وبعد ذلك عاشت القبائل كل واحدة في أرضها دونما نظام سياسي مركزي يجمع بينها، وعيّن لهم الرب قضاةً واحداً تلو الآخر، ليفض المنازعات فيما بينهم ويجمع كلمتهم في أوقات الحرب. وقد دامت هذه المرحلة نحو قرن من الزمان ثم إن القبائل تاقت إلى الوحدة فجاء شيوخهم إلى النبي صموئيل، وكان آخر القضاة وقد تقدم في السن، فقالوا له: أنت قد شخت فاجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب. فاختار لهم الشاب شاؤل من قبيلة بنيامين.

وبذلك ولدت المملكة الموحدة لكل إسرائيل التي حكمها على التوالي شاؤل وداود وسليمان، واستمرت من التاريخ المفترض لاعتلاء شاؤل العرش عام 1030ق.م إلى التاريخ المقترض لوفاة سليمان عام 931ق.م. وقد توسعت هذه المملكة في عهد داود حتى اشتملت على كامل فلسطين ومناطق سورية الوسطى والجنوبية فيما بين البحر المتوسط ونهر الفرات. وبعد وفاة سليمان الذي كان أقوى وأغنى ملوك الأرض، انقسمت المملكة الموحدة إلى مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة، ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم العاصمة السابقة للمملكة الموحدة. وقد عاشت مملكة إسرائيل حتى عام 721ق.م عندما ألحقها الآشوريون بإمبراطوريتهم وسبوا خيرات أهلها، وعاشت يهوذا بعدها حتى دمار أورشليم وسبي خيرة أهل يهوذا على يد نبوخذ نصر البابلي عام 587ق.م.

أما رواية علم الآثار الذي شهد نهضة غير مسبوقة في فلسطين على يد علماء الآثار الإسرائيليين منذ أواخر ستينيات القرن العشرين، فتقول لنا إن السكان الجدد في المرتفعات الفلسطينية قد بقوا دون نظام سياسي يجمعهم مدة قرنين من الزمان، وإن المملكة الموحدة لكل إسرائيل لم توجد إلا في خيال المحررين التوراتيين، وملوكها المفترضين في حال وجودهم كانوا مجرد مشايخ قبليين، أما أورشليم عاصمة هذه المملكة فلم تكن مدينة مسكونة خلال كامل القرن العاشر قبل الميلاد، وعصر الملوكية لم يبدأ إلا مع تأسيس مملكة السامرة نحو عام 900 ق.م عندما قام الملك عمري ببناء مدينة السامرة. أما مملكة يهوذا فلم تنشأ إلا بعد أكثر من قرن على نشوء إسرائيل، والمملكتان لم تنشأا عن مملكة موحدة سبقتهما، وما تم اكتشافه من آثارهما يدل على أنهما كنعانيتان لغةً وثقافة وديناً[1]. ولم يكن إله موسى إلا واحداً من الآلهة المعبودة لديهم.

نعود الآن إلى سفر الخروج وبقية أسفار موسى: اللاويين والعدد والتثنية، لمتابعة استقصائنا لشخصية إله موسى.

---

(1) راجع كتاب عالم الآثار الإسرائيلي Israel Finkelstein والمؤرخ N.A.Selberman:
The Bible Unearthed, Free Press, New York, 2001.

الجنرال الإلهي :

مع الخطاب الاستهلالي ليهوه إلى موسى وُلد إله جديد سوف يحاول أن يجد له موطئ قدم له في أرض مليئة بالشعوب وسماء مليئة بالآلهة. ومع هذا الخطاب تحول إله إبراهيم من إله لعائلة إلى إله لشعب اختاره بنفسه. فللمرة الأولى في تاريخ المنطقة يقوم إله باختيار شعب له بعد أن كانت القاعدة هي أن يختار الناس إلههم ويغيرون ولاءاتهم الدينية متى غيروا موطنهم، لأن آلهة الشرق القديم كانت آلهة لأمكنة لا آلهة لشعوب، وكان الإله مالكاً للأرض يدير شؤونها من خلال الملك الذي يحكم بتفويض منه. ولكن يهوه الذي حرر بني إسرائيل ووعدهم بأن يصعدهم من تلك الأرض إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، إلى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين» الخروج 3: 7-9، لم يكن يملك أرضاً ليهبها إلى أحد، ولذلك فقد كان عليه أن يلعب دور الجنرال الإلهي الذي يقود جماعته في حروب بلا نهاية، ويمارس العنف الإلهي بأكثر أشكاله هولاً، ولم يكن يتورع حتى على النزول بنفسه إلى ساح الوغى والالتحام المباشر مع العدو (راجع على سبيل المثال الخروج 13: 24-25). وقد ساعدته طبيعته الأصلية كإله للبراكين على أن يلعب ببراعة دور أمير الحرب الذي لا يقبل إلا بإفناء أعدائه عن بكرة أبيهم، وفق قانون التحريم الذي سنه لموسى، والذي يقضي بإبادة كل نفس حية في المدن المفتوحة في الأرض الموعودة، رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً وحتى المواشي والأنعام. أما شعبه المختار فقد كان يقتل منهم الألاف كلما زاغوا عن عبادته ومالوا إلى آلهة أخرى.

وقد أخرجه هذا الدور من مجال الطبيعة وجعله فاعلاً في التاريخ، وفعله في التاريخ لن يقتصر على البدايات، بل سوف يستمر إلى نهاية السردية التوراتية. وذلك على عكس آلهة الشرق القديم التي كان معظمها مرتبطاً بالحركة التكرارية وغير التاريخية للأجرام السماوية أو الظواهر الطبيعية أو دورة الفصول، فهو الذي قضى بسبي شعبه على يد نبوخذ نصر وهدم أورشليم (عزرا 5: 12). وهو

الذي دفع ممالك الأرض ليد قورش ملك فارس (2 أخبار الأيام 36: 23)، ثم وجهه لإطلاق بني إسرائيل من الأسر في بابل وإعادتهم إلى أورشليم ليعيدوا بناءها (عزرا 1: 1-3).

وعلى الرغم من أن يهوه أمر موسى في سيناء بأن يصنع له خيمة تكون مسكناً له بين شعبه ويضع فيها تابوت العهد الذي يحتوي على اللوحين اللذين خط عليهما بإصبعه الوصية والشهادة، دعيت بخيمة المسكن أو خيمة الاجتماع لأنه كان يجتمع بموسى فيها. وعلى الرغم من أنه كان يسير أمامهم عند ترحالهم على هيئة عماد من سحاب في النهار وعمود من نار في الليل ليهديهم الطريق، إلا أنه على قربه المكاني من شعبه كان أبعد عنهم من قبة السماء. فقد كان محرماً على أحد الاقتراب من خيمة المسكن تحت طائلة الموت، ولا يدخلها إلا موسى والكهنة من أولاد هارون لإقامة الشعائر فيها، وكان الخطأ في أداء هذه الشعائر وفق الطريقة التي استنها يهوه لموسى يُعرض صاحبه للموت الآني. فعندما قَرَّب ابنا هارون أبيناداب وأبيهو ناراً أمام الرب لم يأمرهما بها: «خرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب» اللاويين 1: 1-2. وكانت تصدر عن تابوت الرب قوة مجهولة تؤذي من لا يلتزم بشعائر التعامل معه، أو من لا يُسمح له بلمسه، وهذا ما حصل للمدعو عزة ابن أبيناداب عندما كان يسير إلى جانب التابوت المحمول على العجلة، لأنه مدَّ يده إلى التابوت وأمسكه عندما انشمصت الثيران، فحمي غضب الرب على عزة وضربه هناك فمات (2 صموئيل: 6: 3-8). وعندما تجلى الرب على الجبل قال لموسى أن يُحذّر الشعب من الاقتراب إلى الجبل: «كل من مس الجبل يموت قتلاً، لا تمسه يد بل يرجم رجماً، بهيمة كان أم إنساناً لا يعيش» الخروج 19: 12-13. «وعندما رأى الشعب الرعود والبروق وصوت البرق والجبل يدخن، ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى: تكلم معنا أنت فنسمع ولا يكلمنا الله فنموت» الخروج 12: 18-19.

إن قرب يهوه من بني إسرائيل لم يخلق عندهم نوعاً من الحميمية كما كان حال أفراد البيت الإبراهيمي مع إلههم، بل ولد لديهم إحساساً بحضور قدسي

ينطوي على تهديد دائم، حضور لا يستطيع المرء الاطمئنان إليه أو محبته بل الخوف منه، وهذا الخوف صار ناظماً للعلاقة بين الطرفين حيث نجد تعبير «مخافة الرب» يتردد في جنبات كتاب التوراة. إن الخوف من هذه الألوهة لا يقتصر على كونه رهبة من هوية ما ورائيه غامضة، بل إلى توقع انبثاقها في عالم الواقع وإحداثها أشد أنواع الرعب في القلوب، لأن الطبيعة المتفجرة لإله البراكين هذا كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى شعبه المختار الذي كان عبر أسفار موسى الأربعة يدير وجهه عنه ويتعلق بآلهة أخرى، منذ أن صنع لهم هارون تمثال العجل ليتعبدوا له عندما غاب موسى في الجبل أربعين يوماً وحتى آخر أحداث ملحمة الخروج، فكان يقتل منهم الآلاف في كل مرة، وكانت ضربته الأخيرة لهم في عصر الملك داود عندما أصابهم بالوبأ فمات منهم سبعون ألفاً 02 صموئيل 24: 1-15) ولذلك فقد كانت القرابين الحيوانية هي الوسيلة الوحيدة للتقرب من يهوه واتقاء غضبه. وقد كانت النار تضرم في هذه القرابين ليتشمم الرب رائحتها فيرضى: «وكلم الرب موسى قائلاً: أوص بني إسرائيل وقل لهم قرباني طعامي مع وقائدي، رائحة سروري، تحرصون على أن تقربونه لي في وقته» العدد 28: 1-2.

يهوه وآلهة فلسطين :

عندما وفد الإله يهوه مع جماعة الخروج إلى منطقة المرتفعات الفلسطينية التي تشكلت فيها بعد ذلك مملكتا إسرائيل ويهوذا، تمتع هذا الإله بجاذبية أهلته للانضمام إلى مجموعة الآلهة الكنعانية التقليدية المعبودة في المنطقة منذ القدم، وكان من أبرزها إيل إله السماء ورئيس المجمع وزوجته عشيرة. وبعل إله الطقس والمطر وعناة حبيبته، وعشترة نجمة الصبح. ومع انتقال يهوه من عالم الصحارى الجنوبية إلى عالم الثقافة الكنعانية العريقة، تحضر إله البراكين وأخذت ملامحه بالتغير، ولكي يعزز كهنته موقعه بين الآلهة القديمة راحوا يستعيرون خصائص أهم إلهين في المجمع أي إيل وبعل.

فقد عُزيت إلى يهوه معظم ألقاب الإله إيل التي نجدها في نصوص المدينة الكنعانية القديمة أوغاريت ومنها:

«إيل عليون» أي إيل العالي أو السامي أو المتعالي، ويرد في النص التوراتي بصيغة «الله العلي» (التكوين 14: 22). وقد يرد بصيغة «عليون» فقط (المزمور 18 و21، ودانيال 7: 9).

«إيل عولام» أي إيل الأبدي، ويرد في النص التوراتي بصيغة (إيل السرمدي) (التكوين 21: 33).

«أب شنم» أي أبو السنين، بمعنى أن سنوات عمره لا تُعد، وقد ورد هذا اللقب في النص بمعناه لا بلفظه فقيل (القديم الأيام)» (دانيال 7: 9). وقيل «وسنوك لا تنتهي» (المزمور 102). وأيضاً: «وعدد سنيه لا يُفحص» (أيوب 36: 26).

«أدون إيليم» أي سيد أو رب الآلهة، ويرد في النص بصيغة (إله الآلهة) (يشوع 22: 22، والمزمور 50 و97، والتثنية 42: 5).

«بني بنوات» أي خالق الخلائق. وإيل قوني إرص، أي خالق الأرض (راجع سفر يهوديت 9: 17، والمزمور 95: 6، وإشعيا 40: 28 و42: 5).

«إل فؤاد»، أي إيل الرحيم. وقد وردت في النص بصيغة، راحوم (الخروج 34: 6، والمزمور 86: 15).

«إيل ثُرْ» أي الثور إيل، وهو وصف يدل على القوة في الميثولوجيا السورية مستمد من عالم الطبيعة. وقد ورد هذا الوصف ليهوه بلفظه الأوغاريتي الذي يحمل المعنى نفسه، إلا أن الترجمات العربية والأوروبية قد عتمت على هذا اللقب وأبقت على مدلوله، فقالت «عزيز» بمعنى قوي بدلاً من ثور (التكوين 49: 24، المزمور 132: 1، إشعيا 19: 26).

أما الإله بعل رب العاصفة والمطر والرعد والبرق والصاعقة، فقد كان أقوى الآلهة السورية وأكثرها شعبية، في زمن انسحب فيه كبير الآلهة إيل إلى سمائه العالية كملك اسميٍّ يملك ولا يحكم، وأخلى مكانه إلى بعل الذي أعطته

مجالات عمله شخصيتين؛ الأولى شخصية البطل المحارب الذي يقهر أعداءه بسلاح البرق والصاعقة، ويخيفهم بصوته الرعاد. نقرأ في أحد نصوص مدينة أوغاريت: «عندما يردد البعل كلماته ويعلو صوته القدوس، ترتج الأرض والجبال تَروّع، يرتجف الأعداء أعداء بعل فيهربون إلى الوعور، ومبغضو هدد[1] يلجؤون إلى جوف الجبال. أما الشخصية الثانية فشخصية الإله المُنْعِم الذي يحيي الأرض بمطره ويرعى دورة الفصول، ولذلك فقد حمل لقب راكب السحاب، لأنه يمتطي الغيوم الماطرة ليسقي بها الأرض البوار.

وقد استعار محررو الأسفار التوراتية ليهوه هاتين الشخصيتين من خلال التعابير الأوغاريتية نفسها، فقالوا في يهوه المحارب: «يقوم الله، يتبدّد أعداؤه ويهرب مبغضوه من أمام وجهه، كما يُذرى الدخان بذريهم، كما يذوب الشمع قدام النار يبيد الأشرار قدام الله... اللهم عند صعودك في القفر الأرض ارتعدت والسماوات أيضاً قطرت» (المزمور 68: 1-9). «ارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت... أرعد الرب من السماوات والعلي أعطى صوته بَرَداً وجمر نار، أرسل سهامه فشتتهم، وبروقاً كثيرة أزعجتهم، فظهرت أعماق المياه، وانكشفت أسس المسكونة من زجرك يا رب» (المزمور 18: 8-15).

وتبلغ الاستعارة من اللغة الكنعانية حد التطابق التام بين النص الأوغاريتي والنص التوراتي، كما هو الحال في هذا المقطع من المزمور 92: 9:

نصوص البعل	المزمور 92
ها أعداؤك يا بعل	هو ذا أعداؤك يا رب
ها أعداؤك سوف تقتلهم	هو ذا أعداؤك يبيدون
ها أعداؤك سوف تبيدهم	يتبدد كل فاعلي الإثم

(1) هدد هو الاسم الأصلي لهذا الإله، أما البعل فهو لقب له، ويعني السيد أو الرب.

وتظهر شخصية الإله المنعم راكب السحاب في مقاطع مثل:

«الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح، الصانع ملائكة رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة... المفجر عيوناً في الأودية بين الجبال تجري تسقي كل حيوانات البر... المنبت عشباً للبهائم وخضرة لبني الإنسان لإخراج خبز من الأرض وخمر تفرح قلب الإنسان» المزمور 104: 2-15. «ليس مثل الله يا يشورون (=إسرائيل) يركب السماء في معونتك والغمام في عظمته» التثنية 23: 26. «وهو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر» إشعيا 19: 1. «من فرّع قنوات الهطل وطريقاً للصواعق ليمطر على أرض حيث لا إنسان» أيوب 38: 25-27. «إذا أعطى قولاً تكون كثرة ماء في السماوات، ويعد السحاب من أقاصي الأرض. صنع بروقاً للمطر وأخرج الريح من خزائنه» إرميا 10: 13.

وقد خاض بعل معركتين حاسمتين من أجل بسط سلطانه، الأولى ضد الإله «يم» الذي يمثل الغمر المائي البدئي، والثانية ضد الإله مُت (=موت) إله الجفاف والبوار والموت والعالم الأسفل الذي ترحل إليه أرواح الموتى.

يجري المشهد الافتتاحي لقصة البعل. المنقوشة بالأبجدية الأوغارتيية على الرقم الطينية، في الأزمان البدئية بعد أن خلق كبير الآلهة إيل العالم. ولكن العالم الذي ظهر حينذاك لم يكن قد تنظم بعدُ بل في حالة تشوش وفوضى يرعاها الإله يم أي البحر. ذلك أن الماء في هيجانه وتمرده على اتخاذ هيئات ثابتة يعبر أبلغ تعبير عن حالة العماء والتشوش التي كانت تسود الوجود. وقد أخذ يم يُعبر عن رغبته في بناء هيكل له يرمز إلى قوته وسلطانه، فلبى له إيل مطلبه هذا. ولكن صوتاً معارضاً ارتفع ضد هذا التدبير هو صوت الإله الشاب بعل الذي كان راغباً في وضع حد للفوضى وإحلال النظام في العالم، فأعلن تحديه ليم واستعداده للدخول معه في صراع تُحدد نتيجته شكل العالم المقبل. وقد جاءت النتيجة لصالح البعل الذي صرع يم في الجولة الثانية من العراك فصار أسيراً عنده يتحكم بمائه كما يشاء. ثم إن بعل عبّر عن رغبته في بناء هيكل له فوافق إيل على ذلك،

وشرع إله الحِرف اليدوية والصناعة ببناء الهيكل على قمة جبل صافون مستخدماً الفضة والذهب في ذلك، ثم إن البعل جلس على عرشه في الهيكل وراح ينظم شؤون الطبيعة ودورة الفصول:

الآن يكثر البعل من مطره
الآن يكثر البعل من ثلجه
صوته يرعد في السحب
يرسل ضياءه إلى الأرض بروقاً

وأيضاً:

الآن وقد أقام البعل في قصره
لن يحكم أحد على الأرض سواه
لأنه وحده من يسود على الآلهة
وحده من يعيل الآلهة والناس
وحده من يطعم جموع الأرض

وفي ثنايا قصة البعل تجري الإشارة إلى صراع بعل ويم بصورة أكثر رمزية، حيث يظهر يم في صورة تنين بحري أو حية بسبعة رؤوس:

الآن سوف تسحق
لوتان الحية الهاربة
الآن تريد أن تجهز
على الحية المتحوية
شالياط ذات الرؤوس السبعة

هذه الأسطورة التي تقص عن ترويض المياه الأولى كمقدمة لتنظيم العالم، والتي تنتهي بجلوس البعل ملكاً في هيكله، تعود إلى الظهور في ثنايا كتاب

التوراة، ففي المزمور 29 الذي يبدو وكأنه أنشودة قديمة للبعل، تم تبنيها من قبل المحرر التوراتي بعد تغيير اسم الإله، لدينا ثلاث أفكار تقوم عليها بنية النص تتطابق مع أفكار قصة البعل. ففي البداية يتسلط يهوه على مياه الغمر البدئي التي ينتهرها بصوته الراعد الآمر، فيخضعها ويطامن من لجحها. ثم يقدح صوت الرب البروق والصواعق فتهابه الأحياء والجمادات، وفي نهاية هذه الأعمال يجلس في هيكله على العرش ملكاً على الكل:

«صوت الرب على المياه أرعد، الرب فوق المياه الكثيرة، صوت الرب بالقوة، صوت الرب بالجلال... صوت الرب يقدح لهب نار، صوت الرب يزلزل البرية برية قادش، صوت الرب يولد الأيل ويكشف الوعور، وفي هيكله الكل قائل: مجد. الرب بالطوفان جلس، ويجلس في هيكله ملكاً إلى الأبد» المزمور 29: 2-11.

وفي المزمور 104 لدينا إشارة أخرى إلى ترويض مياه الغمر البدئي:

«باركي يا نفس الرب... المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر وإلى الأبد، كسوتها الغمر كثوب، فوق الجبال تقف المياه، من انتهارك تهرب من صوت رعدك تفر، تصعد إلى الجبال تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي خصصته لها. وضعتَ لها تخماً لا تتعداه لا ترجع لتغطي الأرض» المزمور 104: 1-9.

وفي سفر أيوب لدينا خطاب ليهوه في الموضوع نفسه موجهٌ إلى أيوب:

«أين كنتَ حين أسستُ الأرض، أجب إن كان عندك فهم، من وضع قياسها؟... ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم، إذ جعلتُ السحاب لباسه والضباب قماطه، وجزمتُ عليه حدي وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلتُ إلى هنا تأتي ولا تتعدى، وهنا تخوم كبرياء لجحك» أيوب 38: 4-11.

وفي المزمور التالي نجد كيف كان انتصار يهوه على اليم مدخلاً إلى فعاليات الألوهة في التكوين والتنظيم كما كان الحال في قصة البعل:

«أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رؤوس التنانين على المياه، أنت رضضت رؤوس لوياثان... أنت فجرت سيلاً وعيناً... أنت هيأت النور والشمس، أنت نصبت كل تخوم البرية، الصيف والشتاء أنت خلقتهما» المزمور 74: 13-17.

ونلاحظ هنا كيف عبر النص التوراتي رمزياً عن اليم البدئي بتنين يدعى لوياثان، والكلمة صيغة معدلة عن اسم تنين البعل المدعو لوتان.

ليست هذه سوى نماذج من استعارة الأدب التوراتي من الأدب الكنعاني القديم، عندما كان يرسم شخصية جديدة للإله يهوه، ولكن مجال هذا البحث لا يسمح لنا بأكثر مما أوردناه.

المعركة الخاسرة

الصراع بين يهوه وبعل :

لم يكن إيل ليشكل حجر عثرة في طريق صعود يهوه، لاسيما بعد أن حاز على جميع ألقابه وتطابق معه وحمل اسمه. نقرأ في سفر إشعيا: «أنتم شهودي يقول الرب وأنا الله». والأصل العبري لهذه الآية: «أنتم شهودي وأنا إيل» أشعيا: 93: 12. ولدينا دليل أركيولوجي وهو عبارة عن نقوش كتابية في موقع خربة الكوم قرب مدينة الخليل، وفي موقع أجرود في شمال سيناء، ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد، تقول لنا إن الإلهة الأوغاريتية عشيرة زوجة إيل كانت في ذلك الوقت زوجة للإله يهوه. وهذه ترجمتها:

«لتحل عليك بركة الإله يهوه وعشيرته».

«لتحل عليك بركة يهوه إله السامرة وعشيرته».

«لتحل عليك بركة يهوه إله تيمان وعشريته».

«لتحل عليك بركة يهوه وعشيرته. ليباركك ويحفظك ويكون إلى جانبك».

وقد قام المؤرخ وعالم الآثار الأميركي المعروف ويليم ديفر، في كتابه Did God have a wife، بتقصي الدلائل على وجود زوجة ليهوه في الموروث الفلسطيني القديم، وخلص إلى نتيجة مفادها أن عبادة يهوه وعشيرته كانت جزءاً من الدين الشعبي الفلسطيني قبل السبي الآشوري والسبي البابلي[1].

ولكن كان من الصعب على هذا الإله الجديد على المشهد الديني الكنعاني أن يزيح الإله بعل من طريقه، فقد كانت عبادة هذا الإله متجذرة في سورية إما تحت اسمه الأصلي هدد أو لقبه البعل (التي تعني الرب أو السيد). كما حمله معهم الآموريون الذين رحلوا من الشام إلى بلاد الرافدين مطلع الألف الثاني قبل الميلاد وأسسوا المملكة البابلية القديمة. ولذلك فإن مطلب يهوه أن يعبد وحده من دون بقية الآلهة (على ما ورد في الوصية الأولى من الوصايا العشر: لا يكن لك آلهة أخرى أمامي – الخروج 20: 2) لم يتحقق طيلة تاريخ بني إسرائيل وصولاً إلى السبي. لقد اختار يهوه إسرائيل شعباً له ولكن بني إسرائيل لم يختاروه إلهاً واحداً، وغالباً ما أداروا ظهورهم له وعبدوا الآلهة القديمة وعلى رأسها بعل. وسوف اكتفي هنا بتقديم مثال واحد أو أكثر من كل مرحلة من مراحل السردية التاريخية في التوراة.

فبعد مرور ثلاثة أشهر على خروجهم من مصر وعهدهم الذي قطعوه لموسى بأن يعبدوا إلهه، صنع لهم هارون بناء على طلبهم عجلاً ذهبياً تعبدوا له. وعندما وصل بهم موسى إلى الأطراف الجنوبية للشام: «تعلق إسرائيل ببعل فغور[2]، فقال الرب لموسى: خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم أمام الشمس فيرتد حموّ غضب الرب عن إسرائيل، فقال موسى لقضاة بني إسرائيل: اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور» العدد 25: 1-5.

وعندما قادهم يشوع بن نون إلى أرض كنعان بعد وفاة موسى كانت الآلهة الغريبة ما زالت بينهم، فقال لهم يشوع: «فالآن انزعوا الآلهة الغريبة التي في

(1) William G.Dever. Did God Have a Wife, Eerdmans, Michigan, U.S.A 2003.

(2) فغور هو اسم جبل في ارض موآب.

وسطكم وأميلوا قلوبكم إلى الرب إله إسرائيل. فقال الشعب: الرب إلهنا نعبد ولصوته نسمع» يشوع 34: 23-24.

فإذا جئنا إلى عصر المملكة الموحدة، نجد أول ملوكها شاؤل وقد أمضى معظم سنوات حكمه في صراع مع يهوه لأنه خلعه عن المُلك وأعطاه لداود فلم يقبل شاؤول ولم يرضخ لحكم الرب، حتى إنه في إحدى المرات حمل على نوب مدينة الكهنة وقتل 85 من كهنة يهوه (صموئيل الأول 22: 17-20)، كما حاول مراراً اغتيال داود. أما الملك الثالث سليمان فبعد بنائه لهيكل يهوه في أورشليم أظهر ميلاً للآلهة الأخرى وبنى لها المقامات الدينية على جبل الزيتون المقابل لجبل الهيكل، ولم يتبع الرب كداود أبيه، فغضب الرب على سليمان لأنه لم يحفظ عهده وفرائضه، وقال له أنه سوف يمزق المملكة عنه بعد وفاته (الملوك الأول 11: 1-13).

ولم تكن علاقة ملوك المملكتين بعد ذلك، ومن ورائهم الشعب، بأفضل حالاً.. فقد قام بربعام الملك الأول على إسرائيل بإحياء عبادة بني إسرائيل للعجل في سيناء، عندما بنى مقامين دينيين ووضع في كل منهما تمثالاً للعجل الذهبي، وقال للشعب هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر (الملوك الأول 12: 25-33). وقد سار بقية ملوك إسرائيل وشعبها على خطى بربعام وأداروا ظهورهم للرب وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل. ولذلك يختم محرر سفر الملوك الثاني قصة المملكة بقوله: «وسلك بنو إسرائيل في جميع خطايا بربعام التي عمل لم يحيدوا عنها، حتى نحى الرب إسرائيل من أمامه فسبى إسرائيل إلى آشور حتى اليوم، وأتى ملك أشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفروديم وأسكنهم في مدن السامرة» الملوك الثاني 17: 22-24.

ثم يقول المحرر في الإصحاح نفسه ملخصاً قصة مملكة يهوذا وعصيانها على الرب، والتي سيسردها فيما تبقى من سفر الملوك الثاني:

«ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا في فرائض إسرائيل التي عملوها، فرذل الرب كل نسل إسرائيل وأذلهم، ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من أمامه» الملوك الثاني 17: 19-20.

وسوف أتوقف فيما يلي عند آخر حلقة من حلقات قصة يهوذا، وعصيانها وهي التي يرويها محرر سفر النبي إرميا. فقد كان من عقابيل الحملة البابلية على أورشليم، نزوح جماعة من أهل يهوذا إلى مصر وبينهم إرميا النبي الذي تابع تبشيره بينهم هناك، وتبين لنا الحوارات التي جرت بينه وبين قومه طبيعة دين أهل يهوذا خلال الهزيع الأخير من حياة المملكة. فعندما هددهم إرميا بالشر الذي سيجلبه عليهم يهوه إذا استمروا في غيهم، قالوا له إن ما حل بهم لم يكن بسبب تقصيرهم في عبادة يهوه بل لأنهم لم يعطوا آلهة آبائكم حقها:

«فأجاب كل الرجال إرميا قائلين: إننا لا نسمع لك الكلمة التي كلمتنا بها باسم الرب، بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا فنبخّر لملكة السماوات ونسكب لها سكائب[1] كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير. ولكن حين كففنا عن التبخير لملكة السماوات وسكب سكائب لها احتجنا إلى كلّ وفنينا بالسيف والجوع» إرميا 44: 15-18.

من التعددية إلى عتبة التوحيد :

خلال هذا المد والجزر بين عبادة اليهوه والعبادات التقليدية، ظهرت الحركة النبوية التي وقفت بقوة إلى جانب عبادة يهوه وحده وحاربت كل مظاهر التعددية سواء في إسرائيل أم في يهوذا، من أمثال إيليا (=إلياس) واليشع وبقية الأنبياء المذكورين في القسم الخاص بالأنبياء في الكتاب. وعلى الرغم من الحرارة التي ميزت خطاب هؤلاء، إلا أن كدحهم لم يعط ثماره إلا خلال فترة السبي، وبقوا مع الفئة القليلة التي التأمت من حولهم أقلية لم يسمع لصوتها أحد.

---

(1) السكائب: جمع سكيبة، وهي ما يراق على الذبيحة من الخمر قبل إحراقها.

فما الذي حصل خلال فترة السبي؟

لقد أحدث دمار أورشليم وزوال مملكة يهوذا القديمة عن الخارطة السياسية للمنطقة خطاً فاصلاً فيما يدعى بتاريخ إسرائيل لدى المؤرخين المحدثين، الذين قسموه إلى مرحلتين هما ما قبل دمار أورشليم ويدعى بالتاريخ الإسرائيلي، وما بعده ويدعى بالتاريخ اليهودي. فلقد أحدث الدمار والسبي البابلي أعمق أزمة في تاريخ دين إسرائيل، قادت إلى تحطيم بنيته القديمة، ووضع أسس لدين جديد تمتد جذوره في عمق دين كنعان. وقد أدت هذه الأزمة إلى حصول يهوه أخيراً على مراده في وحدانية العبادة، بعد نحو سبعة قرون من قوله لموسى «لا يمكن لك آلهة أخرى أمامي... لأني أنا الرب إلهك إله غيور» الخروج 20: 3-5.

في المنفى راحت صفوة عقول أهل يهوذا تتساءل عن السبب وراء الكارثة التي حلت بهم، فكان صوت أولئك الأنبياء يقدم لهم الجواب. ويعرض لنا محرر سفر إرميا هذه المسألة بصيغة حوار بين الرب وشعبه:

* لماذا صنع الرب إلهنا بنا كل هذه؟

- كما أنكم تركتموني وعبدتم آلهة أخرى غريبة في أرضكم، هكذا تعبدون الغرباء في أرض ليست لكم (إرميا 5: 19).

* لماذا بادت الأرض واحترقت كبرية بلا ساكن؟

- على تركهم الشريعة التي جعلناها أمامهم (إرمياً 9: 12-13).

* لماذا تكلم الرب علينا بكل هذا الشر العظيم؟

- من أجل أن آباءكم قد تركوني وأنتم أسأتم أكثر من آبائكم.

وهذا يعني أن الكارثة التي حلت بيهوذا لم تكن نتيجة للقوة العسكرية الآشورية، ولكنها كانت من عمل يهوه عقاباً لها على خطاياها. وهذا ما قاد أولئك المفكرين إلى الاعتقاد بأن التوبة إلى الرب والقبول بعقابه هو الطريق الوحيد لإصلاح أحوالهم:

«أذكر يا رب ماذا صار لنا، صرنا أيتاماً بلا أب... آباؤنا أخطأوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم... ويل لنا لأنا أخطأنا... لماذا تنسانا إلى الأبد... اردنا يا رب فنرتد... هل كل الرفض رفضتنا؟» مراثي إرميا 5: 1-23. وبما أن يهوه قد أعلن في أكثر من مناسبة أنه سيعود إلى شعبه إن هم عادوا إليه، فإن محرر سفر أشعيا الثاني[1] الذي يقص عن أحوال المسبيين يعلن بفرح أن الرب قد غفر لشعبه وعاد إليهم: «عزوا، عزوا شعبي يقول إلهكم، طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل وأن إثمها قد عُفي عنه» أشعيا40: 1-2.

وهنا نأتي إلى النقلة الحاسمة في لاهوت التوراة؛ فلكي يكون بمقدور يهوه إنقاذ شعبه الصغير والمستضعف من يد أعتى قوة عالمية في ذلك الوقت هي بابل، عليه أن يكون هو نفسه كبيراً وقوياً، إلهاً مسيطراً على العالم كله وقادراً على التحكم بقرارات ملوكه. وقد حقق هذه النقلة محرر أشعيا الثاني الذي عاصر السبي، وذلك في بضع آيات موزعة في القسم الأخير من سفر أشعيا: «أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري» 44: 6. «هل يوجد إله غيري وصخرة لا أعلم بها» 44: 6. «أنا الرب وليس آخر ولا إله سواي» 45: 5. «أنا الأول وأنا الآخر يدي أسست الأرض ويميني نشرت السماوات» 48: 13. «لي تجثو كل ركبة، يحلفُ كل لسان» 46: 23. «بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب» 56: 7.

وبهذه الطريقة تمّت ترقية إله مملكة صغيرة منهارة في الجنوب السوري إلى مرتبة الإله الواحد، وها هو يحكم على بابل بالزوال لكي يطلق شعبه من الأسر: «إنزلي واجلسي على التراب أيتها العذراء ابنة بابل... ابنة الكلدانيين... لأنك لا تعودين تدعين سيدة الممالك» أشعيا 47: 1-5. ولهذه الغاية فقد سخّر الملك الفارسي قورش وأعانه على دخول بابل وألهمه أن يطلق بني إسرائيل ليعيدوا بناء أورشليم وهيكلها (أشعيا 45: 1-8، وعزرا 1: 1-4). وقد انطلقت الدفعة الأولى

(1) أشعيا الثاني هو القسم الأخير من سفر أشعيا، ويتضمن الإصحاحات من 40 إلى 66، ومحرره متأخر عن أشعيا الأول.

من العائدين، وفق سفر عزرا، في السنة الأولى لدخول قورش بابل، أي عام 539ق.م. ومع العودة انطلقت عملية فكرية كان هدفها كتابة تاريخ إسرائيل من خلال منظور إيديولوجي تبلور خلال السبي. وقد قادت هذه العملية خلال ثلاثة قرون إلى إنتاج الأسفار التوراتية من خلال مقاربة انتقائية تمزج بين الوقائع وتفسيرها، وعندما تعوزها الوقائع تعمد إلى ابتكارها، وهكذا ظهرت إسرائيل التوراتية فوق ركام مملكتي إسرائيل ويهوذا الكنعانيتين.

أما لماذا نقول إن العقيدة التوراتية لم تتوصل إلى التوحيد وإنما إلى عتبة التوحيد، فلأن إلهها على وحدانيته الظاهرية إلهٌ لإسرائيل وخصم للأمم الأخرى، ولم يكن رفعه إلى هذا المقام إلا رفعاً لمكانة إسرائيل لأن يهوه هو إلهها وسكناه في أورشليم. وها هو أشعيا الثاني الذي قدم لنا أول وآخر الأفكار التوحيدية، يُعبر عن آماله المستقبلية في أن تتحول كل الأمم إلى عبيد لإسرائيل:

«هكذا قال الرب: ها إني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي، فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكتاف يُحملن. ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك، فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخزى منتظروه... وأنا أخاصم مخاصميك وأخلّص أولادك وأطعم ظالميك لحم أنفسهم، ويسكرون من دمائهم كما من سلاف، فيعلم كل بشر أني أنا الرب فاديك ومخلصك» أشعيا 49: 22-26.

هل هو الله؟

في تاريخ الأفكار الدينية لكي يرتفع الكائن القدسي من مرتبة «الإله» إلى مرتبة «الله»، عليه أن يتمتع بالخصائص والصفات التالية التي لا تتوفر ليهوه:

1- واحد لا إله غيره: لقد قال الله لموسى بالقرآن في أول خطاب له: «يا موسى... إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني» طه: 13-14. أما يهوه فقال لموسى التوراتي: «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي... لأني أنا الرب إلهك إله غيور» الخروج 20- 3-4. وغيره يهوه من الآلهة الأخرى دليل على وجودها، لأن

الغيرة لا تكون من كائنات خيالية، ووجودها مؤكد في مقاطع مثل: «الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة» الخروج 18: 11. «لأن إلهنا أعظم من جميع الآلهة» أخبار الأيام الثاني: 2: 5. «لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة» التثنية 10: 17. «إله الآلهة، الرب إله الآلهة» يشوع 22: 22.

2- كلّي القدرة: ويهوه لم يكن كذلك، لأن الحية، وهي كائن غامض يصفها النص بأنها أحيل جميع حيوانات البرية، استطاعت تقويض خطته فيما يتعلق بالإنسان الذي دفعته إلى التمرد على الرب بأكله من الشجرة المحرمة، ولم يستطع يهوه حيالها سوى التعبير عن غضبه: «ملعونة أنت من جميع البهائم...إلخ» التكوين 3: 14. هذا الكائن الغامض لم يكن مجرد حيوان ذي حيلة، بل كان كائناً ما ورائياً يتمتع بالقدرة التي ليهوه حملته على تحديه، ولذلك فقد طابقت الأدبيات الدينية اليهودية، التي نشأت على هامش التوراة، بينه وبين الشيطان.

3- كلي المعرفة: ويهوه لم يكن كذلك، لأنه عندما انتابه الشك في مدى طاعة إبراهيم له أمره بأن يذبح ابنه ويقدمه له قرباناً لكي يتأكد من طاعته. وعندما مد إبراهيم يده إلى السكين ناداه قائلاً: الآن عرفت أنك خائف الله (التكوين 22). وقد فعل الشيء نفسه مع العبد الصالح أيوب، عندما سبب له الكوارث والمصائب ليعرف ما إذا كان يتقيه مجاناً أم للنعم التي أسبغها عليه (أيوب: 1-2).

4- كلي الحضور: ويهوه لم يكن كذلك. فقد كان غائباً عندما أكل آدم من الشجرة، لذلك سأله: «هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها...» التكوين 3: 12. وكان غائباً طيلة 400 سنة عندما كان بنو إسرائيل في العبودية: «وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الله، فسمع أنينهم وتذكر ميثاقه مع إبراهيم» الخروج 2: 23-25.

5- كلّي الخير: ويهوه لم يكن كذلك. لأن شرور هذا العالم هي من صنعه: «مصور النور وخالق الظلمة، صانع السلام وخالق الشر» أشعيا 45: 7. وهو ينتقم

من الخطأة في أبنائهم الذين لم يخطئوا: «أفتقدُ ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيَّ» التثنية 5: 9. وفي كل مرة كان الفرعون يرفض إطلاق بني إسرائيل، كان يهوه يجلب الكوارث على شعب مصر، وكان آخرها أن قتل من كل عائلة ابنها البكر، من بكر الفرعون إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة، ولم يكن بيت ليس فيه ميت (الخروج 12: 29-31). فما الذي فعله المصريون حتى يستحقوا هذا العقاب، وهم الذين لم يسمعوا بإله موسى؟

* * *

لقد قصرت اليهودية سواء في التوراة أم في التلمود عن تجاوز عتبة التوحيد، ولكنها مهدت الطريق أمام المسيحية لإرساء مفهوم «الله» كإله للبشرية جمعاء لا لشعب بعينه.

2- من يهوه إلى الآب
دين يسوع

يسوع الجليلي :

تشكل منطقة الجليل امتداداً منخفضاً لجبل لبنان والجبال الساحلية السورية، على هيئة هضاب خصبة تنمو فيها الحبوب والمزروعات المتوسطية، ويفصلها عن المرتفعات الفلسطينية وادي يزرعيل (أو مرج بني عامر) الذي يمر فيه الطريق الدولي الصاعد من مصر عبر السهول الساحلية نحو الداخل السوري. أما سكانها فكانوا من إثنيات متنوعة، ومع تعدد الإثنيات فقد تعددت اللغات وتنوعت الآلهة المعبودة، ولم يشكل اليهود بينهم قبل القرن الأول ق.م سوى قلة لا تذكر. ولذلك دُعي الجليل في التوراة بجليل الأمم (أشعيا 19: 1) وكذلك في إنجيل متى (متى 4: 15). وقد جاء هذا التنوع نتيجة للغزو الآشوري لمملكة إسرائيل/السامرة التي كان ملوكها قد بسطوا سلطانهم على الجليل، فنال أهله من السبي ما نال أهل السامرة، وجاء الآشوريون بسكان جدد من المناطق المقهورة الأخرى حلوا محلّ سكانها.

وعلى ما تشير الدلائل الأركيولوجية، فإن صلات الجليل الثقافية عبر تاريخه كانت مع فينيقيا والعالم السوري الأوسع أكثر من صلاته مع فلسطين. وحتى عندما ظهرت السامرة كقوة إقليمية في المنطقة السورية، لا يتوفر لدينا دليل على علاقات ثقافية للجليل بها. فالفخاريات وبقية اللقى الأثرية المكتشفة فيه تدل على مؤثرات فينيقية. أما عن الصلات السياسية للجليل خلال المرحلة التي تهمنا من تاريخه، فيبدو أنه وقع خلال الهزيع الأول من الألف الأول قبل الميلاد تحت سيطرة صور الفينيقية آناً، وتحت سيطرة دمشق آناً آخر، كما وقع تحت سيطرة السامرة قبل وقت قصير من الغزو الآشوري، تنقصنا المعلومات

عن الجليل خلال العصر الفارسي، أما في العصر اليوناني عندما آلت سورية إلى سلوقس الأول، أحد قادة الإسكندر ومؤسس الأسرة السلوقية التي حكمت سورية، فقد تهلين الجليل في جميع مناحي حياته الثقافية. وفي العصر الروماني نشأت فيه مدن جديدة بنيت على الطراز اليوناني أهمها طبريا، وسيفوريس (=صفورية) أكبر مدنه.

في هذه البيئة الثقافية المنفتحة ولد يسوع المسيح وقضى طفولته وشبابه وحياته التبشيرية القصيرة.

في المقابل، فقد كانت مقاطعة «اليهودية» التي قامت على جزء من أراضي يهوذا القديمة تعيش في عزلة عن كل مؤثر خارجي تتعبد للتوراة ولإله العهد القديم في هيكل أورشليم الذي أعاد بناءه العائدون من السبي، وكانت السلطة الدينية والسياسية فيها بيد الكاهن الأعلى وبطانة الهيكل.

في عام 175 ق.م ورث عرش المملكة السورية السلوقية أنطوخيوس الرابع (أبيفانوس)، الذي كان تواقاً إلى استكمال مشروع هلينة سورية، فكان من أهم الوسائل التي اتبعها في ذلك إحلال القانون المدني السلوقي محل القوانين المعمول بها في المدن الكبرى، من أجل دمج المجتمعات الصغيرة في المجتمع الموحد للدولة. كما عمد إلى مطابقة الآلهة السورية المحلية مع الآلهة اليونانية بحيث يكون كل إله سوري نسخة من أحد الآلهة اليونانية. ولكنه عندما حاول ذلك في أورشليم واجهه اليهود بتمرد اتخذ تدريجياً شكل حرب عصابات قادها المدعو متّى حشمون وأولاده الخمسة الذين كان من أبرزهم يهوذا الملقب بالمكابي، وهو اللقب الذي دعيت به هذه الحركة الثورية. في عام 164 ق.م وعقب وفاة العاهل أنطوخيوس الرابع، أفلح يهوذا المكابي في طرد الحامية السلوقية من أورشليم. وفي عام 143 ق.م أعلن سمعان آخر الإخوة المكابين استقلال المقاطعة تحت قيادته ككاهن أعلى وحاكم سياسي، مفتتحاً عصر الأسرة المكابية الذي دام حتى الفتح الروماني لسورية عام 64 ق.م.

ومع تراخي قبضة العرش السوري في أنطاكية على الدويلات التي يحكمها، نتيجة للصراعات المتتالية داخل الأسرة السلوقية، ازداد عدد الدويلات التي أعلنت استقلالها، أما المكابيون فقد أخذوا بتوسيع نفوذهم حتى اشتمل على كامل المنطقة الفلسطينية، بما في ذلك الجليل، حيث ركزوا جهودهم على تهويد أهله بالقوة ونجحوا في ذلك إلى حد بعيد، وكان ذلك عام 104ق.م أي قبل أربعة أجيال من ميلاد يسوع المسيح. ولكن اليهودية بقيت قشرة سطحية تعلو ثقافة ومجتمع الجليل، والأدبيات اليهودية تتحدث عن قلة دين هؤلاء وجهلهم بأداء الطقوس والواجبات الدينية اليهودية، وعدم وجود علماء شريعة لديهم يعلمونهم أصول دينهم.

عندما دخل الرومان سورية أعادوا تشكيلها الإداري والسياسي، فأنهوا عملياً دولة المكابيين وعينوا المدعو هيركانوس حاكماً عليها، وكان لوزيره الداهية انتيبار الآدومي الفضل في ذلك. وكان انتيبار هذا قد تهود بسبب طموحاته السياسية. وبعد فترة الاضطرابات التي تلت اغتيال يوليوس قيصر عينت روما هيرود ابن انتبار ملكاً على فلسطين ومنحته سلطات واسعة، فمد نفوذه على كامل الجنوب السوري، وهو الذي أعاد بناء هيكل أورشليم عن طريق توسعته إلى الضعف والزيادة عليه، وجعل منه أكبر معبد في الإمبراطورية الرومانية. كان هيرود يهودياً بالاسم مثل أبيه، وقد حمل لقب «العربي» إضافة إلى لقب «الكبير» لأن أباه آدومي وأمه نبطية. وكان محباً للهيلينية فبنى عدداً من المدن الجديدة على الطراز اليوناني وشيد فيها المعابد للآلهة المحلية والآلهة اليونانية، وهذا ما جعله في حالة صراع مع رعيته من اليهود. حكم هذا العاهل نحو ثلاثين سنة وتوفي عام 4 ق.م. وقبل وفاته بعامين وُلد يسوع المسيح.

النجار الثائر :

كان يسوع نموذجاً للشخصية الجليلية المنفتحة على العالم من حولها، كما تمتع بشخصية كارزمية عبّر عنها مؤلفو الأناجيل بقولهم إنه كان يتحدث بسلطان

لا كرجال الدين اليهودي (مرقس 1: 22، ومتى 7: 28). ولكن الغموض يلف حياته قبل أن يظهر للعلن كمعلم ومبشر، والأناجيل التي قصت علينا سيرته، لا تتطرق إلى أحداث طفولته ويفاعته وشبابه والأسرة التي نشأ فيها. وقصة ميلاده الإعجازي من امرأة عذراء، لم يروها إلا اثنان من الإنجيليين وتجاهلها الآخران، الأمر الذي دعا الباحثين غير الكهنوتيين لاعتبارها أسطورة أُلحقت بالسيرة لا يعول عليها. فإنجيل مرقس أول الأناجيل تدويناً وأقربها إلى حقيقة ما حدث. يبدأ بجملة: «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله». وفي هذه الجملة لا يوجد أي طرح ميتافيزيكي بخصوص طبيعة يسوع، لأن الله أعلنه ابناً له بعد أن تعمد بالماء على يد يوحنا المعمدان عند نهر الأردن في القصة الأولى التي يرويها مرقس بعد الافتتاحية: «وللوقت وهو صاعد من الماء، رأى السماء قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه، وكان صوت من السماء: أنت ابني الحبيب الذي به سررت». ومرقس هنا لا يخرج عن تقاليد العهد القديم ولا عن اللغة التوراتية عندما أعطى يسوع لقب المسيح. فملوك المملكة الموحدة لكل إسرائيل؛ شاؤل وداود وسليمان حملوا لقب «مسيح الرب»، وداود وسليمان صارا ابنين للرب بالتبني مثلما مثلما صار يسوع فيما بعد. ففي المزمور 2 من سفر المزامير يقول داود: «إني أخبر من جهة قضاء الرب قال لي: أنت ابني أنا اليوم ولدتك». وتعبير «أنا اليوم ولدتك» هو الذي يوضح مفهوم تبني الرب لمسيحه، فهو أمر «حادث» لا «قديم». وهذا ما يُعبر عنه قول الرب في أبوته لسليمان أيضاً: «هو يبني بيتاً لاسمي... أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً» صموئيل الثاني 7: 13-14.

على أن مرقس أورد لنا بعض المعلومات عن أسرة يسوع وروابطه العائلية. فبعد أن عاد من رحلته إلى نهر الأردن، جاء إلى المجمع اليهودي في مدينته وابتدأ يُعلم، فتعجب الحاضرون من الحكمة التي تجري على لسانه وقالوا: «أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان؟ أوَ ليست أخواته هاهنا عندنا» مرقس 6: 3. نلاحظ هنا أن يسوع قد دُعي ابن مريم وهو لقبه القرآني. وكان له أربعة إخوة دعاهم النص بأسمائهم، وبينهم يعقوب الذي

سيكون له شأن في الدعوة بعد وفاة يسوع، ويرد ذكره في سفر أعمال الرسل بلقب أخو الرب، كما كان له عدد من الأخوات لم يذكر النص أسماءهن. وقد أربك وجود هؤلاء الإخوة المؤسسة التفسيرية المسيحية بعد ذلك، فقالوا إن أولاد العمة والخالة كانوا يدعون إخوة عند اليهود. ولكن هؤلاء المدعوين إخوة كانوا في بيت مريم لا في بيت أمهاتهم، ونراهم بصحبتها عندما جاءت تبحث عن يسوع. نقرأ في إنجيل مرقس ومتى ولوقا: «وفيما هو يكلم الجموع إذ أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه، فقال له أحدهم: هو ذا أمك وأخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك» متى 12: 46-47.

في هذه النبذة التي قدمها لنا مرقس، نحن أمام عائلة جليلية تقليدية انجبت الأم فيها ما لا يقل عن سبعة إخوة وأخوات، كان عائلها المتوفى يعمل نجاراً، فخلفه ابنه الأكبر يسوع في مهنته وفي إعالة الأسرة. ولكن هذا النجار هو الذي أحدث النقلة الثانية فيما دعوته بالملحمة الدينية الكبرى على طريق التوحيد. لقد كان يسوع نموذجاً للثوري الذي جاء ليعلن نهاية عالم قديم والتأسيس لعالم جديد يتحقق فيه المثالي واقعاً معاشاً.

تَمثّل العالم القديم عند يسوع في الوثنية التقليدية التي فقدت روحها خلال الفترة الهيلينستية، وتحولت إلى عبادات شكلانية. كما تمثلت في اليهودية وشريعتها التي أسست للطرائق التي يجب أن يبجل بها الإله يهوه، ونوع الأضاحي التي تقرب إليه، والحفاظ على السبت، والأعياد الدينية السنويه، وما يجوز وما لا يجوز، والحلال والحرام في كل مناحي الحياة، حتى زادت القواعد التي تحكم حياة اليهودي وسلوكه اليومي عن الستمئة قاعدة. وقد كان الشغل الشاغل للمؤسسة الدينية خلال القرون الخمسة السابقة للميلاد، هو الحفاظ على تفرد اليهود عن بقية الأمم. وهذا ما أنتج ظاهرتين مهمتين في الحياة الدينية اليهودية وهما التنظيم الكهنوتي، والحرص على الالتزام بالشريعة التي اعتُبرت حاجزاً يفصل اليهود عن بقية الأمم. ولكن يسوع هدد هذين الركنين. أي الشريعة وحراسها من الكهنة والناموسيين (=علماء الشريعة) والفريسيين وهم النخبة المتعلمة من المجتمع اليهودي.

فلقد عبر يسوع من خلال أعماله وأقواله عن رفضه لشريعة موسى، وأحل محلها شريعة القلب والروح، شريعة تخدم الإنسان بدلاً من أن تجعله عبداً لها. فعندما مر يسوع وتلاميذه خلال الزروع في يوم السبت، أخذ التلاميذ يقطفون سنابل القمح الخضراء ويأكلون منها، قال من رآهم يفعلون ذلك من الفريسيين: «لماذا يفعون في السبت ما لا يحل؟ فقال لهم... إن السبت جُعل لأجل الإنسان ولم يُجعل الإنسان للسبت» مرقس 2: 22-27. أي إن الدين جعل لخدمة الإنسان وصلاحه، ولم يُجعل الإنسان لخدمة الدين. وعندما احتجوا عليه في مناسبة شبيهة أخرى قال لهم: «أعمل الصالحات يحل في يوم السبت أم عمل السيئات»؟ لوقا 6: 6-11. وفي مناسبة ثالثة قال لهم جملة تحمل كل معاني السخرية من ضيق عقولهم: «إن أبي يعمل - في السبت - وأنا أيضاً أعمل» يوحنا 5: 16-17. وعندما قال له تلاميذ يوحنا المعمدان: «لماذا نصوم نحن وتلاميذك لا يصومون؟»، كان في جوابه سخرية مبطنة من شريعة الصيام عندما قال لهم: «هل يصوم بنو العرس والعريس بينهم» متى 9: 14-15. كما ألغى شريعة رجم مرتكب الزنا عندما جاء اليهود إليه بامرأة أُمسكت في زنا ليعرفوا حكمه عليها، فقال لهم: «من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرميها بحجر» يوحنا 8: 1-11. كما هاجم بأقوال لاذعة حراس هذه الشريعة من الناموسيين ومنها: «الويل لكم أيها الناموسيون، تُحمِّلون الناس أحمالاً ثقيلة وأنتم لا تمسون هذه الأحمال بإحدى أصابعكم... الويل لكم، فقد استوليتم على مفتاح المعرفة فلا أنتم دخلتم ولا الذين أرادوا الدخول تركتموهم يدخلون» لوقا 11: 46-51.

في رفضه للوثنية الكنعانية التي أسهمت بشكل أو آخر في رسم شخصية إله موسى، وشريعة ذلك الإله، فقد بشر يسوع برسالة شمولية تتوجه إلى العالم أجمع، لا إلى هذه الفئة الوثنية أو تلك. فقد قال لتلاميذه في إنجيل متى: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس» متى 28: 19. وقال في إنجيل مرقس: «اذهبوا في الأرض كلها وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين» مرقس 26: 73. والأناجيل حافلة بالإشارات إلى جموع الوثنيين التي

كانت تتبعه وتسمع تعاليمه، من فينيقيا غرباً إلى عبر الأردن شرقاً حيث المدن العشر اليونانية، وكان يشفي الكثير من مرضاهم (مرقس 3: 7-8، ولوقا 6: 17-20).

فلقد أسس يسوع لعهد جديد بين الله والبشرية جمعاء، يحل محل العهد القديم بين يهوه وإسرائيل. وقد وثّق هذا العهد بدمه في العشاء الأخير مع الرسل عندما رفع كأس النبيذ وقال لهم: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يراق من أجلكم» لوقا 22: 20 والشريعة الجديدة هي شريعة الروح لا شريعة الحرف، وجوهرها المحبة، ولذلك قال يسوع على لسان الرب: «أريد رحمة لا ذبيحة» متى 9: 13. وعندما سأله أحد الفريسيين ليحرجه: «يا معلم، ما هي أكبر وصية في الشريعة؟ قال له: أحبب الرب إلهك تلك هي الوصية الكبرى والأولى. والثانية مثلها: أحبب قريبك حبك لنفسك، بهاتين الوصيتين يرتبط كلام الشريعة والأنبياء» متى 22: 34-40. وقال لتلاميذه: «هذه وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» يوحنا 15: 12. وفي قول شهير له يُحلّ يسوع الأخلاق محل الشريعة: «افعلوا للناس ما تريدون أن يفعله الناس لكم. هذه هي خلاصة الشريعة وكلام الأنبياء» متى 7: 12.

يسوع الإنجيلي :

في القسم الأول من هذا الفصل تحدثنا عن يسوع الجليلي من منظور تاريخي، وسوف نلتفت الآن إلى تقصي شخصية يسوع كما رآها الانجيليون في «العهد الجديد»، مبتدئين بعرض ثلاثة مشاهد من سيرته التبشيرية.

ابن الله :

يفتتح الإنجيليون سيرة يسوع التبشيرية بمشهد اعتماده بماء الأردن على يد يوحنا المعمدان الناسك الذي كان يعمد بالماء لمغفرة الخطايا، والذي اعتبر في المسيحية آخر أنبياء العهد القديم:

«وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قد انفتحت، والروح مثل حمامة نازلاً عليه، وكان صوت من السماء يقول: أنت ابني الحبيب الذي به سررت» مرقس 1: 6-11، ومتى 3: 16-17، ولوقا 3: 21-22.

والإنجيليون هنا يستخدمون لغة أشعيا الثاني الذي يقول على لسان الرب:

«هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيُخرج الحق للأمم» أشعيا: 42: 1.

وبوضع هذه الآية في سياق مقارن مع المشهد الافتتاحي الإنجيلي يتبين لنا التناص الذي صنعه الإنجيليون مع التوراة.

أشعيا	الإنجيليون
وضعت روحي عليه	والروح (=الروح القدس/ روح الله) مثل حمامة نازلاً عليه
مختاري الذي سرت به نفسي	ابني الحبيب الذي به سررت

ومثل هذه الاستعارة من اللغة التوراتية تستمر حتى الأسبوع الأخير من حياة يسوع، والمعروف بأسبوع الآلام الذي انتهى بمحاكمة يسوع وصلبه. مثال ذلك:

وصلبوا معه لصين واحد عن يمينه وآخر عن يساره ـ مرقس 15: 27	سكب نفسه للموت وأحصي مع أثمةٍ ـ أشعيا 23: 72
ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها ماذا يأخذ كل واحد ـ مرقس 15: 25	جماعة من الأشرار اكتنفتي، ثقبوا يدي ورجلي... يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون ـ المزمور 22: 16-18.
وأعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة ليشرب، ولما ذاق لم يرد أن يشرب ـ متى27: 24.	ويجعلون في طعامي علقماً، وفي عطشي يسقونني خلاً ـ المزمور 19: 21.
ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم: إلهي، إلهي لماذا تركتني ـ متى 27: 46.	إلهي، إلهي، لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي ـ المزمور 22: 1

في الأناجيل الثلاثة مرقس ومتى ولوقا، والمدعوة بالمتشابهة، استخدم يسوع لقب «الابن» فقط في الإشارة إلى نفسه، أما في إنجيل يوحنا الذي تفرد بسيرته، فقد استخدم يسوع عدة مرات لقب «ابن الله»، وفي الحقيقة، فإن من يقبل على دراسة أسفار العهد الجديد بعيداً عن مؤثرات اللاهوت المسيحي (الذي أُقرت خطوطه العامة في مجمع نيقبه عام 325م وجعلت يسوع معادلاً في الجوهر لله) لن يرى في لقب ابن الله إلا مجازاً لغوياً يعبر عن حميمية العلاقة بين الله ويسوع. وقد عبّر الإنجيليون عن هذه الصلة أفضل تعبير حيث ورد عند متى ولوقا القول التالي ليسوع: «كل شيء دُفع إلي من أبي، وليس أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلى الابن ومن أراد الابن أن يعلن له» متى 11: 27، ولوقا 10: 22. فالابن يكشف عن أسرار الله ولهذا فهو أقرب بني البشر إليه وأكثرهم معرفة به. وتتضح مجازية اللقب من مشهد تجلي الملاك من عند الرب لمريم عندما نقل لها خبر حملها العذري: «ها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى» لوقا 1: 26-33. فالملاك قال إن المولود منها «يدعى» ابن العلي، أي إنه سوف يحمل لقب ابن الله، لأنه لم يولد من أب بشري وليس له أب سوى الله. ويسوع لم يغد ابناً لله إلا بعد القيامة من الأموات: «الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعين ابن الله... بالقيامة من الأموات» رسالة بولس إلى العالم روما 1: 3.

المسيح:

المشهد الثاني يلي مشهد العماد: «ورجع يسوع بقوة الروح إلى الجليل... وجاء إلى الناصرة حيث كان قد تربى، ودخل المجمع (اليهودي) حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ، فدُفع إليه سفر أشعيا النبي. ولما فتح السفر (وبحث فيه) وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه: روح الرب علي لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر. وأُرسل المنسحقين في الحرية، وأكرّز بسنّة مقبولة للرب، ثم

طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس وجميع الذين كانوا في المجمع عيـونهم شاخصة إليه، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم» لوقـا 4: 16-22. ويسوع هنا يقرأ كلمات أشعيا الثاني (راجـع أشـعيا 61: 1-2) الـتي وضعها على لسان المسيح القادم الذي ينتظـر اليهـود ظهـوره، ثم أضـاف إليهـا جملة: «اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم»، وهو يعني بذلك أن المكتوب قد تم في شخصه وأنه هو المسيح المنتظر، وبذلك يضيف الإنجيليون ليسوع لقباً آخر إلى لقب الابن ليغدو «المسيح ابن الله».

ويتمتع لقب المسيح، أو مسيح الرب، بتاريخ عريق في العهد القديم، فهو الشخص الذي اختاره الرب ومسحه بزيت المعبد المقدس بواسـطة أحـد أنبيائـه خلال فترة المملكة الموحدة. وطقس التنصيب هذا يحول الممسوح إلى شخصية تعلو على بقية البشر، لأن الممسوح يغدو ابناً للـرب بـالتبني. نقـرأ في المزمـور الثاني من سفر المزامير على لسان داود:

«إني أخبر من جهة قضاء الرب قال لي: أنت ابني أنا اليوم ولدتك. اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وأقاصي الأرض ملكاً لك» المزمور 2: 7-8.

وفي السفر نفسه على لسان الرب:

«وجدت داود عبدي، بدهن قداستي مسحته... هو يدعوني أبي أنت وصخرة خلاصي، وأنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض» المزمور 89: 20-28.

وفي سفر صموئيل الثاني نقرأ على لسان الرب بخصوص الملك سـليمان: «هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أُثبت مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهـو يكـون لي ابناً» صموئيل الثاني 7: 13-14.

ومسيح الرب الملك يؤدي دور الكاهن الأعلى: «أقسم الرب ولن ينـدم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» المزمـور 110: 4. كمـا يـؤدي دور النبي الذي يتلقى وحي السماء: «في شفتي الملـك وحـي، وفي القضـاء فمـه لا

يخون» الأمثال 16: 10. «هذه كلمات داود الأخيرة. وحي داود بن يَسّى، وحي القائم في العلا مسيح إله يعقوب، قال إله إسرائيل لي... إلخ» صموئيل الثاني 23: 1. وهنا يتفق التوراة مع القرآن في نبوة كل من داود وسليمان.

بعد وفاة سليمان في الرواية التوراتية وانقسام المملكة المتوحدة، فسد النظام الملكي وحاد الملوك عن دين موسى وعبدوا الآلهة القديمة. وهذا ما خلق لدى الأنبياء رجاءً في مسيح حقيقي للرب، يأتي من نسل داود ليعيد العصر الذهبي لإسرائيل. وبذلك تحول المسيح من ملك يحكم على إسرائيل في الزمن الحالي، إلى شخصية رؤيوية قدسية سوف تظهر في المستقبل:

«الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً... الجالسون في ظلال الموت أشرق عليهم نور... لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفيه، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلامة لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته من الآن وإلى الأبد» أشعيا 9: 2.

وقد اتّسم موقف يسوع من قبول لقب المسيح بالتردد في الأناجيل الثلاثة المتشابهة: «فقال لهم (=التلاميذ): وأنتم من تقولون أني أنا؟ فأجاب بطرس: «أنت مسيح الله». فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد» لوقا 9: 20-22. وموقف يسوع المتردد هذا نابع من خشيته من المطابقة بينه وبين المسيح السياسي الذي ينتظره اليهود. ولكننا نجده في إنجيل يوحنا يقبل اللقب دون تردد. فخلال أيام أسبوع الآلام كان يرتاد الهيكل اليهودي ويُعلم في فنائه. وفي إحدى المرات: «احتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تُعلق أنفسنا؟ إن كنت المسيح فقل لنا ذلك جهرة. أجابهم يسوع: إني قلت لكم ولستم تؤمنون» يوحنا 10: 24-25.

ابن داود :

المشهد الثالث يجري في دار الولاية خلال عهد الوالي بيلاطس النبطي المعروف لنا من السجلات الرومانية. وكان حرس الهيكل قد قبضوا على يسوع في بستان على جبل الزيتون المقابل لجبل الهيكل وهو عائد مع تلاميذه من

العشاء الأخير في أورشليم، إلى قرية بيت عنيا حيث تعود آن يبيت بعد فراغه من التعليم في الهيكل. فسيق يسوع إلى دار كبير الكهنة حيث تم استجوابه بتهمة الهرطقة والتجديف. فكانوا يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه فلم يجدوا مع أنه جاء شهود زور كثيرون ولكن إفاداتهم تضاربت (متى: 26).

ولما كانت الهيئة الدينية في أورشليم لا تستطيع إصدار حكم الإعدام على أحد، فقد حولوا يسوع إلى دار الولاية: «وجاءوا به إلى بيلاطس واشتكوا عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يُفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر ويقول إنه مسيح ملك. فسأله بيلاطس: أنت ملك اليهود؟ فأجابه: أنت تقول ذلك» لوقا 23: 1-3. وعلى الرغم من التباس هذه الإجابة، إلا أن معناها الظاهري هو: أنت تقول ذلك لا أنا. ولذلك فقد قال لهم بيلاطس: إني لا أجد علة في هذا الإنسان. وفي إنجيل يوحنا نجد إجابة أكثر وضوحاً وتفصيلاً على سؤال بيلاطس: أأنت ملك اليهود؟: «أجاب يسوع: مملكتي ليست من هذا العالم، ولو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود. ولكن الآن مملكتي ليست من هنا، فقال له بيلاطس: أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك... فخرج بيلاطس إلى اليهود وقال لهم: أنا لست أجد فيه علة واحدة» يوحنا 18: 23-28.

وفي الحقيقة فإن كلاً من متى ولوقا قد وضعا المقدمات للقب ابن داود؛ فمتى يفتتح إنجيله بالقول: «كتاب يسوع المسيح ابن داود». ولوقا يضع على لسان الملاك الذي جاء بالبشارة إلى مريم: «ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه». وكان المرضى الذين طلبوا الشفاء من يسوع يدعونه ابن داود (متى 15: 22، 20: 30 و31). والجموع التي استقبلته عند دخوله إلى أورشليم نادته بابن داود (متى 21: 9). فإذا كان يسوع هو المسيح لابد أن يكون من سلالة الملك داود على ما ورد في نبوءات أنبياء التوراة بشأن المسيح المنتظر (راجع أشعيا 11: 1) ويولد في مدينة بيت لحم مسقط رأس داود (راجع ميخا 5: 1-5).

البريء على الصليب:

نتابع قصة نهاية يسوع على الصليب في إنجيل مرقس أقدم الأناجيل تدويناً، وأقربها إلى حقيقة ماحدث كما يرى الباحثون الموضوعيون اليوم.

فبعد حواره مع يسوع قال بيلاطس لجماعة الهيكل ومن تبعهم من جمهور اليهود إلى دار الولاية: ماذا تريدون أن أفعل بالذي تدعونه ملك اليهود؟ فصرخوا قائلين: اصلبه[1]. فقال: وأي شر عمل؟ فازداد صراخهم بطلب الصلب. ولما كان بيلاطس يريد أن يعمل للجميع ما يرضيهم، أسلم يسوع إلى الصلب بعد أن أمر بجلده. فمضى به العسكر إلى داخل دار الولاية، وضفروا إكليلاً من الشوك على رأسه وأخذوا يسخرون منه قائلين: السلام يا ملك اليهود. وكانوا يضربونه على رأسه بقصبة ويبصقون عليه وهم يجثون على ركبهم أمامه. وبعد أن استهزؤوا به خرجوا به ليصلبوه، فوجدوا رجلاً اسمه سمعان القوريني قادماً من الحقل فسخروه لحمل صليب يسوع، وجاؤوا إلى موضع جلجلثه (وهو مكان مرتفع خارج المدينة)، وأعطوه خمراً ممزوجة بمُر ليشرب فلم يقبل[2]، وكانت الساعة الثالثة (وهي التاسعة صباحاً بتوقيت تلك الأيام)، ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها، ووضعوا على صليبه لافتة كتب عليها ملك اليهود، وصلبوا معه لصين، واحد عن يمينه وآخر عن يساره. وفي الساعة التاسعة (أي بعد ست ساعات) صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح.

ولما كان المساء جاء يوسف الرامي (= من بلدة الرامة) وكان هو أيضاً ينتظر ملكوت السماء، رجلاً نبيلاً غنياً، فتجاسر ودخل إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع فوهبه له. فلفه بالكتان ووضعه في قبر منحوت في صخرة ودحرج

---

(1) كانت عقوبة الصلب في القانون الروماني تنفذ في من يقترف جريمة ضد السلطة الرومانية لا في الجرائم الأخرى، ولذلك فإن صلب اثنين من اللصوص مع يسوع هو من خيال من أورد هذا الخبر.

(2) وعند متى 27: 34 أعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة، وعند يوحنا أعطوه خلاً. وكان هذا العمل من إجراءات عملية الصلب، لأنه يساعد المصلوب على تحمل آلام الصلب.

حجراً على باب القبر (ويبدو أن هذا القبر يقع في أرض قريبة يملكها يوسف الرامي). وبعدما مضى السبت (وكانت وفاة يسوع في يوم الجمعة) اشترت مريم المجدلية وسالومة ومريم أم يعقوب حنوطاً ليأتين ويدهنه به (على ما جرت عليه طقوس الدفن في تلك الأيام)، وباكراً جداً عند طلوع الشمس أتين إلى القبر، فرأين أن الحجر قد دُحرج عن بابه، ولما دخلن رأين شاباً جالساً عن اليمين لابساً حلة بيضاء فاندهشن، فقال لهن: لا تندهشن، أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب. قد قام ليس هو هنا، ولكن اذهبن وقلن لتلاميذه إنه يسبقكم إلى الجليل هناك ترونه كما قال لكم. فخرجن سريعاً وهربن من القبر لأن الرعدة والحيرة أخذتاهما ولم يقلن شيئاً لأحد لأنهن كنَّ خائفات (مرقس: 15 و16).

على هذه الشاكلة تنتهي سيرة يسوع في أقدم نسختين من إنجيل مرقس، وهما نسخة الفاتيكان ونسخة دير سانتا كاترينا بصحراء سيناء التي تم اكتشافها عام 1860. أما النسخ التي بين أيدينا فتضيف إليها اثنتي عشرة آية تتحدث عن ظهورات يسوع المسيح لتلامذته فرادى أو جماعات، ثم صعوده إلى السماء بجسده المادي الذي بُثت فيه الروح في اليوم الثالث لوفاته، وجلوسه عن يمين الله في السماء. ويبدو أن أحد النساخ قام بإضافة هذه الآيات لجعل رواية مرقس في اتفاق مع روايات الأناجيل التي دونت بعده[1]. وهناك اتفاق عام بين الباحثين في العهد الجديد على عدم أصالة هذه الإضافة وعدم اتفاق لغتها اليونانية مع أسلوب مرقس. فماذا تقول لنا هذه النهاية المفتوحة التي تركها لنا مرقس، إذا نحن قرأناها بعين غير متأثرة بخواتيم الأناجيل الأخرى؟

1- لم يقل لنا كاتب الإنجيل إن الشاب الذي وُجد داخل القبر هو ملاك، وهذا يترك الاحتمال قائماً في أن يكون أي شاب يرتدي حلة بيضاء، وربما كان

---

(1) من أجل مزيد من المعلومات عن نسخة الفاتيكان ونسخة ديرسانتاكاترينا، راجع:
- جيمس بنتلي: اكتشاف الكتاب المقدس - قيامة المسيح في سيناء، ترجمة آسيا الطريحي، دار سينا، القاهرة 1995، ص125 وما بعدها.

أحد فتيان يوسف الرامي. ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن أفراد طائفة الأسينية اليهودية في ذلك الوقت كانوا يرتدون الأبيض.

2- كانت ردة فعل النساء تجاه رؤية الشاب الدهشة وليس الخوف، وهذا ما يرجح أنهن لم يرين ملاكاً.

3- استخدم الكاتب في تفسيره لعدم وجود يسوع في القبر تعبير «لقد قام، ليس هو ههنا». وكلمة «قام» في النص اليوناني للإنجيل هي من الفعل anisteme الذي يعني النهوض والانتصاب من وضعية الجلوس أو الاستلقاء، فهي تدل على فعل حركي نقوم به في حياتنا اليومية.

4- إن فحوى الرسالة التي أراد يسوع نقلها للتلاميذ عن طريق الشاب لابس الأبيض هي أن يسوع سوف يسبقهم إلى الجليل وهناك يرونه. وليس في هذا التعبير أي مضمون فوق طبيعاني، أو إشارة إلى ظهور خارق.

أي إن خاتمة مرقس تبقى مفتوحة على شتى الاحتمالات التي لا تساعدنا خواتيم بقية الأناجيل على ترجيح واحد منها. فالأخبار عن ظهورات يسوع لتلاميذه متباينة ومتعارضة في هذه الأناجيل، ولا يمكن التوفيق بينها، أما صعوده إلى السماء بعد تلك الظهورات، وهو الحدث الذي صار قطب الرحى في لاهوت الكنيسة، فلم يرد إلا في خاتمة لوقا، بينما تخلو خاتمة متى ويوحنا من أي إشارة ولو غامضة إلى هذا الصعود. فالتلاميذ عند متى يذهبون إلى الجليل كما أمرهم يسوع، ولما رأوه سجدوا له فقال لهم يسوع: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وها أنا معكم إلى انقضاء الدهر. أما عند يوحنا فإن التلاميذ رآوه في الجليل عند بحيرة طبريا حيث تغدى معهم، وبعد حوار قصير بينه وبين بطرس قال له: اتبعني وسار معه إلى مكان مجهول.

وحتى عند لوقا الذي انفرد بذكر حادثة الصعود، فإن صياغة الكاتب للحادثة تدل على أنه يُقر بمبدأ اعتقادي أكثر من كونه يصف حدثاً موضوعياً عندما يقول: «وبينما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء». أي إنه كان

وحيداً عندما أُصعد، على ما تعنيه كلمة «انفرد»، وأن أحداً لم يره. ويبدو هذا الإقرار بالمبدأ الاعتقادي أكثر وضوحاً في خاتمة مرقس المزورة، عندما يقول المزور: «ثم إن الرب بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله». وهو هنا يقتبس من لوقا ثم يضيف من عنده جلوس يسوع عن يمين الله الذي لم يرد عند لوقا. ونحن إذا سلمنا جدلاً بأن أحداً رآه يصعد إلى السماء، فمن الذي رآه جالساً عن يمين الله؟

الإلهيات في العهد الجديد :

عندما نقول إن إله يسوع لا يشبه إله العهد القديم، فإننا لا نعني بأن يسوع قد بشّر بإله جديد، بل قدم صورة جديدة لإله قديم هو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والتبدلات التي طرأت على صورته وصولاً إلى أشعيا الثاني. ولذلك فإننا لا نجد في أقوال يسوع تأملات لاهوتية في طبيعة الألوهة، والتوحيد زيادة على ما قاله أشعيا الثاني، سوى أنه فصم العروة الوثقى التي تجمع إله أشعيا الثاني إلى شعب إسرائيل. فيسوع لم يكن مسكوناً بهاجس التوحيد مثل نبي الإسلام، لأن المرحلة الأولى من الفكر التوحيدي قد تحققت في الثقافة التي يخاطبها، ولذلك تركز مشروعه على إحداث تغيرات على العقيدة التوراتية لا على استبدالها بعقيدة جديدة كلياً على المشهد الديني للمنطقة، وهذا ما قصده عندما قال: «ما جئت لأنقض بل لأكمّل» متى 5: 17. أما محمد فقد كان يخاطب ثقافة غارقة في الوثنية التي اعتُبرت هوية وطنية لا يمكن التخلي عنها.

فيسوع لم يستخدم أياً من أسماء الإله التوراتي: إيل، إيلوهيم، يهوه، بل استبدله باسم «الآب» الذي أحدث انقلاباً في مفهوم الألوهة العليا حتى في التطورات اللاحقة لليهودية كما تجلت في التلمود. وبهذا الاسم كان يسوع يخاطبه: «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك» مرقس 14: 36. «يا أبت اغفر لهم لأنهم لا يدركون ما يفعلون» لوقا 23: 34. «يا أبتا في يدك استودع روحي» لوقا 23: 46. وكما كان مسيح الرب داود بكراً ليهوه في المزمور 89: 23 «أنا أيضاً

أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض»، كذلك هو يسوع في رسالة بولس إلى أهالي روما: «ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين» روما 8: 29. وفي خطابه للتلاميذ كان يشير إلى إلهه بقوله: «أبي وأبوكم» يوحنا 21: 17. «أبوكم السماوي» متى 16: 14. والصلاة التي علمها للتلاميذ تبدأ بجملة «أبانا الذي في السماوات» متى 6: 9. وهنا أيضاً يبدو لنا الأثر الذي مارسه أشعيا الثاني على إلهيات العهد الجديد. فقد استخدم أشعيا لقب «أبونا» لإلهه: «والآن يا رب، أنت أبونا، وليّنا، منذ الأبد اسمك» أشعيا 63: 16. «والآن يا رب، أنت أبونا نحن الطين وأنت جابلنا» أشعيا 64: 8.

كما استخدم يسوع الكلمة اليونانية «ثيّوس/ Theos في الإشارة إلى إلهه، وهي الكلمة التي استخدمها فلاسفة الإغريق في الدلالة على «الله» الذي وصفه أرسطو بأنه «المحرك الذي لا يتحرك، والسبب الذي لا سبب له». وباستخدام يسوع لهذا الاسم، فإنه ينسب إلى إلهه كل الكمالات التي أكد عليها القرآن الكريم وإن لم يذكرها بالتفصيل، لأن كل عارف بلغة الإنجيل يفهم معنى كلمة «ثيّوس». فإله يسوع هو آب في علاقته بالإنسان، وثيوس في علاقته بالعالم.

على أن التعريف الأهم لثيوس/الله في العهد الجديد، والذي لا نجده في مكان آخر هو أنه: الإله الذي أقام يسوع من بين الموتى وبعثه إلى حياة جديدة، وهذا هو مرتكز العقيدة المسيحية وأساس معرفتها بالله. فالمسيح قام. حقاً قام.

لقد أحدثت وفاة يسوع على الصليب صدمةً لتلاميذه لم يصحوا منها بسهولة. وسواءً حصل الموت على الصليب أم لم يحصل. وسواء تجلى للتلاميذ عدة مرات أم لم يتجلّ، أو صعد إلى السماء أم لم يصعد، فهذه الأمور لا تعنينا هنا، لأننا نتحدث عن كيفية تشكل الأفكار لا عن مدى مطابقتها للواقع. فلقد توصل التلاميذ بعد تأملهم لكارثة الصلب إلى أن يسوع قد قام وبعث من الموت. أما لماذا قام فلأمرٍ جلل حدث في تاريخ البشرية، وهو ظهور المخلص المنتظر الذي يفتتح بموته على الصليب بوابة الأبدية لمن يؤمن به. فالمسيح كان قرباناً قدمه الله، وبدمه وثّق العهد الجديد بينه وبين البشرية الخاطئة منذ أن لعن الله

الأرض بسبب خطيئة الإنسان الأول وأدار وجهه عنها. وقد ظهرت هذه الأفكار أولاً لدى بولس الرسول الذي لم يعرف يسوع في الجسد بل عرفه في الروح، واستُشهد دفاعاً عن المسيحية، وكتب رسائله قبل تدوين أول الأناجيل المعزو لمرقس. كما ظهرت في إنجيل يوحنا الذي دوّن بعد نحو سبعين سنة من حادثة الصلب: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية، لأنه لم يرسل الله ابنه ليدين العالم بل ليخلص العالم» يوحنا 3: 16-17.

الآخريات :

الآخريات هي الأفكار ذات الصلة بالآخرة ونهاية الزمن. فرسالة يسوع تبدي طابعاً آخرياً في أول تعليم له في إنجيل مرقس عندما: «جاء إلى الجليل يكررُ ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمُل الزمان واقترب ملكوت الله». مرقس 1: 14. وهو قريب جداً حتى إن من المستمعين إلى يسوع: «لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة» مرقس 9: 1.

وملكوت الله، أو ملكوت السماء، هو الحالة الفردوسية التي ستحل في آخر الزمن، عندما يهبط المسيح في قدومه الثاني من السماء راكباً على سحابة ليفتتح الملكوت (لوقا 21: 27، وسفر الرؤيا 14: 14). حينئذ يسمع الأموات صوته ويقومون: «الحق الحق أقول لكم، إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون» يوحنا 5: 25.

«ومتى جاء في مجده وجميع الملائكة معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده وتجتمع أمامه الشعوب، فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي لترثوا الملكوت المُعد لكم منذ تأسيس العالم... ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدة لإبليس وملائكته... فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية» متى 25: 21-46.

ويقدم لنا سفر الرؤيا صورة نابضة بالحياة لملكوت الله، أما الديان فهو الله وليس المسيح:

«ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله، وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة، ودين الأموات بما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم... وكل من لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة طُرح في بحيرة النار، ثم رأيت سماءً جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها، وسمعتُ صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا، والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم» سفر الرؤيا 20: 12-14، و21: 1-3.

ولدينا أقوال مختصرة ليسوع عن أهوال يوم القيامة الذي يسبق حلول مملكة السماء تعبر عنها هذه المقتبسات: «وأما ذلك وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد» مرقس 13: 32. «لأنه يأتي كالفخ على جميع الجالسين على وجه الأرض» لوقا 21: 34-35. «يكون في تلك الأيام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة... بعد ذلك الضيق الشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه، ونجوم السماء تتساقط، والقوات التي في السماء تتزعزع، وحينئذ يبصرون ابن الإنسان أتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد، فيرسل حينئذ ملائكته ويجمع مختاريه» مرقس 13: 19-27. «وتكون زلازل عظيمة في أماكن، ومجاعات وأوبئة» لوقا 21: 11.

ولكن الأناجيل وبقية أسفار العهد الجديد لا تزودنا بمعلومات عن أحوال أهل النعيم وحياتهم الثانية، وكلمة «الجنة» بمعنى الفردوس الآخري لم ترد في العهد الجديد. أما عن أحوال أهل الجحيم فليس لدينا سوى ما قاله مرقس ثلاث مرات في الإصحاح 9: «حيث دورهم لا يموت والنار لا تطفأ» وهذه المقولة مقتبسة من أشعيا الثاني 66: 24. وما أورده لوقا في قصة الغني، وجاره الفقير عندما كان الفقير يشتهي أن يشبع من الفتات الساقط عن مائدة الغني فلما ماتا

ووجد كل منهما نصيبه في الحياة الأخرى: «رفع الغني عينيه وهو في هاوية النار يتعذب، فرأى لعازر الفقير في حضن إبراهيم، فنادى وقال: يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب» لوقا 16: 19-26.

لاهوت الكنيسة :

يبدو لنا يسوع في الأناجيل الأربعة رجلاً من طبيعة فائقة يمتلك قوى لا تتوفر للبشر مثل شفاء الأعمى منذ الولادة، وطرد الشياطين من أجساد الممسوسين، وإحياء الموتى كما فعل مع ابنة يائر أحد رؤساء المجمع عندما قال لها: «يا صبية أقول لك قومي» (مرقس 5: 21-43، ومى 9: 18-29، ولوقا 8: 40-56). وكان له سلطة على مظاهر الطبيعة فعندما ركب تلاميذه في السفينة وتقدموه إلى الشاطئ المقابل من البحيرة، هبت عليهم الريح وخافوا من الغرق فجاء إليهم ماشياً على الماء وصعد السفينة فانتهر الريح فسكنت (مرقس 6: 45-52، متى 14: 22-33، يوحنا 6: 16-21).

وعندما كان مع ثلاثة من تلاميذه على جبل، رأوه وقد تغيرت هيئته قدامهم وتلألأت ثيابه فصارت ناصعة البياض، وتراءى لهم النبي إيليا مع موسى وهما يكلمانه (مرقس 9: 2-9، ومتى 17: 1-8، ولوقا 9: 28-36). كما أنه أحيا صديقه الشاب لعازر بعد موته بأربعة أيام، أي عندما بدأت الجثة تتفسخ (يوحنا 11). ولعل أبلغ تعبير عن الطبيعة الفائقة ليسوع هو قيامته وصعوده إلى السماء ليجلس عن يمين الله: «من الآن ترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء» متى 26: 64. وقد وردت هذه الصورة في المزمور 110: «قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» وتفسيره: قال يهوه للمسيح اجلس عن يميني»[1].

---

(1) وقد فسَّر يسوع هذا المزمور في إنجيل متى 22: 45.

فإذا جئنا إلى إنجيل يوحنا لوجدنا أن ظاهر أقوال يسوع يحوّل هذه الطبيعة القائمة إلى حالة تماهٍ بين الابن والآب، مثل قوله:

أنا والآب واحد – 10: 30.

الآب فيَّ وأنا فيه - 10: 38.

الذي يراني يرى الذي أرسلني – 12: 45.

الذي رآني فقد رأى الآب – 14: 9.

صدقوني أني في الآب والآب فيَّ – 14: 11.

وإني لا أستطيع تفسير هذه الأقوال إلا بافتراض أن يسوع كان يتفوه بها تحت ضغط حالة وجد صوفي ميزت التجربة الصوفية المشرقية منذ القدم واستمرت لدى المسلمين. وقد اصطُلح على تسمية الأقوال الصادرة عن مثل هذه الحالة بالشطح. والشطح هو كلام يترجمه اللسان عن وجد فاض عن النفس عندما تصنبح في حضرة الألوهة، وتشعر بالتماهي معها حتى يفنى الواصل عن نفسه ولا يبقى سوى الله. وهذه بعض أقوال الواصلين[1]:

فقد قال الحلاج:

* أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا
* رأيتُ ربي بعين قلبي	فقلتُ من أنت؟ فقال أنت
* يا منية المتمني	أفنيتني بك عني
أدنيتني منك حتى	ظننتُ أنك أني

(1) وقد أنتجت هذه الصوفية مذاهب دينية وفلسفية مثل الهرمزية، الغنوصية والأفلاطونية المحدثة. وجميعها ظهرت في مصر والشام.

* مزجــت روحــك في روحـــي كما تُمـزج الخمـرة بالمـاء الـزلال
* فــإذا مسّــك شــيء مسّــني فــإذا أنــت أنــا في كــل حــال

وقال أبو يزيد البسطامي:

* سبحاني ما أعظم شأني
* ما في الجبة إلا الله
* انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظـرت إلى نفسـي فإذا أنا هو.

* أشــار ســري إليــك حــتى فنيـــتُ عـــني ودمـــتَ أنـــت
محـوتُ اسمـي ورسـم جسـمي ســألتَ عـــني فقلـــتُ أنـــت

وفي الحقيقة، فإن أقوال يسوع في إنجيل يوحنـا لا تختلـف لا في شـكلها ولا في مضمونها عن شطحات الصوفية هذه، ولكنها كانت بعيدة كل البعد عـن العقلية اليونانية، وهي التي أحدثت جدلاً واسـعاً في المسـيحية المبكـرة خـلال القرن الثاني والقرن الثالث بخصـوص طبيعـة المسـيح وعلاقتـه بـالله فـأدت إلى انقسامات داخل الكنيسة، إلى أن قام الإمبراطور الروماني قسـطنطين[1] بالـدعوة إلى انعقاد المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيـة (في الشـمال الغـربي لأسـيا الصغرى) عام 325م حضره نحو 250 أسقفاً، معظمهم من كنائس الشرق، وقـد أقر هؤلاء بالأغلبية قانون الإيمـان المسـيحي الـذي أكـد علـى ألوهيـة المسـيح ومساواته للأب في الجوهر:

«نؤمن بإله واحد آب، ضابط للكل، خالق للسماوات والأرض، ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الآب، الـذي هـو

(1) الذي تحول إلى المسيحية مطلع القرن الرابـع المـيلادي بعـد أن جعـل مـن القسـطنطينية عاصمة للإمبراطورية، ومن المسيحية ديناً لها.

من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، به كان كل شيء، في السماء وعلى الأرض، الذي من أجل خلاصنا نحن البشر نزل من السماء وتجسد وصار إنساناً».

وفي المجمع المسكوني الثاني الذي انعقد في القسطنطينية عام 380م أضاف المجتمعون إلى قانون نيقيه ألوهية الروح القدس المنبثق عن الآب، وبذلك تم التأسيس لعقيدة الثالوث. فالله واحد ولكنه يحتوي في صميمه على أقانيم أو طبائع هي الآب والابن والروح القدس ثلاثة في واحد. والأقانيم (باليونانية Hypostases) صيغة جمع لأقنوم، وهي الصيغة العربية لكلمة قنوما السريانية التي تعني طبيعة، وكيان، وذات، وماهية. وهي معاني الكلمة اليونانية.

وقد أدت مقدمة إنجيل يوحنا (الذي لا يمكن أن يكون مؤلفه هو التلميذ يوحنا بن زبدي صياد السمك المتواضع): دوراً محورياً في صياغة قانون الإيمان المسيحي:

في البدء كان الكلمة [1]
والكلمة كان لدى الله
وكان الكلمة الله
هذا كان في البدء لدى الله
به كان كل شيء.
وبغيره لم يكن شيء مما كان

والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا
ورأينا مجده كما لوحيد من الآب
مملوءاً نعمة وحقاً

(1) والمفردة اليونانية التي ترجمت هنا بالكلمة هي اللوغوس، وتعني العقل، كما تعني «الكلمة»، لأن الكلام هو مجلى العقل.

وقد فهم الأساقفة الذين كانوا وراء صياغة القانون هذه المقدمة على طريقتهم، وتبعهم في ذلك مترجمو إنجيل يوحنا الأوروبيون ثم العرب. فيوحنا لم يقل «وكان الكلمة الله». بل قال: «وكان الكلمة إلهاً». فكلمة Theos اليونانية التي استعملها يسوع في الإشارة إلى إله العهد الجديد لا تعني الله إلا إذا كانت مُعَرَّفة بحرف "O" قبلها لتغدو Otheos. أما إذا وردت نكرة بدون أداة التعريف فتعني إله. ويوحنا قال: «وكان اللوغوس teos» ولم يقل «وكان اللوغوس Otheos»، أي وكان اللوغوس إلهاً، وليس وكان اللغوس هو الله[1].

وبما أن الإنجيليين قد عودونا على استخدام اللغة التوراتية، فلننظر الآن كيفية استخدام اللغة التوراتية لكلمة «إله» في بعض الأحيان، والمثال الذي أسوقه هو من سفر أشعيا:

«الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور... لأنه يولد لنا ولد، ونعطي ابناً، وتكون الرياسة على كتفيه، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته... من الآن وإلى الأبد» أشعيا 9: 2-7.

وأشعيا هنا يتحدث عن مسيح آخر الزمان الذي سيأتي من نسل داود ويحقق مملكة يهوه على الأرض، وصفة إله التي استخدمها أشعيا كلقب للمسيح في قوله: «ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً»، ليست إلا تعبيراً مجازياً عن الكمالات الإنسانية التي يتحلى بها ذلك المسيح القادم، ولقب الإله هنا هو لقب تشريفي. ولا أدل على ذلك من قول الرب لموسى عندما حاول التملص من مهمة إخراج بني إسرائيل من مصر مدّعياً أنه ثقيل الفم واللسان: «أليس هارون اللاوي أخاك؟ أنا أعلم أنه يتكلم... وهو يكلم الشعب عنك وهو

---

(1) وقد لجأت إلى صديقي ديمتري أفبيرينوس خبير اللغة اليونانية قديمها وحديثها في حل مشكلات مقدمة إنجيل يوحنا.

يكون لك فما وأنت تكون له إلهاً» الخروج. وأيضاً: «فقال الرب لموسى أنظر، أنا جعلتك إلهاً لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك» الخروج 7: 1.

هذا التصحيح لمقدمة إنجيل يوحنا يجعل أقوال يسوع الواردة في النص متفقة مع لاهوت المقدمة، لأنها تضع حداً فاصلاً بين الآب والابن، ومنها:

«إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» 20: 18.

«وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» 17: 3.

«لو كنتم تحبوني لكنتم تفرحون لأني قلت أمضي إلى الآب لأن الآب أعظم مني» 14: 28.

«الذي يؤمن بي لا يؤمن بي بل بالذي أرسلني» 12: 24.

وكان بولس قد سبق إنجيل يوحنا إلى تبيان الحد الفاصل بين الآب والابن:

«لكن لنا إله واحد هو الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد هو يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به» كورنته الأولى: 8: 6.

«إن إله الرب يسوع وآباه ـ تبارك إلى الأبد ـ عالم بأني لا أكذب[1]» كورنته الثانية 11: 31.

«تبارك إله ربنا يسوع المسيح وأبوه[2]» كورنته الثانية 1: 3.

«إن رأس كل رجل هو المسيح... ورأس المسيح هو الله» كورنته الأولى 11: 3.

«كل واحد وله رتبته. فالمسيح أولاً لأنه البكر، وبعده الذين يكونون خاصة المسيح عند مجيئه الثاني، ثم يكون المنتهى حين يُسلّم المُلك إلى الله... ومتى أُخضع له كل شيء فحينئذ يخضع الابن نفسه لذلك الذي أخضع له كل شيء فيكون الله كل شيء في كل شيء» كورنته الأول 15: 23-28.

---

(1) عن الترجمة الكاثوليكية، بيروت 1969، وهي مطابقة للنص اليوناني.

(2) المصدر نفسه.

بقي علينا أن نفسر تلك الآيات في إنجيل يوحنا التي يتحدث فيها يسوع عن وجود سابق له في السماء قبل كون العالم:

«والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» 17: 5.

«وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي في السماء» 3: 13.

«لأني خرجت من قِبل الله وأتيت» 8: 42.

«وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني» 16: 5.

«أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق، أنتم من العالم أما أنا فلست من هذا العالم، لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني» 6: 38.

«قال له اليهود: ليس لك خمسون سنة فهل رأيت إبراهيم؟

قال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» 8: 56-58.

إن مؤدى هذه الأقوال هو وجود حقيقة مسيحانية ميتافيزيكية خارج الزمان والمكان سوف تتمثل في شخص يسوع المسيح. ونحن نجد مثل هذه الفكرة في سفر دانيال التوراتي، حيث يقول النبي: «كنتُ أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام[1]، فقربوه قدامه، فأعطي مجداً وسلطاناً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته لا ينقرض» دانيال 7: 13-14. ويستعمل مؤلف سفر أخنوخ[2] الأول لغة دانيال في رسم صورة المسيح كفكرة في عالم المُثُل: «في

(1) القديم الأيام لقب للإله التوراتي.

(2) وهو من الأسفار غير القانونية التي مارست تأثيراً كبيراً على اليهودية.

تلك الأيام سُمي ابن الإنسان أمام رب الأرواح، وكان اسمه سابق (أو قبل) الأيام. قبل أن تُخلق الشمس وبروج السماء، قبل أن تظهر النجوم، دُعي اسمه أمام رب الأرواح»[1].

ولمزيد من الإيضاح بخصوص الوجود الميتافيزيكي القديم الذي ينسبه إنجيل يوحنا إلى يسوع، يمكننا المقارنة مع فكرة «الحقيقة المحمدية» في التراث الإسلامي. فلقد ظهر في الفكر الإسلامي منذ وقت مبكر القول بأزلية الحقيقة المحمدية أو «النور المحمدي»، وهو قول ظهر عند الشيعة أولاً ثم أخذ به أهل السنة. وهم يستندون في ذلك إلى أحاديث نبوية، مثل: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد». وقوله لأحد الصحابة: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». وهذا النور تبدّى في سلسلة الأنبياء عبر التاريخ وصولاً إلى نبي الإسلام خاتم الأنبياء[2]. وقد نالت الحقيقة المحمدية قسطاً من اهتمام الصوفية الإسلامية، فالشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي يرى فيها أكمل مجلى خَلقي ظهر فيه الحق تعالى، بل هي «الإنسان الكامل بأخص معانيه. فهي (كما الكلمة عند يوحنا) مبدأ خلق العالم وأصله، حيث إنها النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء» ولها أسبقية على النشأة الجسدية لمحمد[3].

إن خلاصة ما يمكننا قوله بخصوص التوحيد المسيحي هو أنه توحيد يُعبر عن نفسه بلغة التثليث، ولذلك علينا أن نؤول كل حديث عن الثالوث بما ورد في البند الأول من قانون الإيمان:

نؤمن بإله واحد

---

(1) من أجل سفر أخنوخ الأول، راجع موسوعة الأسفار غير القانونية:

- J. H. Charlesworth, edt-The Old Testament Pseudepigraph, Dobeleday, N.y. 1983.

(2) ابن عربي، فصوص الحِكم، تحقيق وتعليق أبو العلا عفيفي، ص319 وما بعدها.

(3) د. سعاد الحكيم «المعجم الصوفي- الحكمة في حدود الكلمة» بيروت، ص319 وما بعدها.

وكل ما عداها يندرج تحتها: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ النحل: 17. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ﴾ الحج: 73.

3- كان خلق الإنسان آخر فعاليات الإله الخالق، لأنه ما فائدة من إعداد مائدة عليها ما لذ وطاب من المأكولات إذا لم يحضر مدعوون إليها؟ فالعالم هو المائدة والمدعو هو الإنسان الذي سخّر الله له العالم ليكون مسرحاً لفعالياته: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝﴾ إبراهيم: 32-33. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ غافر: 79.

4- إذا كان العالم قد خلق من أجل الإنسان، وكان الإنسان خليفة الله على الأرض موكلاً بشؤونها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ البقرة: 30. فإن عليه أن يكون جديراً بثقة خالقه من خلال فعل الخير. وفعل الخير تعبير عام عن كل موقف إيجابي للفرد من عالم الإنسان والطبيعة والحيوان: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ آل عمران: 104. ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ الحج: 73. ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ المؤمنون: 61. وعكس فعل الخير في الأرض هو الإفساد فيها: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ البقرة: 27. ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝﴾ الشعراء: 151-152. وقد ورد تعبير الإفساد والمفسدين في الأرض نحو 50 مرة في القرآن.

كما جرى التعبير عن فعل الخير أيضاً بصيغة «العمل الصالح» والذي ارتبط لأهميته بالإيمان بالله: ﴿مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وقد تكررت هذه الصيغة في القرآن نحو 70 مرة.

5- إن الصلاح وعمل الخيرات وعدم الإفساد في الأرض، ليست إلا بنوداً في منظومة أخلاقية قرآنية هي الأوسع والأشمل في تاريخ الثقافة الإنسانية. فهي تبتدئ بتحريم القتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ﴾ الإسراء: 33، وتنتهي

بأبسط السلوكيات مثل رفع الصوت أثناء الكـلام: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ لقمان: 19. وبينهما عشرات الوصايا الموزعة في ثنايا السور.

في هذه المنظومة تتخذ وصية إنفاق المال لمساعدة المحتاجين مكان المركز: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ البقرة: 262. ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إبراهيم: 31. ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝﴾ المعارج: 24-25. وقد زادت الآيات التي تخص على الإنفاق على السائل والمحروم عن الثمانين آية في الكتاب: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ البقرة: 271.

6- ولقد تم رفد هذه المنظومة الأخلاقية بمنظومة شرائعية تهدف إلى تنظيم حياة المجتمعات الإنسـانية، وهـي تتكـون مـن الأوامـر والنـواحي، والحـلال والحرام، والعبادات. وعلى الرغم من أنها لم تأخذ من القرآن الحيّز الذي أخذته الأخلاق، إلا أن المذاهب الفقهية توسعت في بنودها من خلال الاجتـهاد حـتى صارت تضاهي الشريعة التوراتية.

7- فالحياة الدنيا هي فترة امتحان واختبـار للإنسـان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ هـود: 7. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك: 1-2. ولكل عمل جزاؤه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فالله عزيز ذو انتقام على ما ورد في سورة آل عمـران: 4، والمائـدة: 95. وانتقام الله ليس نوعاً من الثأر كما هو حال البشر، بل هو عدالته: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ الكهـف: 31. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾[1] يـونس: 24. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ الزلزلـة: 7-8. وعقاب الله على نوعين، فعقاب الأقوام جماعي وقد يحصل في الحيـاة الـدنيا، مثل عقاب قوم لوط وعقاب قوم شعيب، أما عقاب الأفراد ففي الحياة الثانية.

---

(1) في هذه الآية تأخير وتقديم. فالناس هم الذين يظلمون أنفسهم.

8- العالم مؤقت وهو آيل إلى الزوال في موعد قريب لا يعرفه سوى من خلقه، وهو «الأجل المسمى»: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الرعد: 3. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إبراهيم: 10. ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الروم: 8. وعبر سور القرآن ترتسم أمامنا لوحة شاعرية أخاذة للكارثة الكونية المقبلة؛ فالسماوات تطوى، والشمس تنطفي، والنجوم تتساقط، والأرض تتزلزل وتخرج أثقالها من باطنها. ويترافق ذلك كله مع فناء الحياة على الأرض: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ الرحمن: 26-27. يلي ذلك القيامة العامة للموتى من أجل الحساب الأخير: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾ الغاشية: 25-26. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ النازعات: 37-41. ولا تكاد تخلو سورة من تصوير الجنة ونعيمها والجحيم وعذابها.

التوفيقية في المشروع المحمدي:

لم ينبثق المشروع المحمدي من فراغ، فهو الحلقة الأخيرة مما دعوناه بالملحمة الدينية الكبرى. وبالتالي فإن ما جاء به الرسل السابقون لم يكن إلا مقدمة له كدين جديد، ولكنه يقوم على اساس متجذر في الماضي الديني للمنطقة المشرقية. ذلك أن كل جديد سواء في عالم الطبيعة أم عالم الثقافة، إنما ينشأ عن قديم، ولكنه على جدته يبقى محتفظاً بالعديد من سمات أصوله، مثل الوليد الجديد الذي يحمل من صفات وخصائص والديه ولكنه يبقى، مع ذلك، كياناً مستقلاً يحتفظ بصفات وخصائص خاصة به. فالقرآن هو خاتمة الفصول في كتاب واحد. كل فصل فيه يكمل سابقه ويضيف إليه:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ النساء: 163.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ الشورى: 13.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ البقرة: 101.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ النساء: 47.

ولقد اختلفت الشرائع التي جاء بها الأنبياء باختلاف الزمان والمكان، ولكن الدين واحد وهو الإسلام دين التوحيد. فالإسلام لا يبتدئ مع محمد بل هو دين كل الأنبياء قبله (راجع على سبيل المثال: البقرة: 130-132، ويوسف: 101، ويونس: 84، والأنبياء: 108) وقد نقل رسالة الإسلام إلى الناس عبر التاريخ أنبياء ورسل اختارهم الله لهذه الغاية. فالرسول هو من بعثه الله برسالة وشريعة جديدة، مثل إبراهيم وموسى وعيسى، أما النبي فهو من نزل عليه الوحي على إحدى الرسالات السابقة، مثل إلياس وإليشع وبقية أنبياء التوراة الذين بشروا على مذهب موسى. وقد وردت أخبار هؤلاء وعددهم 25 في سور القرآن الكريم موزعة بين الفئات التالية:

الفترة المبكرة: 1- آدم، 2- إدريس، 3- نوح.

وقد ورد اسم إدريس كواحد من الأنبياء في سورة الأنبياء: 85 دون مزيد من التفاصيل. كما ورد أيضاً في سورة مريم مع إشارة غير واضحة تدل على أنه رُفع إلى السماء: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾ مريم: 56. ولذلك فقد طابق مفسرو القرآن بينه وبين أخنوخ في التوراة وهو السلف السادس للبشرية بعد نوح، والذي لصلاحه رفعه الله حياً إلى السماء (سفر التكوين 5: 21-24).

الخط الإبراهيمي: 4- إبراهيم. 5- لوط. 6- إسماعيل. 7- إسحاق. 8- يعقوب. 9- يوسف وبقية إخوته من الأسباط الاثني عشر أولاد يعقوب (بخصوص نبوة الأسباط راجع: البقرة: 136 و140، آل عمران: 140، النساء: 163).

الخط الموسوي: 10- موسى. 11- هارون. 12- داود. 13- سليمان. 14- إلياس. 15- اليشع. 16- يونس. 17- أيوب.

الخط الإنجيلي: 18- زكريا. 19- يحيى. 20- عيسى.

أنبياء عرب: 21- هود، 22- صالح. 23- شعيب. 24- ذو الكِفل. 25- محمد بن عبد الله.

وقد وردت أخبار هود وصالح وشعيب وأقوامهم في عدد من السور، أما ذو الكِفل فقد ورد اسمه مرتين في سورة ص وسورة الأنبياء دون معلومات عنه وعن قومه. ولذلك قال المفسرون إنه حزقيال في التوراة دون دليل واضح على ذلك. وقد وضعته مع الأنبياء العرب اعتماداً على صيغة اسمه التي تشبه صيغة اسم إله عربي معروف هو ذو الشرى، فكلا الاسمين مسبوق باسم الإشارة «ذو».

إن كل هؤلاء الأنبياء المذكورين في القرآن، عدا الأنبياء الأربعة العرب هود وصالح وشعيب وذو الكفل، ينتمون إلى خط النبوة التوراتي ـ الإنجيلي، الذي ختمه محمد بن عبد الله، لأن عيسى بن مريم قد بشر بقدومه من بعده (سورة الصف: 61). وبه تم اختتام ملحمة التوحيد الكبرى. ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تكون مهمة الفصل الأخير من هذه الملحمة، أي المشروع المحمدي، هي إعادة صياغة التركة الدينية للمنطقة الشرقية، والإضافة عليها بما يتناسب مع المرحلة الزمنية التي أنتجته، وذلك من منظور توفيقي يركز على ما يجمع بينها لا على ما يفرق. وعلى الرغم من أنه بتركيزه على خط النبوة التوراتي ـ الإنجيلي بدا وكأنه استبعد خط النبوة الإيراني الذي يشكل مركز الثقل الآخر في تلك التركة الدينية، إلا أن ذلك الخط كان بمكانة الغائب الحاضر في المشروع المحمدي، لأن مؤدى الآية 164 من سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ يشير بقوة إلى زرادشت نبي الزرادشتية وماني نبي المانوية. وكذلك الآية 78 من سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

ولعلنا نجد في المانوية ما يلقي ضوءاً على التوفيقية في المشروع المحمدي. فلقد كان لماني (الذي بشر برسالته في أواسط القرن الثالث الميلادي

ودعا نفسه خاتم الأنبياء قبل محمد) مشروع توفيقي أيضاً. فالمصادر المانوية التي بين أيدينا تروي عنه قوله: «كما أن نهراً يرفد نهراً آخر لتشكيل تيار قوي دافق، كذلك صبت الكتب القديمة في كتبي فصاغت حكمة لا مثيل لها في الأجيال السابقة». وقد قدم لنا المؤلفون المسلمون الذين تصدوا للكلام عن المانوية وشرح عقائدها تفصيلاً لهذه المقولة. فمما ذكره القاضي عبد الجبار عالم الكلام الاعتزالي (ت عام 415هـ) في كتابه «المغني»:

«وعندهم أن أول ما بعث الله بالعالم آدم، ثم شيتاً[1]، ثم نوحاً. وبعث زرادشت إلى أرض فارس، والبدُّة (=البوذا) إلى أرض الهند، وعيسى إلى بلاد الغرب، ثم ماني خاتم النبيين»[2].

ومما ذكره الشهرستاني (ت عام 548هـ) في كتابه «الملل والنِحل»:

«إن أول من بعث الله بالحكمة والعمل آدم أبو البشر، ثم شيثاً بعده، ثم نوحاً بعده، ثم إبراهيم بعده، ثم بعث البدة إلى أرض الهند، وزرادشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله إلى أرض الروم، وبولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي خاتم الأنبياء»[3].

أي إن مشروع ماني يتقاطع مع المشروع المحمدي، ولكنه يختلف عنه في اعتماده إبراهيم وحده من خط النبوة الإبراهيمي، وفي تجاهله لموسى وخط النبوة الموسوي، وإضافته لزرادشت والبوذا. ولا يبدو أن إهمال ماني لمعظم التركة الدينية للعهد القديم هو نتاج جهل باليهودية، لأن الباحثين المحدثين الذين درسوا المخطوطات المانوية التي وجدت في مصر وفي آسيا الوسطى، يرون أنه اطلع على الأسفار التوراتية غير القانونية وتأثر بها لاسيما بسفري أخنوخ الأول والثاني. وهذا يعني أن اليهودية قد دخلت وإن بشكل غير مباشر

---

(1) شيت هو الابن الثالث لآدم في التوراة. راجع سفر التكوين 5: 3.

(2) جيووايد نغرين، ماني والمانوية، ترجمة د. سهيل زكار، دار التكوين، دمشق 2018، ص282.

(3) المرجع نفسه ص300.

في توفيقية ماني، لأن الأسفار غير القانونية قد أدت دوراً هاماً في تشكيل الفكر التلمودي بعد اختتام التوراة، على الرغم من بقائها على هامش النص القانوني.

وفي مقابل إهماله لموسى فقد شغل يسوع المسيح مكانة هامة عند ماني، وقال إن يسوع قد تنبأ وبشر بقدومه بعده. ويبدو أن ماني هنا يعطف على المقطع الغامض في إنجيل يوحنا 16: 7-10، والذي فسره المسلمون أيضاً بأنه نبوءة بقدوم محمد. وقد دعا ماني أحد مؤلفاته بالإنجيل الحي، وكان ليسوع حضور واضح في التراتيل الدينية المانوية.

وعلى صعيد آخر فإن المانوية تزودنا بفهم للعلاقة بين الوحي والنص يتطابق مع ما قدمناه حتى الآن في هذه الدراسة. فلقد نشأ ماني في أسرة تنتمي إلى طائفة معمدانية تعيش قرب مدينة بابل القديمة يدعوها المؤلفون المسلمون بالمغتسلة، تنتمي إلى يوحنا المعمدان الذي كان يعمد بالماء على ضفة نهر الأردن، وهم بلا شك الصابئة المندائيون الموجودون حتى الآن في جنوب العراق. ولمّا أتمّ ماني اثنتي عشرة سنة من العمر أتاه رسول سماوي بالوحي الأول، على ما تورده المخطوطات المانوية القبطية على لسان ماني نفسه، قال: «عندما كان الملك أردشير[1] على وشك التتويج نَزل الفارقليط الحي وأباح لي معرفة السر المحجوب عن عصور وأجيال بني البشر، السر العميق والعالي، سر النور والظلام، سر الصراع والحرب، كل هذا أباحه لي، وقال لي: اعتزل هذه الملة فلست من أهلها، وعليك بالنزاهة وترك الشهوات، ولم يئن لك بعدُ أن تظهر لحداثة سنك». وحين بلغ ماني الرجولة وأدرك الرابعة والعشرين في نحو سنة 240م، جاءه الوحي الثاني: «السلام عليك يا ماني مني ومن الرب الذي أرسلني إليك واختارك لرسالته، وقد أمرك أن تدعو وتبشر الحق من قبله، وتحتمل في ذلك كل جهدك»[2].

---

(1) وهو أردشير الأول مؤسس الأسرة الساسانية، توفي عام 248م.

(2) جيووايد نغرين، المرجع السابق ص43-44.

بعد ذلك، وخلال حياته التبشيرية الطويلة كتب ماني سبعة مؤلفات واحد منها بالفارسية وستة بالآرامية السريانية التي تكلمت بها الأصقاع الشرقية من الإمبراطورية الفارسية، إضافة إلى عدد من الرسائل. وكان يفتخر بأنه ألف كتبه بنفسه على عكس من سبقه من الأنبياء الذين ألف كتبهم المقدسة تلاميذهم من بعدهم. ولذلك لم يكن الرسل الذين بعثهم ماني للتبشير وصولاً إلى الصين يقولون إذا أوردوا شيئاً من حكمة ماني «قال تعالى»، على طريقة المسلمين، لأن ما يقرأونه في كتب ماني ليس كلام الله بل كلام عن الله يصدر عن وحي إلهي. والوحي يشبه الفكرة عندما تتشكل في الدماغ بدون كلام، ثم تأتي اللغة التي هي وعاء الفكرة لتعبر عنها بالكلام. وقبل أن يتكلم ماني كان لديه الوقت الكافي بين الوحي الأول والوحي الثاني لدراسة التركة الدينية للمنطقة لكي يشيد فوقها البناء السابق لعقيدته.

بالعودة إلى المشروع المحمدي، هناك سؤال يطرح نفسه على الدارس وهو: ما هي اللحمة التي جمعت خيوط السّدى[1] في الملحمة الكبرى لتجعل منها نسيجاً متماسكاً؟ في جوابي على هذا السؤال أقول لعلنا نجد تلك اللحمة في الاسم الأعظم للمبدأ الأول، وفي شخصية إبراهيم.

فلقد تعددت أسماء الإله الأعلى الخالق عبر مراحل التاريخ النبوي: إيل، إيل شداي، إلوهيم، يهوه، الآب، ثيوس. ولكي يتم ضم مراحل هذا التاريخ كان لابد من اسم واحد لتاريخ واحد، وهذا ما قام به المشروع المحمدي الذي وحد الاسم وعرّبه أيضاً. فالوحي واحد والموحي هو الآن واحد وله اسم واحد هو الله الإله الأعلى لعرب الجزيرة على ما تقوله لنا أكثر من آية قرآنية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم (أي عرب الجاهلية) مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ

(1) السدى: هو الخيوط الطولانية التي يبسطها النسّاج على النول اليدوي، ثم يشدها إلى بعضها باللحمة التي هي الخيوط العرضانية التي تجعل من الخيوط نسيجاً.

﴿ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ العنكبوت: 61-63.
ولكن العرب على إيمانهم بالله كإله خالق لم يكونوا على التوحيد وعبدوا مع الله آلهة أخرى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يوسف: 106. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ آل عمران: 63. هذا الإله العربي الذي أزال القرآن عنه رواسب الشرك. هو الآن إله لكل الأنبياء: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ القصص: 30. ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ آل عمران: 55. ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ المائدة: 72.

كما تم تعريب شخصية إبراهيم وجعلها الشخصية المركزية في الإسلام. فإبراهيم لم يعد الآب الأول للعبرانيين الذي تلقى وعد الرب بإعطاء نسله أرض كنعان، بل هو الأب الأول للأنبياء ولملة التوحيد: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ العنكبوت: 28. ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: 161. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ النساء: 125.

وعلى الرغم من تقاطع قصة إبراهيم القرآنية مع قصته التوراتية في العديد من المفاصل الرئيسية إلا أنهما تختلفان في مراميهما، وفي المسرح الجغرافي، وفي الشخصيات أحياناً. فمرامي القصة التوراتية هي البحث عن أصول بني إسرائيل في التاريخ، ومرامي القصة القرآنية هي البحث عن أصول التوحيد. والمسرح الجغرافي للقصة التوراتية هو فلسطين، أما المسرح الجغرافي للقصة القرآنية فهو الحجاز. فهنالك شخصية أساسية في القصة التوراتية غائبة تماماً عن القصة القرآنية وهي هاجر جارية سارة التي أنجب منها إبراهيم بكره إسماعيل قبل أن تنجب له سارة إسحاق. وبغياب هاجر يغدو إسماعيل وإسحاق أخوان شقيقان من أم واحدة هي سارة. وسوف نعمد فيما يلي إلى رصد التقاطعات والاختلافات بين التوراتي والقرآني في قصة إبراهيم.

قصة إبراهيم في الأدب الديني اليهودي تتناولها ثلاثة مصادر:

1- التوراة القانونية في سفر التكوين.

2- الأسفار التوراتية غير القانونية التي شرع الربانيون بتأليفها بعد اختتام التوراة القانونية في القرن الثاني قبل الميلاد، وتتابعت حتى القرن الثاني الميلادي، وعلى الرغم من عدم قانونيتها إلا أنها أدت دوراً هاماً في تشكيل العقيدة اليهودية وأثرت على الأدب التلمودي.

3- المدراشيم: ومفردها مدراش. وهي نوع آخر من الأدب الديني ذي طابع حكائي أسطوري يهدف إلى الشرح والتعليق على الأسفار القانونية، ويدعى كل مدراش باسم مؤلفه، ويرجع أقدم هذه المدراشات إلى أواخر القرن الثاني الميلادي، وسوف أدعو المصدر الثاني والمصدر الثالث بالأدب التوراتي المتحول، أي غير القانوني.

إبراهيم في التوراة:

في سفر التكوين القانوني عاش إبراهيم في بيت أبيه تارح بمدينة أور الرافدية، وكان له أخوان هما هاران وناحور، ولكن هاران توفي بعد أن أنجب ابنه لوطاً. ولسبب لا يذكره محرر النص قرر تارح ترك موطنه والهجرة إلى الشام، فأخذ معه ابنه إبراهيم وزوجته سارة ولوطاً ابن ابنه المتوفى وجاء إلى حاران في الشمال السوري وأقام فيها. ثم إن تارح توفي في أرض غربته. عند ذلك تلقى إبراهيم الوحي الأول من الرب الذي يأمره بترك حاران والتوجه إلى كنعان التي تعني في التوراة دوماً فلسطين: «إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة» فأخذ إبراهيم زوجته وابن أخيه لوطاً فأتوا إلى أرض كنعان. وهناك تلقى الوحي الثاني: «لنسلك أعطي هذه الأرض». ثم تحول هذا الوعد إلى عهد، أو معاهدة بين الطرفين: «وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم» 17: 7-8.

السفر إلى مصر: تنقل إبراهيم بين شكيم في الشمال وبيت إيل في الوسط. ثم صار جوع في الأرض بسبب الجفاف، فارتحلت الجماعة إلى مصر التي كان فيها خبز. ولما كانت سارة جميلة المنظر قال عنها إبراهيم إنها أخته لكي لا يقتل بسببها[1] (لأن المرأة المتزوجة في ثقافة الشرق القديم كانت تتمتع بحصانة ولا يستطيع أحد انتزاعها من زوجها إلا إذا ترملت). فرأى رجال الفرعون سارة مدحوها أمامه فأمر أن تضم إلى حريمه، وصنع لإبراهيم خيراً بسببها فصار له ماشية وحمير وعبيد وبعير. ثم إن الفرعون اكتشف حقيقة سارة فأعادها إلى زوجها وصرفهم فرجعوا إلى كنعان. وهناك انفصل إبراهيم عن لوط فأقام لوط عند مدينة سدوم وأقام إبراهيم عند مدينة حبرون في الجنوب على حافة صحراء النقب. وقد دعا المسلمون حبرون بعد الفتح بالخليل نسبة إلى إبراهيم الخليل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ الإسراء: 73.

هاجر وإسماعيل: حتى ذلك الوقت بقيت سارة زوجة إبراهيم عاقراً على الرغم من الوعد المتكرر للرب لهما بالإنجاب، ولما يئست من الحمل قالت لزوجها أن يدخل على جاريتها هاجر لتنجب لهما نسلاً، ففعل إبراهيم وحملت هاجر وأنجبت إسماعيل. سعد إبراهيم بميلاد إسماعيل وظن أنه سيكون وريث العهد الإلهي فقال للرب: «ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال له: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً ولنسله من بعده، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً، ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق» التكوين 17: 18-22.

الزيارة الإلهية: بينما هو جالس على باب خيمته في أطراف مدينة حبرون ظهر له الرب. فرفع إبراهيم عينيه ونظر فإذا بثلاثة رجال واقفون لديه، ولم يكن هؤلاء

---

(1) عندما جاء إبراهيم إلى كنعان كان في سن الخامسة والسبعين، وبما أن سارة كانت أصغر منه بعشر سنوات على ما نفهم من سياق الأحداث التالية، فإن عمر سارة كان 65 سنة، وفي مصر فوق سن السبعين.

سوى إله إبراهيم واثنان من ملائكته. فركض لاستقبالهم وسجد إلى الأرض، وعرض عليهم أن يستريحوا تحت الشجرة ويغسلوا أقدامهم ريثما يقوم بتجهيز الطعام لهم، فقالوا: هكذا نفعل. فأسرع إبراهيم إلى سارة في الخيمة وقال لها أن تشرع بصنع خبز للضيوف، ثم أعطى توجيهاته إلى خادمه ليذبح عجلاً رخصاً اختاره من القطيع ثم يعده غداءً لهم. وبينما هو واقف لديهم أكلوا وشبعوا، ولما انتهوا قال له الرب: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقال: إني أرجع إليك بعد انقضاء زمن الحمل ويكون لسارة ابن. فسمعت سارة كلامه وضحكت وقالت أيكون لي هذا وأنا وزوجي شيخان متقدمان في السن؟ وهنا تحصل مشادة كلامية بين الرب وسارة. قال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة وقالت كذا. فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك، لأنها خافت. فقال: لا بل ضحكت. هل يستحيل على الرب شيء؟

ثم قام الرجال وإبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم وكانوا يتطلعون نحو مدينة سدوم. وهنا أطلع الرب إبراهيم على نيته في تدمير مدينتي سدوم وعمورة لأن شرهما قد كثر، وكان الرجلان الآخران قد انصرفا وذهبا نحو سدوم. فقال له إبراهيم: عسى أن يكون هنالك خمسين باراً في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه لأجل الخمسين باراً الذين فيه؟ فقال الرب: إن وجدت خمسين فإني أصفح عن المكان من أجلهم. فقال إبراهيم: ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك المدينة كلها بالخمسة؟ فقال: لا أهلك إذا وجدت هناك خمسة وأربعين. فعاد يكلمه أيضاً وقال: عسى أن يكون هنالك أربعون. فقال: لا أهلك من أجل الأربعين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم، عسى أن يكون هنالك ثلاثون. فقال: لا أهلك من أجل إن وجدت هنالك ثلاثين. فقال: عسى أن يكون هنالك عشرون. فقال: لا أهلك من أجل العشرين. فقال: عسى أن يكون هنالك عشرة. فقال: لا أهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من هذا الكلام مع إبراهيم[1] (التكوين: 18).

---

(1) اقتبس مزور حديث المعراج هذه المساومة بين إبراهيم وإلهه وجعلها بين محمد وإلهه عندما أنقص محمد عدد الصلواتالمفروضة نم 50 إلى 5.

لوط: فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً وكان لوط جالساً عند بوابة المدينة، فلما رآهما قام لاستقبالهما وسجد إلى الأرض ودعاهما للمبيت عنده، فمالا إليه ودخلا بيته، فصنع لهما عشاءً وأكلا. وقبل أن يأويا إلى مضجعهما أحاط بالبيت رجال سدوم ونادوا لوطا وقالوا: أين الرجلان اللذان دخلا بيتك؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما. (وفعل عرف في التوراة يستخدم في مثل هـذا السـياق بمعـنى الفعـل الجنسي). فخرج إليهما لوط وقال: لا تفعلوا شراً يـا إخـوتي، هـو ذا لي ابنتـان أخرجهما إليكم فافعلوا بهما ما يحسن في أعيـنكم، وأمـا هـذان الـرجلان فـلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا بيتي. فقالوا: أبعـد لـئلا نفعـل بـك شـراً أكثـر منهما. ثم تقدموا ليكسروا الباب، فمد الملاكان أيديهما وأدخلا لوط إلى البيت، وضربا الرجال في الخارج بالعمى فلم يجدوا الباب، ثم قال له الملاكان: قم خذ ابنتيك وامرأتك لئلا تهلك بإثم المدينة، اهرب لحياتك ولا ينظر أحد مـنكم إلى ورائه، أهرب إلى الجبل. ولما أشرقت الشمس أمطر الرب على سدوم وعمـورة كبريتاً وناراً من السماء، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سـكانها ونبـات الأرض. ونظرت امرأته إلى ورائها فصارت عمود ملح (التكوين: 19).

طرد هاجر: وافتقد الرب سارة وفعل لهـا كمـا تكلـم، فحبلـت وولـدت لإبراهيم ابنـاً في شـيخوخته دعـاه إسـحاق، فكـبر الولـد وفُطـم. ورأت سـارة إسماعيل ابن هاجر يلهو فقالت لإبراهيم، اطرد هذه الجارية وابنها لأنني لا أريد لابنها أن يرث مع ابني. فقبح هذا الكلام في عيني إبراهيم، فقال الله له: في كـل ما تقوله لك سارة اسمع لقولها، لأنه بإسحاق يكـون لـك نسـلاً وابـن الجاريـة سأجعله أمة لأنه نسلك. فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربـة مـاء وأعطاهمـا لهاجر وصرفها مع الولد، فمضت وتاهت في برية بئر السبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار وجلست بعيداً نحو رمية قوس لكي لا تنظر موت الولد وراحت تبكي. ففتح الله عينيها وأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في برية فاران وصار رامي قوس، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر (التكوين: 21).

القربان والفداء: وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم وقـال لـه: خذ ابنك وحيدك إسحاق واذهب إلى أرض الموريـا وقدمـه لي قربانـاً (حرفيـا: أصعده محرقة) على أحد الجبال الذي أريك. فذهب إبراهيم إلى المكان وجهـز الحطب للمحرقة ثم مد يده وأخذ السكين ليذبح ابنـه فنـاداه الـرب مـن السـماء وقال: لا تمد يدك إلى الغلام، الآن علمت أنـك خـائف الله فلـم تمسـك ابنـك وحيدك عني. ثم حانت من إبراهيم نظرة إلى الغابة فرأى فيها كبشاً ممسكاً بقرنية بين الأشجار فذهب وأخذه وأصعده محرقةً (التكوين: 22).

إبراهيم في المنحولات:

قدم الأدب الديني المنحول إضافتين مهمتين على الرواية القانونية، الأولى تتعلق باهتدائه إلى الإله الحق، والثانية تفسير السبب الذي دعا تارح والد إبراهيم إلى ترك موطنه في مدينة أور والرحيـل إلى حـاران. الإضـافة الأولى نجـدها في سفر البوبيليات (أو الخمسينيات) وهو من الأسفار غير القانونية، وهي تتحـدث عن تجربة روحية عرضت لإبراهيم قبل أن يأتيه وحي الرب.

فذات مساء جلس إبراهيم يراقب النجوم من الغسق إلى الفجر ليستخيرها فيما ستأتي به السنة الجديدة من خير ومطر. ولكن قلبه نبض بكلمات وحدث نفسه قائلاً: إن كل شارات السماء من نجوم وشمس وقمر هي في يد الرب، فما الذي أبحث عنه فيها؟ إن شاء الرب جعل السماء تمطر من الصباح إلى المساء، وإن شاء أغلقها، لأن كل شيء ملك يديه، ثم صلى قائلاً: أيها الإله العلي أنت وحدك إلهي. لقد خلقـت كل شيء وكل ما في الوجود صنعة يديك. لقد اخترتك واخترت ملكوتـك فأنقـذني من الأرواح الشريرة التي تسيطر على قلوب البشر ولا تجعلهم يضلوني[1].

وفي البوبيليات لدينا أيضاً قصة عن رفض إبراهيم عبادة الأصنام ثم إحراقه لمعبد قومه في أور.

(1) I.H. Charlesworth, the Old Tetament Pseudepigrapha, Dobleday, New York, 1983, Vol. 2, ch.1.

فقد كان أبوه سادناً لبيت الأصنام، فراح إبراهيم في أحد الأيام يخاطب أباه قائلاً: ما نفع هذه الأصنام التي نسجد لها ونطلب عونها وهي خرساء ولا روح فيها؟ إنها ضلالة للقلب فلا تعبدها واعبد إله السماء الذي يرسل المطر والندى والذي خلق كل شيء بكلمته. لماذا تعبد هذه الأصنام التي تصنعها الأيدي وليس فيها نفع لأحد؟ إنها خزي لصانعها وضلالة لمن يعبدها. فقال له أبوه: أعرف يا ولدي، ولكن ماذا أفعل وقد عهد إليّ القوم أمر سدانتها؟ لو كلمتهم بالبر لقتلوني لأن قلوبهم متعلقة بها، لذلك الزم الصمت لكي لا يصيبك أذى منهم. ثم إن إبراهيم حدَّث أخويه بما حدث به والده فاستعر غضبهما عليه. فما كان منه إلا أن تسلل إلى بيت الأصنام وأضرم النار فيه، فهب القوم لإنقاذ آلهتهم وكان أخوه هاران بينهم فاحترق ومات ودفن في أور. عند ذلك لم يجد تارح بداً من الهرب بعائلته، فأخذ معه إبراهيم ولوطاً ابن هاران واتخذ طريقه إلى حاران حيث أقام مدة ثم توفي[1].

ولدينا في المنحولات تنويع على هذه القصة وذلك في مدراش التكوين للرابي ربّا (أو مدراش بريشت ربّا) المدون بالآرامية أواخر القرن الخامس الميلادي. وإبراهيم هنا لا يحرق بيت الأصنام بل يحطمها بعصاً. فقد كان تارح أبو إبراهيم يعمل في صناعة الأصنام وبيعها. وفي أحد الأيام غادر ورشته لأمر ما وعهد إلى إبراهيم أن ينوب عنه ريثما يعود. فجاءت إليه امرأة ومعها سلة طحين ورجته أن يقدمها قرباناً للآلهة فوعدها خيراً. ولما انصرفت حمل بيده عصا ودخل إلى مستودع الأصنام فحطمها جميعاً عدا صنم الإله الأكبر الذي تركه سليماً ووضع في يده العصا التي استخدمها في التحطيم. وعندما عاد أبوه ورأى ما رأى صاح بابنه: من فعل هذا؟ أجابه إبراهيم: جاءت امرأة بسلة طحين وسألتني أن أقربها إليهم ففعلت، ولكنهم تخاصموا فيمن يأكل أولاً، فقام كبيرهم وأخذ بيده العصا وكسرهم. فقال له أبوه: أتهزأ مني؟ أهذه الحجارة تعي

---

(1) المرجع السابق.

وتتكلم؟ فقال له إبراهيم: ألا تسمع أذناك ما تقوله شفتاك؟ ثم إن أباه أخذه إلى النمرود ملك المدينة ليحكم في قضيته، فقرر النمرود إحراقه حياً، وأمر بإيقاد النار التي زُجّ فيها إبراهيم، ولكن النار لم تمسه وخرج منها حياً[1].

إبراهيم في القرآن :

كما هو الحال في بقية القصص القرآني، فإن قصة إبراهيم توزعت على عدد من السور بعضها موجز وآخر أكثر تفصيلاً، ولكننا لا نجد فيها أي دليل على أن فلسطين، أو كنعان بالمصطلح التوراتي، كانت المسرح الجغرافي الذي جرت فيه الأحداث الرئيسية للقصة، بل هو منطقة شمال غرب العربية وما يليها إلى الجنوب الغربي أي الحجاز. ففي شمال غرب العربية نشأت في سياق الألف الأولى قبل الميلاد أربع ممالك عربية اغتنت من التجارة وكان لها شأن في الحياة السياسية للمنطقة المشرقية، أو آسيا الغربية بالمصطلح التاريخي، وهي: تيماء، وقيدار، وددان، ولحيان (راجع بحث التكوين السياسي لعرب الشمال في قسم الملاحق)، ويبدو أن إحداها مرشحة لأن تكون موطن والد إبراهيم المدعو في القرآن آزر وليس تارح. وهنا أريد من قارئي أن يعي ابتداءً، أنني أتتبع منطق القصة القرآنية لا منطق التاريخ، وأنه ليس في نيتي نفي أو إثبات وجود إبراهيم كشخصية تاريخية. فنحن عندما نخضع الأدب الديني إلى منطق التاريخ نكون قد ظلمنا الأدب الديني والتاريخ في آن معاً. وسنحاول فيما يلي جمع متفرقات القصة القرآنية في واحدة.

فلقد عرضتْ لإبراهيم الشاب في موطنه الأول تجربة روحية هدته إلى الإله الواحد خالق السماوات والأرض تتقاطع مع تجربة إبراهيم التوراتي في حران. نقرأ في سورة الأنعام:

---

(1) ترجم لي هذا الجزء من المدراش عن الآرامية صديقي عمر حكمت الخولي الباحث في اللغات السامية الغربية، وقد قدمته مختصراً.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام: 74-79.

وكما نلاحظ فإن هذه التجربة تشبه إلى حد بعيد تجربة إبراهيم التوراتي في كتاب البوبيليات عندما جلس ذات مساء يراقب النجوم من الغسق إلى الفجر، ثم انتهى إلى القول: أيها الإله العلي أنت وحدك إلهي، لقد خلقت كل شيء وكل مافي الوجود صنعة يديك. لقد اخترتك واخترت ملكوتك.

ثم إن إبراهيم حاول هداية أبيه كما حاول إبراهيم التوراتي في كتاب البوبيليات وفي المدراش:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الأنبياء: 51-56.

وعندما لم يلق خطابه أذناً صاغية من أحد دفعه تهور الشباب إلى إتلاف الأصنام المعبودة. وهنا تمزج القصة القرآنية بين إحراق بيت الأصنام في كتاب البيوبيليات وتحطيمها في ورشة أبيه في المدراش:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨﴾ الأنبياء: 57-71.

ونلاحظ هنا غياب عنصر تعليق العصا التي استخدمها إبراهيم في عنق صنم كبير الآلهة مما ورد في المدراش. ولكن مفسري القرآن لم يفوتوا عليهم هذا العنصر الجذاب فأضافوه إلى القصة القرآنية على عادتهم في استشارة الأدب اليهودي. فقال ابن كثير إن إبراهيم وضع القدوم في يد كبيرهم، وقال الطبري أنه علق الفأس في عنق الصنم الأكبر. أما عن الأرض التي نجاه إليها ربه فقالوا اعتماداً على التوراة أنه جاء من العراق إلى الشام فإلى بيت المقدس، دون إشارة ولو خافتة من القرآن إلى ذلك بل العكس، لأن الإشارات الخافتة هنا تدل على مكة:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71) .	﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ آل عمران: 96-97.

وهذا يعني أن ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ هي الأرض التي شُيد فيها أول بيت وضع للناس في بكة مباركاً وهدى للعالمين. فإبراهيم بعد نجاته من النار هرب مع لوط من إحدى الممالك التي ذكرناها في شمال الحجاز إلى موقع مكة ومعهما زوجتاهما، ثم افترق لوط (الذي من الممكن أن يكون ابن أخٍ لإبراهيم كما هو الحال في الرواية التوراتية) عن إبراهيم وأقام في مكان ما من الحجاز لا نستطيع تحديده. ولم تكن مكة في ذلك الوقت مدينة ولا حتى بلدة صغيرة، لأن أهل الأخبار يقولون لنا إن قصي بن كلاب شيخ قبيلة قريش الذي جاء بها إلى هذا الموقع (وهو السلف الخامس لمحمد) كان أول من نقض الخيام فيه وبنى البيوت، ومعه ابتدأ تاريخ مكة كمدينة. ولم يكن في المكان سوى معبد ديني متواضع له سور قليل الارتفاع وبداخله مذبح حجري ورمز للألوهة المعبودة في ذلك المكان، والذي نرجح أن يكون نصباً حجرياً بازلتياً، على ما هو معمول به في بقية المعابد الصحراوية التي تم اكتشافها في صحراء سيناء.

وكان هذا المعبد مكاناً مقدساً لعدة جماعات عربية كانت تأتي إليه وتقدم القرابين لإلهه[1].

وقد أعاد إبراهيم بناء هذا البيت وجدده ونظم الطقوس التي تقام عنده، أي شعائر الحج:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝﴾ إبراهيم: 35-37.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ البقرة: 127.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝﴾ الحج: 27-29.

ولكن المفسرين فهموا من قول الآية 37 في سورة إبراهيم، ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، اعتماداً على الرواية التوراتية في سفر التكوين، أن إبراهيم قد نزل عند رغبة زوجته سارة في طرد هاجر أم إسماعيل وابنها، فأخذهما من موطنه في الخليل وسار بهما إلى مكة حيث تركهما هناك وعاد. وسوف أتتبع فيما يلي تفسير الطبري عن ابن عباس:

أن أول من سعى بين الصفا والمروة كان أم إسماعيل لما فرت من سارة، فجاء بها إبراهيم وابنها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت فوضعهما ثم أدار

---

(1) لمزيد من المعلومات راجع كتابي:
- عبادة الأحجار عند الساميين، دار التكوين، دمشق 2021، ص95-110.

ظهره ليعود. فتبعته قائلة: إلى أي شيء تكلنا؟ هل أمرك الله بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيعنا. فمضى وهو يقول: إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع... فلما فرغت قربة الماء التي معها وعطشت وعطش الصبي، صعدت الصفا علها تسمع صوتاً أو ترى أنيساً فلم تسمع. فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض فصعدت المروة. وفعلت ذلك سبع مرات، وفي آخر سعي لها جاءها ملاك فقادها إلى موضع زمزم وضرب بقدمه الأرض فانبجس نبع ماء، فعجلت وملأت قربتها وشربت وسقت ابنها. وقال لها الملاك إن أبا هذا الغلام سيجيء فيبنيان معاً بيتاً هذا موضعه. ثم إن جماعة من قبيلة جرهم مرت من ذلك المكان تريد الشام، فرأوا عن بعد طيوراً تحوم فوق الجبل فقالوا إن هذا الطير يحوم على ماء. فأتوا المكان فرأوها وقالوا لها: إن شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك. قالت نعم. فنصبت جرهم منذ ذلك الوقت خيامها في المكان. وشب إسماعيل بينهم وتزوج إحدى نسائهم، ثم ماتت أمه. ثم إن إبراهيم بعد كل هذه السنين أحب زيارة الموضع الذي ترك فيه أهله، فاستأذن سارة فأذنت له شريطة أن لا يقيم هناك. فقام بزيارة قصيرة ثم عاد. وبعد ذلك قام بزيارة أطول بنى خلالها البيت الحرام مع إسماعيل ثم عاد.

ونحن إذا قارنا هذه القصة الإسلامية على القصة الأصل في كتاب التوراة، لبدت لنا الرواية التوراتية أكثر منطقية، فبعد أن نزل إبراهيم عند رغبة سارة، يقول لنا المحرر: «فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها، فمضت وتاهت في برية بئر السبع». أي إن إبراهيم لم يصطحب هاجر وابنها إلى أي مكان، بل لقد سارت لوحدها وصولاً إلى برية بئر السبع التي لا تبعد عن الخليل أكثر من 26 كم، وهناك نفد منها الماء وظهر لها الملاك. أما في القصة الإسلامية فقد كان على إبراهيم أن يقطع مع هاجر وابنها مسافة 1300كم وصولاً إلى مكة ليتركهما بوادٍ غير ذي زرع ثم يعود أدراجه على طول المسافة نفسها، التي يستغرق قطعها من قبل رجل صحيح البنية نحو شهر من الزمان، لأنه لا يستطيع أن يمشي في اليوم أكثر من 50كم، مع ما يتطلبه ذلك من استراحات وطعام وقضاء الليل، أما إذا كان

يصطحب امرأة وطفلها فسوف تستغرق الرحلة نحو شهرين[1]. ومن أجل حل هذه المشكلة قال بعض أهل الحديث إن إبراهيم كان يزور هاجر كل شهر راكباً على البراق فيأتي مكة ثم يرجع فيقيل في الشام، على ما حدّث به الصحابي أبو جهم بن حذيفة ونقله عنه العسقلاني في «فتح الباري في شرح صحيح البخاري». ولكن العسقلاني حل مشكلة زيارات إبراهيم المتكررة إلى البيت الحرام، ولكنه لم يحل مشكلة انتقال هاجر وابنها، لأن البراق هو مركبة الأنبياء ولا يجوز لجارية مسكينة أن تركبه.

القربان والفداء: قصة القربان والفداء التي وردت في سفر التكوين التوراتي: 22، ترد في سورة الصافات بعناصرها الرئيسية بالأسلوب القرآني المختزل، بعد مقدمة قصيرة موجزة عن قيام إبراهيم بتحطيم أصنام قومه وإلقائه في النار، على ما قومناه في حينه:

﴿... فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (112)﴾ الصافات: 98-112.

إن موضوع القربان في القصة القرآنية هو إسماعيل وليس إسحاق، فهو بكره الذي حملت به سارة بعد أن نجاه ربه إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين، وهو المقصود بالبشارة: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾. ولا أدل على ذلك من أن البشارة بإسحاق تأتي في نهاية قصة القربان: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإسماعيل هنا لا يبدو طفلاً صغيراً لا يدري ماذا يدور حوله كما هو إسحاق، وإنما فتى هو يافع «بلغ مع أبيه السعي»، أي صار يعاونه في العمل، وربما

---

(1) وقد مشيت مسافة 50كم أثناء الخدمة العسكرية مرتين وأعرف عما أتحدث.

المقصود هنا هو «رفع قواعد البيت». ولذلك قال لأبيه بعد أن قص عليه حلمه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

الضيوف السماويون: على الرغم من بشارة إبراهيم بمولوده الثاني إسحاق في آخر قصة القربان والفداء إلا أن ذلك لم يتحقق لاسيما وأن سارة قد تجاوزت سن الإنجاب بكثير، إلى أن وفد على إبراهيم ضيوف سماويون رُسل من عند الله لا يذكر النص عددهم، وكانوا في طريقهم لإهلاك القوم الذين عاش لوط بينهم لكثرة شرورهم. فدعاهم إبراهيم إلى الطعام وقدم لهم عجلاً مشوياً. وعندما لم يمدوا أيديهم إلى الطعام، راعه أمرهم وأوجس منهم خيفة، لأن البدوي إذا لم يقبل الضيف طعامه ظن أنه أتى للشر لا للخير. فطمأنه الضيوف وكشفوا له عن هويتهم وعن مهمتهم، وعادوا إلى تبشيره بمولود جديد. يلي ذلك ضحك سارة والرد القاسي التي تلقته، وقيام إبراهيم بالتوسط من أجل إنقاذ قوم لوط من الهلاك. ولدينا تنويعان على هذه القصة، الأول في سورة هود، والثاني في سورة الذاريات:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ هود: 69-76.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ[1] ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ[2] ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ

(1) أي لا نعرفهم.
(2) فعل أقبل هنا لا يعني الانتقال في المكان بل الشروع في الأمر. في صرة: في ضجة. أي تكلمت بصوت عال من داخل الخباء. صكت: لطمت.

ٱلْعَلِيمُ ۝ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝﴾ الذاريات: 24-37.

بعد ذلك ينطلق المرسلون لإنزال العقاب في قوم لوط لكثرة شرورهم:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ العنكبوت: 28-29.

وقد وردت قصة لوط مفصلة في أربع سور هي: هود، والنحل، والذاريات، والعنكبوت، والحجر. وسوف نضع فيما يلي رواية سورة هود: 77083 في مقارنة مع الرواية التوراتية في سفر التكوين 19: 1-26.

الرواية التوراتية	سورة هود
* فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً وكان لوط جالساً في باب سدوم. فلما رآهما قام لاستقبالهما وقال: ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا.	- ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝﴾ (أي أصابه منهم سوء وضاق صدره لتوقعه شراً يصيبهم من قومه)
* وقبلما أضجعا أحاط بالبيت رجال المدينة وقالوا: أخرجهما إلينا لنعرفهما	- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾
* فخرج إليهم لوط وقال: لا تفعلوا شراً يا إخوتي. هو ذا لي بنتان أخرجهما إليكم فافعلوا بهما ما يحسن في أعينكم. فأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما دخلا تحت ظل سقفي	- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

* فقالوا: أبعدْ إلى هنـاك، الآن نفعـل بك شراً أكثر منهما، فألحوا على لـوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب.	- ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾
* فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطـاً وقـالا لـه: قـم خـذ امرأتـك وابنتيـك الموجـودتين لـيلاً لـئلا تهلـك بـإثم المدينة. ولا تنظر إلى ورائك.	- ﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.
* وإذا أشرقت الشـمس علـى الأرض هرب لوط إلى صـوغر، فـأمطر الـرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً.	- ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾
* ونظرت امرأتـه مـن ورائـه فصـارت عمود ملح.	- ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

3- التناص مع الأدب الديني الكتابي :

يقودنا هذا العرض للقصص الإبراهيمـي في القـرآن ومتوازياتـه في الأدب الديني اليهودي، إلى ملاحظة في غاية الأهمية وهي أن القصص اليهودي الموازي لا ينتمي إلى مصدر واحد وزمان واحد. فقصة الضيوف السماويين تنتمي إلى سفر التكوين في التوراة القانونية التي دونت أسفارها بين القرن الخامس والقرن الثاني قبل الميلاد. والتجربة الروحية التي عرضت لإبراهيم وهو يراقب السماء تنتمي إلى الأسفار التوراتية غير القانونية التي دونت بين القرن الثـاني قبـل المـيلاد والقـرن الثاني بعد الميلاد. وقصة تحطيمه للأصنام والحكم عليه بالحرق تنتمي إلى جنس المدراش أو المدراشيم الذي دون أوائله في القرن الثالث الميلادي، وأواخره بعد الميلاد وصولاً إلى القرن السابع أو الثامن. هذه الحقائق التاريخيـة تضـع العقـل

الفقهي الإسلامي أمام مشكلة يصعب عليه حلها، لاسيما وأن التوازي، أو التناص كما أدعوه، بين القرآني والكتابي لا يقتصر على القصص الإبراهيمي وإنما يتخلل النص القرآني بأكمله. فإذا كان بإمكاننا أن نعزو التناص مع العهد القديم أي التوراة والعهد الجديد أي الإنجيل إلى المصدر الواحد للوحي الإلهي، فكيف نفسر التناص مع تلك المصادر التي نشأت على هامش العهدين دون وحي رباني؟ سوف أجيب على هذا السؤال بعد وقفة قصيرة مع المصطلح.

التناص، أو Entertextuality بالإنكليزية، هو مصطلح استعيره من النقد الأدبي، ويعني أن يصوغ الكاتب نصاً له مستعيناً بنص معروف لكاتب آخر، إما عن طريق المحاكاة في الأسلوب أو إدماج مقطع مع ذلك النص في نصه؛ كأن يقوم شاعر إنكليزي حديث بإدماج أبيات من العصر الفيكتوري في القرن الثامن عشر بقصيدته، أو يقوم شاعر من العصر الفيكتوري باقتباس أبيات شكسبير أو حتى لشاعر يوناني قديم. وفي قصيدة الأرض اليباب اقتبس ت.س. إليوت (ت عام 1965) من ثقافات متعددة، حتى إنه كتب بعض أبياته باللغة السنسكريتية. في هذه الحالة يكون القارئ المطلع على النص الأصلي الذي جرى الاقتباس منه أكثر قدرة على فهم وتذوق القصيدة من القارئ غير المطلع.

وفي الشعر الياباني نجد الاقتباس من قصائد الأولين سُنّة متبعة، وعُدّ هذا الاقتباس بمثابة تكريم لأولئك الشعراء القدماء وتذكيراً بإنجازاتهم. وفي المسابقات الشعرية كان يُحكم على نتاج المتسابقين تبعاً لإتقانهم استعمال مخزونهم المعرفي من القصائد القديمة، واستحضارهم لسياق القصيدة الأصلية في مناخ جديد.

وفي الموسيقى قد يحصل التناص في التأليف بشكل عفوي غير مقصود عندما ينتج المؤلف عملاً لا نكاد نميزه عن أعمال من تتلمذ عليهم؛ فالرباعيات الوترية التي ألفها بيتهوفن في بداية مشواره الفني لا تكاد الأذن تمييزها عن الرباعيات الوترية لهايدن إذا لم نعرف مسبقاً إلى من نستمع. وقد يحصل التناص

الموسيقي بشكل واع ومقصود عندما يقوم المؤلف بإعادة تقديم لحن معروف لمؤلف آخر ولكن بأسلوبه الخاص.

وفي كتاب العهد الجديد المسيحي يلجأ مؤلفو الأناجيل الأربعة دوماً إلى الاقتباس من العهد القديم/ التوراة من أجل فهم وتفسير سيرة يسوع، فبعد كل مفصل رئيسي في حياة يسوع يقول مؤلف إنجيل متى «لكي يتم ما قيل بالنبي القائل». أي إن أحداث حياة يسوع قد رويت من قبل في أسفار التوراة.

وفي القرآن الكريم يعبر التناص عن الطابع التوفيقي للمشروع المحمدي، حيث يلعب التناص الدور الأهم في جمع متفرق التاريخ الديني للمنطقة في كلٍّ موحد. والقرآن خلال عرضه للقديم يقدم في الآن نفسه ما أتى به من جديد على المشهد الديني في ذلك الوقت. ولذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ المائدة: 48.

وسوف نفرد الباب الخامس من هذا الكتاب لموضوع التناص.

* * *

الباب الخامس

التناص مع الأدبيات الكتابية

1- التناص مع العهد الجديد

العهد الجديد كتاب يضم بين دفتيه 27 سفراً، هي الأناجيل الأربعة القانونية، وسفر أعمال الرسل، وأربع عشرة رسالة لبولس، وسبع رسائل لتلاميذ يسوع، وسفر الرؤيا المنسوب إلى يوحنا. إلى جانب هذه الأسفار التي اعتبرت قانونية ومدونة بإلهام الروح القدس، هنالك عدد من الأناجيل التي لم تقرها الكنيسة الرسمية واعتبرتها منحولة، أي منسوبة زوراً إلى شخصيات بارزة من العهد الجديد، مثل إنجيل يعقوب، ومنجول متى، والإنجيل العربي[1]، وإنجيل توما الإسرائيلي، وتاريخ يوسف النجار. وقد اهتمت هذه الأناجيل بالمواضيع التي لم تأخذ حظاً وافراً من عناية مؤلفي الأناجيل الرسمية، مثل أسرة مريم وطفولتها وحياتها السابقة، وميلاد يسوع وطفولته، وبما أن الكنيسة لم تحرم قراءة هذه الأناجيل مثلما حرمت الأناجيل الغنوصية، فقد كانت متداولة على نطاق واسع حتى ظهور الإسلام.

فقد ظهر الإسلام في مناخ ثقافي مشحون بالجدل بين المسيحيين واليهود، وبين المسيحية والوثنية، وبين الفرق المسيحية المتناحرة، وجاء القرآن فأدلى دلوه في خضم هذا الجدل، وقدم روايته المتكاملة فيما يتعلق بطبيعة يسوع وميلاده وحياته وأقواله. وهذه الرواية تشكل في حد ذاتها إنجيلاً يمكن إضافته إلى الأناجيل غير القانونية. وبما أن المنظور الإيديولوجي للرواية القرآنية قريب إلى منظور اللاهوتي الإسكندراني آريوس، واللاهوتي الآخر نسطور الذي ظهر بعده بقرن من الزمان، وكلاهما أحدث انشقاقاً عميقاً في صفوف المسيحيين

---

(1) أو إنجيل الطفولة العربي، وهو ترجمة عربية عن السريانية ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس. وقد فقدت هذه الترجمة بعد أن حققها ونشرها الباحث Sike عام 1696.

واعتبرت تعاليمهما هرطقة[1]، فقد راحت الكنيسة تنظر إلى الإسلام باعتباره هرطقة مسيحية أيضاً، على الرغم من عدم تبنيها لهذا الرأي رسمياً، وقد عبر دانتي مؤلف كتاب الكوميديا الإلهية (نحو عام 1300م) عن هذا الموقف المسيحي عندما وضع نبي الإسلام في الدرك الأسفل من الجحيم إلى جانب الهراطقة المسيحيين لأنه أثار الشقاق داخل المسيحية[2].

وقد عقد القرآن الكريم التناص مع أسفار العهد الجديد القانونية والمنحولة المتأخرة عنها زمنياً في أربعة مواضع هي:

1- الإسكاتالوجيا/ Eschatology، أو الآخريات كما دعوتها والتي تتناول أحداث نهاية العالم القديم، والبعث والحساب.

2- القصص، وتتناول أسرة مريم وميلادها وحياتها قبل الحمل العذري، وميلاد يوحنا/يحيى، وميلاد يسوع.

3- سيرة يسوع، ومعجزاته: شفاء المرضى وإحياء الموتى، وبث الحياة في الدمى الطينية للطيور، والكلام في المهد، والمائدة.

4- التعاليم والوصايا

وسوف أركز فيما يلي على الآخريات والوصايا، لأنني عالجت بالتفصيل بقية المواضيع في كتابي «الإنجيل برواية القرآن» فلتراجع هناك.

الآخريات:

* قال يسوع: يصادفكم ذلك اليوم بغتة لأنه كالفخ يأتي على جميع الجالسين على وجه كل الأرض (لوقا 21: 34-35).

- سورة الزخرف 66: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

(1) من أجل تعاليم آريوس ونسطور راجع «التكوين الديني لعرب الشمال في قسم الملاحق.
(2) راجع الأنشودة رقم 28 في الكوميديا الإلهية، الأبيات من 23-42.

* قال يسوع: وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد إلا أبي وحده (متى 24: 37).

- سورة الزخرف 85: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

سورة الأحزاب 66: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

* قال يسوع: لأنه يكون حينئذ ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء العالم (متى 24: 31).

- سورة المدثر 9-10: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝﴾.

سورة الفرقان 26: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

* قال يسوع: وأما في تلك الأيام بعد ذلك الضيق، فالشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه (مرقس 11: 24).

- سورة التكوير 1-2: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝﴾.

سورة القيامة 7-9: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝﴾.

* قال يسوع: ونجوم السماء تتساقط (مرقس 13: 25).

- سورة الانفطار 2: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾.

* قال يسوع: وتكون زلازل عظيمة هنا وهناك (لوقا 2: 11).

- سورة الزلزلة 1-2: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾.

سورة الواقعة 4-5: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝﴾.

* قال يسوع: وسيُسلم الأخ أخاه إلى الموت، والأب ولده، ويقوم الأولاد على والديهم (مرقس 13: 12).

- سورة المعارج 10-12: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝﴾.

* قال يسوع: وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام (لوقا 21: 23).

- سورة الحج 2: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

* قال يسوع: حينئذٍ يبصرون ابن الإنسان (=يسوع) آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد، فيرسل حينئذ ملائكته ويجمع مختاريه (مرقس 13: 26-27).

- سورة البقرة 210: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

* قال يسوع: تأتي ساعة يسمع جميع من في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة (يوحنا 15: 28-29).

- سورة الحج 56-57: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

* قال يسوع: ومتى جاء ابن الإنسان في مجده... فحينئذٍ يجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعي الخراف عن الجداء. فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار، ثم يقول الملِك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم.

- سورة الواقعة 27-42: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

سورة المؤمنون 1-11: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾......أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

* قال يسوع: كان إنسان غني يتنعم كل يوم مترفاً، وكان مسكين اسمه لعازر يشتهي أن يشبع من الفتات المتساقط من مائدة الغني. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم (في الجنة)، ومات الغني ودفن (ثم آل إلى

جهنم)، فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى من بعيد إبراهيم ولعازر في حضنه، فنادى يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب، فقال إبراهيم: يا ابني أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر (استوفى) البلايا، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذ كله فإن بيننا وبينكم هوة عظيمة (لوقا 16: 19-26).

- سورة الأعراف 50: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

خارج هذا الخطاب الأخروي ليسوع هناك مشاهد أخروية في سفر الرؤيا المنسوب إلى يوحنا، تستحق التوقف عندها من أجل المقارنة على الرغم من أنها لم ترد على لسان يسوع، ونبدأ بنفخة البوق (أو الصور) التي تفتتح أحداث اليوم الأخير.

* سفر الرؤيا: ثم إن السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الأبواق تهيأوا لكي يبوّقوا، فبوّق الملاك الأول فحدث بَرَدٌ ونار مخلوطان بدم وألقيا فوق الأرض (الرؤيا 8: 6-7).

- سورة يس 91: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾.

* سفر الرؤيا: ثم بوق الملاك الخامس فرأيت كوكباً قد سقط من السماء إلى الأرض وأعطي مفتاح بئر الهاوية، ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون عظيم، فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر ومن الدخان خرج حرار على الأرض... في تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه (الرؤيا 9: 1-6).

- سورة الدخان 10-11: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝﴾.

* سفر الرؤيا: ثم بوّق الملاك السابع فحدثت أصوات في السماء قائلة قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه، فسيملك إلى أبد الآبدين (الرؤيا 11: 15).

- سورة الأنعام 73: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾.

سورة غافر 16: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

* سفر الرؤيا: والسماء انفلقت كدرج ملتف (الرؤيا 6: 14).

- سورة الرحمن 37: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾.

سورة الانشقاق 1-2: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾.

* سفر الرؤيا: وكل جبلٍ وجزيرة تزحزحها من موضعهما (الرؤيا 6: 14).

- سورة الطور 9-10: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝﴾.

* سفر الرؤيا: ويخرج (الشيطان) ليضلّ الأمم الذين في اربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر، فصعدوا وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة، فنزلت نار من عند الله وأكلتهم (الرؤيا 20: 7-10).

- سورة الأنبياء 95-96: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾.

* سفر الرؤيا: ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله، وانفتحت أسفار وسفر آخر هو سفر الحياة، ودين الأموات بحسب أعمالهم (الرؤيا 20: 12).

- سورة الزمر 69: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

* سفر الرؤيا: وهم (=الأبرار) سينظرون وجهه (=الله) واسمه على جباههم (الرؤيا 22: 4).

- سورة القيامة 22-23: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾.

* سفر الرؤيا: ثم رأيت سماءً جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا (الرؤيا 21: 1).

- سورة إبراهيم 48: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

ولدينا في إحدى رسائل بولس ورسالة بطرس الثانية ما يصلح للمقارنة أيضاً:

* رسالة بطرس الثانية: ولكن لا يخفى عليكم أيها الأحبة أن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد (3: 8).

- سورة الحج 47: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

* رسالة بولس الأولى إلى أهالي كورنته: أعد الله للذين يحبونه كل ما لم تره عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر (1 كورنته: 9).

- سورة السجدة 17: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

التعاليم والوصايا:

* قال يسوع: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا للجسد بما تلبسون... تأملوا الغربان، إنها لا تزرع ولا تحصد وليس لديها مخدع ولا مخزن والله يقيتها، كم أنتم بالحري أفضل من الطيور (لوقا 12: 22-24).

- سورة العنكبوت 60: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

* قال يسوع: لا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ (متى 6: 19-20).

- سورة الذاريات 22: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

* قال يسوع: ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع لكي يظهروا للناس (متى 6: 5).

---

(1) وفي صحيح البخاري صارت هذه المقولة لبولس حديثاً نبوياً: «قال الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» الحديث رقم 3244/ كتاب بدء الخلق.

- سورة النساء 142: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

* قال يسوع: كل ما قالوا لكم (=الأحبار) أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه لكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون (متى 23: 3).

- سورة الصف 2-3: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾.

* وبأمثال كان يسوع يكلمهم (=الجموع) حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا، وبدون مثل لم يكن يكلمهم، وأما على انفراد فكان يفسر لتلاميذه كل شيء (مرقس 4: 33).

- سورة العنكبوت 43: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

سورة إبراهيم 25: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

* قال يسوع: هو ذا الزارع قد خرج ليزرع، وفيما هو يزرع سقط بعض (من البذور) على الطريق فجاءت طيور السماء وأكلته، وسقط آخر على مكان محجر لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق في الأرض ولكن لما أشرقت الشمس احترق... وسقط آخر في الأرض الجيدة فأعطى ثمراً يصعد وينمو، فأتى واحد بثلاثين (=مداً) وآخر بستين وآخر بمئة (مرقس 4: 2-8).

- سورة البقرة 264-265: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ (=صخر أملس) عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۢ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾.

* قال يسوع: احترزوا أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم وإلا فليس لكم أجر (متى 6: 1).

- سـورة البقـرة 271: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

* قال يسوع: لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم (متى 18: 20).

- سورة المجادلة 7: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾.

* قال يسوع: إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي، وإن لم تغفروا لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم (متى 6: 14-15).

- سورة النور 22: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

سورة آل عمران 133-134: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

- سورة الشورى 40-43: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

* قال يسوع: سمعتم أنه قيل (للقدماء) تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم... لأنكم إذا أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم (متى 5: 43-46).

- سـورة فصلت 34: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

* قال يسوع: وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم... أقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً (لوقا 6: 34-35).

- سـورة البقـرة 280: ﴿وَإِن كَانَ(=المقتـرض) ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ(=بالقرض) خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* قال يسوع: ما من شجرة جيدة تثمر ثمراً ردياً ولا شجرة ردية تثمر ثمراً جيداً، لأن كل شجرة تُعرف من ثمارها... الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح، والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر (لوقا 6: 43-45).

- سورة إبراهيم 24-26: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۞﴾.

* قال يسوع: مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت السماوات (مرقس 10: 25).

- سورة الأعراف 40: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ (=ثقب الإبرة)﴾.

* قال يسوع: ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه (مرقس 8: 36).

- سـورة الزمـر 15: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

* قال يسوع: لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون (يوحنا 9: 39).

- سورة الحج 46: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

سورة البقرة 6-7: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞﴾.

* قال يسوع: يشبه ملكوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر من جميع البذور، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها (متى 13: 31-32).

- سورة الفتح 29: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾.

* قال يسوع: أنا نور العالم (يوحنا 8: 12).

- سورة المائدة 15: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

* قال يسوع: جئت إلى العالم نوراً حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة (يوحنا 12: 46).

- سورة البقرة 257: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾.

* قال يسوع: إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم، ولكن إن كان يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه (يوحنا 11: 9-10).

- سورة الأنعام 122: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾.

* قال يسوع: ويل لكم أيها الناموسيون (=علماء الشريعة) لأنكم تُحَمِّلون الناس أحمالاً عسيرة الحمل وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم (لوقا 11: 46).

- سورة الجمعة 5: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾.

* قال يسوع: جاء يوحنا (=المعمدان) لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مسّ من الشيطان، جاء ابن الإنسان (=يسوع) يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر (متى 11: 18-19).

- سورة الفرقان 7: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾.

* قال يسوع: كل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية (متى 19: 29-30).

- سورة البقرة 245: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

* قال يسوع: ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء ومدافن الصديقين وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم بأنكم قتلة الأنبياء (متى 23: 29-31).

- سورة آل عمران 122: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

* قال يسوع: ولكن تأتي ساعة وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق (يوحنا 4: 23).

- سورة النحل 1-2: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

ولدينا في إنجيل توما غير القانوني:

* أنا النور الذي فوق كل شيء، أنا الكل.. الكل مني خرج وإليّ الكل وصل. أُشطر الحطبة فأكون هناك، أرفع الحجر تجدني هناك (إنجيل توما 77)[1].

سورة البقرة 115: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

(1) راجع ترجمتي الكاملة لإنجيل توما في مؤلفي «الوجه الآخر للمسيح».

أثر المسيحية السورية

لن نستطيع في هذا المجال الضيق أن نتتبع أثر المسيحية السورية على المشروع المحمدي، ولذلك سأكتفي برصد ذلك الأثر في قصة أصحاب الكهف في الموروث السرياني، وفي كتاب «منظومة الفردوس» للقديس مار أفرام وهو عمل شعري وصف فيه الجنة وحياة أهلها، وبعدها وقفه سريعة عند أحيقار الحكيم.

أصحاب الكهف:

لقد حفل الأدب السرياني بالحكايا التي تتناول سير الآباء الأولين والقديسين وشهداء المسيحية، ومنها قصة أصحاب الكهف التي شاعت في القرن الخامس الميلادي، ودونها نثراً مؤرخان هما زكريا الفصيح (ت عام 546م) ويوحنا الإفسوسي (ت عام 587م)، كما دوّنها شعراً مار يعقوب السروجي (ت عام 521م). تقول القصة[1]:

في عام 249م ارتقى عرش روما الإمبراطور داقيوس/ Decius الذي شن خلال عهده القصير حملة اضطهاد واسعة على المسيحيين. وخلال زيارته لمدينة إفسوس في آسيا الصغرى أمر نبلاء المدينة بتقديم الذبائح للآلهة الرومانية، وعندما رفض المسيحيون ذلك قتل منهم أعداداً كبيرة، وحاول بالتهديد والوعيد إقناع سبعة من أبناء النبلاء وُشيَ بهم إليه على أنهم مسيحيون أن ينكروا دينهم وينحروا الذبائح للأصنام. وعندما رفضوا أمهلهم بضعة أيام لاتخاذ قرارهم، وانطلق في زيارة لمدن أخرى مجاورة. فالتجأ الفتية إلى كهف في جبل أنكيلوس القريب ومعهم بعض المال، واختبأوا هناك مواظبين على الصلاة، وكانوا يرسلون واحداً منهم ويدعى يمليخا إلى المدينة في هيئة متسول ويبتاع لهم الطعام ويتسقط الأخبار.

---

(1) أهل الكهف في المصادر السريانية، دائرة الدراسات السريانية- بطركية أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذوكس، دمشق، وهذه الدراسة متوفرة على الإنترنت.

ثم إن داقيوس عاد إلى إفسوس وطلب الفتية فلم يجدهم. وكان يمليخا آنذاك في السوق عندما سمع بعودة الملك فانطلق إلى رفاقه وأخبرهم، فراحوا يصلون ويدعون ربهم لحمايتهم من بطش الملك، ثم تناولوا بعض الطعام فاستولى عليهم النعاس ورقدوا رقاد الموت ولم يشعروا بموتهم. وعندما طلبهم داقيوس ولم يجدهم أرسل جواسيسه للبحث عنهم فجاؤوه بخبر التجائهم إلى الكهف، فأمر أن يُسد عليهم مدخل الكهف بحجارة كبيرة لكي يموتوا هناك. وخلال عملية السد، قام اثنان من خدام الملك وكانا مسيحيين يخفيان دينهما بوضع رقيمين من الرصاص داخل صندوق نحاسي دسوه عند مدخل الكهف قبل إغلاقه. وعلى الرقيمين نقشٌ يقص خبر هؤلاء الفتية.

ثم إن داقيوس لقي حتفه في إحدى المعارك وخلفه على العرش عدة ملوك، وصارت المسيحية ديناً للمملكة في عهد الإمبراطور قسطنطين (306-337م)، وعندما آل العرش إلى ثيودوسيوس الثاني (ت عام 450م) ظهرت في عهده بدع وهرطقات دينية أنكر بعضها قيامة الموتى وقامت فتن في المملكة بين مؤيد ومعارض، فراح ثيودوسيوس التقي يصلي ويدعو الله أن يضيء أمامه سُبل الإيمان.

في ذلك الوقت، وبعد مرور نحو مئتي سنة على اختفاء الفتية، أراد صاحب المرعى الذي يقع فيه الكهف أن يشيد حظيرة للماشية، فعمد إلى تكسير الحجارة الضخمة التي تسد مدخل الكهف لاستخدامها في بناء حظيرته، فانفتح الكهف ولكن الرجل لم يدخل ويتفقده.

عند ذلك بعث الله الأموات السبعة إلى الحياة ثانية، فاستيقظوا ولم تتغير ملامحهم ولم تبل ثيابهم، فظنوا أنهم ناموا مساء البارحة وأفاقوا صباح اليوم. وحسب عادتهم أرسلوا يمليخا إلى المدينة ليجلب لهم بعض الطعام، فحمل معه فضته ومضى. وعندما وصل إلى بوابة المدينة رأى صليباً كبيراً معلقاً فوقها فتعجب وتبلبلت خواطره ولم يجد تفسيراً لذلك. ثم إنه وقف عند أحد الباعة فابتاع حاجته من الطعام وأخرج من جيبه دراهم أعطاها له، وعندما رأى البائع أنها أكبر من الدراهم المعتادة تفحصها وأبصر صورة الملك داقيوس الذي اختفى الفتية في عهده

منقوشة عليها، فظن أن الفتى قد عثر على كنز قديم مدفون في الأرض، فراح يضغط عليه لمعرفة مكان الكنز وتجمع حولهما أهل السوق، وانتهى الأمر بأن اقتاده بعضهم إلى أسقف إفسوس وكان الحاكم عند ذلك في زيارته، فقد شاءت العناية الربانية أن تجمعهما لتظهر لهما ولكل الشعوب قدرة الله على بعث الموتى. وانتهى استجواب الفتى بالتوصل إلى حقيقة ما جرى وقادهما يمليخا إلى الكهف ليروا ويسمعوا من أصحابه وتبعهم جمهور كبير. وعندما بلغوا مدخل الكهف عثروا في الجهة اليمنى منه على الصندوق الذي أخفى فيه خادما الملك الرقيمين اللذين نقشا عليهما قصة الفتية ومتى لجؤوا إلى الكهف ولماذا، وتأكدوا من صدق ما رواه لهم يمليخا. ثم ولجوا الكهف وشاهدوا الفتية جالسين بجلال ووجوههم مشرقة كالورد النضر، فكلموهم وسمعوا منهم أخبار الأحداث التي جرت في عهد الملك داقيوس. ثم إن الإمبراطور نفسه هرع إلى إفسوس وعاين بنفسه المكان واستمع إلى الفتية، وشكر الله على هذه المعجزة التي بينت للعالم حقيقة البعث والحساب في اليوم الأخير وقضى على الهرطقات التي تنكر ذلك.

في القرآن الكريم:

تحتوي القصة القرآنية على جميع عناصر الرواية السريانية، عدا عنصر كلب الفتية الذي انفردت به وكان موجوداً على ما يبدو في الرواية الشعبية الشفوية، وهي تشغل الآيات من 9 إلى 26 من سورة الكهف:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا

غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن
تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ
ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ
لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ
بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ
ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ
رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ
أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ
هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

مار أفرام ومنظومة الفردوس:

القديس أفرام (306-373م) شاعر ولاهوتي مسيحي يُعد من أعظم من نظموا القصائد والترانيم الدينية في المسيحية الشرقية. ولد في مدينة نصيبين في الشمال السوري ثم انتقل وعاش في الرها. يعتبر كتابه «منظومة الفردوس» أشهر أعماله وأكثرها تداولاً، وضعه على الوزن الشعري السرياني وكان ينشد في المناسبات الطقسية. يحتوي على مجموعة من الأناشيد تصف الجنة وأحوال أهلها في الحياة الثانية. وهذه مواضع التناص التي وجدتها اعتماداً على ترجمة الأب إبراهيم مطر(1):

(1) مار أفرام السرياني: منظومة الفردوس، ترجمة الأب إبراهيم مطر، رابطة الدراسات اللاهوتية، الكسليك- لبنان.

* أسفله (=الفردوس) للسفليين، ووسطه للأوساط، وقمته للعُلويين. في الدرجة التي يستحقها كل فرد يقيم (النشيد الثاني، ص28-29).

- سورة الأحقاف 19: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

سورة الأنفال 132: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

* لقد دخلوا الجنة البهية بروائع مآتيهم (النشيد السادس، ص90).

- سورة الزخرف 72: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

سورة النحل 32: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

* لا إثم فيها فلا عيب، لا حقد فلا غضب، لا غش فلا هزء، هنالك لا يحسدون فلا يبغضون (النشيد السابع، ص114-115).

- سورة الأعراف 43: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

سورة الحجر 47: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾.

* هناك لا يجوعون، هناك لا ينصبون[1] (النشيد السابع، ص123)

- سورة فاطر 35: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[2].

سورة طه 118: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[3].

* وكالكواكب هناك يلمع بَنُو النور (النشيد السابع، ص121).

- سورة التحريم 8: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾.

---

(1) ينصبون: يتعبون.

(2) اللغوب: التعب الشديد.

(3) تضحى: تشعر بالحر.

* هناك تتدفق ينابيع اللذات خمر ولبن وعسل وزيد (النشيد العاشر، ص179).

- سورة محمد 15: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

* من سمع قط أو رأى غمامة فوق الرؤوس مظلة ثمر، وبساطاً تحت الأقدام منبسطاً من زهر (النشيد التاسع، ص151). من رأى وليمة في لب شجرة وثماراً من كل طعم في مطال اليد (النشيد التاسع ص149-150).

- سورة الإنسان 14: ﴿... وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

سورة الحاقة 19-23: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

* هناك متكئات الأبرار مجلوة مزينة (النشيد السادس، ص54).

- سورة الكهف 31: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

سورة يس 56: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

* أما قوارس البرد والحر فلا وجود لها في ذلك الموضع المبارك (النشيد الحادي عشر، ص192).

- سورة الإنسان 13: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾.

* صوت العُلويين ترنيم الروحانيين، ملائكة السيرافيم بألحانهم وملائكة الكروبيم بأجنحتهم، نغم جميل لا مثيل له (النشيد الرابع عشر، ص247).

- سورة الرعد 23-24: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

* طوبى لمن عنيَ حتى يكون بين الأولين، وويل لمن لم يحاول حتى أن يكون بين الآخِرين (النشيد السادس، ص94).

- سورة الواقعة 10-14: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝﴾.

* تهب النسمات الطيبات من كل لون يحملون الأطباق مثل مرتا ومريم (وهما الأختان اللتان كانتا تعدان عشاء يسوع في بيت أخيهما لعازر التلميذ الذي أحبه يسوع). النسيمات في الفردوس يتنقلن أمام الأبرار تخف الواحدة بالطعام والأخرى تصب الشراب (النشيد التاسع، ص152-153).

نلاحظ هنا أن مار أفرام قد جعل النسمات الطيبات بمثابة خدم في الفردوس يقمن على تلبية حاجة أهل النعيم. وهو إذ يقرنهن بالفتاتين مرتا ومريم إنما يعمد إلى نوع من التجسيد لهذه النسمات. هذا النوع من التجسيد أكد عليه القرآن عندما جعل تلك النسمات كائنات ملائكية مخصصة لخدمة الأبرار في الجنة، وهم «الولدان المخلدون» و«الحور العين»:

- سورة الواقعة 46-72: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝ ...... فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ[1] لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۝ ...... فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۝﴾.

سورة الإنسان 19: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

سورة الطور 24: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

سورة الدخان 51-54: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝﴾.

سورة الطور 17-20: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝﴾.

---

(1) قاصرات الطرف: خجولات. قاصرة الطرف في القاموس هي المرأة ذات الحياء، وهو صفة مستحبة في النساء.

(2) يطمثهن: يمسهنَّ. تقول طمسَ الشيء، أل لمسه وتحسسه.

إن ما ورد في هذه الآيات عن الحور والولدان يبدو مفهوماً لنا على ضوء فكرة تجسيد القوى الملائكية في شخصيات مرئية، ولا يبقى لدينا سوى تعبير ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾، الذي فهمه البعض على أن الرجال في الفردوس سيكون لهم زوجات من نساء الجنة الحور العين. وهذا الرأي الخاطئ يمكن لنا دحضه من عدة وجوه:

1- ورد هذا التعبير في سياق ما أُعد لأهل الجنة من قرة أعين، وهؤلاء ليسوا رجالاً فقط بل رجال ونساء.

2- لا يوجد في الجنة سوى البشر الذين استعادوا أجسادهم المادية عند البعث، والملائكة المصنوعين من طاقة صرفة. وبعض هؤلاء، وهم الحور والولدان اتخذ شكلاً إنسانياً ولكنه في جوهره تلك النسمات التي تحدث عنها مار أفرام، وبالتالي فإن أي تماس بينها وبين أهل الجنة مستحيل، فأنت لا تستطيع أن تصافح أحدهم أو تربت على كتفه، ناهيك عن الوصال الجسدي.

3- يدخل الرجال الفردوس مع زوجاتهم، وبالتالي فهم لا يزوجون مرة أخرى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ سورة الرعد: 23.

4- إذا رجعنا إلى المعنى القاموسي لفعل «زوَّج» ومنه «الزوج» و«الزواج» و«الزوجة» لوجدنا ما يلي:

الزوج: كل واحد معه آخر من جنسه.

زوّج الأشياء: قرنها ببعضها.

زوّج الشيء وزوج الشيء به: قرنه به.

زوّج الأشياء: قرنها ببعضها.

تزاوجت الألوان: توافقت وتلاءمت.

وفي هذا يقول الفخر الرازي في تفسيره للقرآن بخصوص آية ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ما يلي: «إن العرب لا تقول تزوجت بها بل تزوجتها. ولذلك فإن ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ تعني وقرناهم بهن.

أحيقار الحكيم أو لقمان:

ورد في القرآن خبر موجز في ثماني آيات عن حكيم قديم يـدعى لقمـان، آتاه الله الحكمة التي أتاها لأنبيائه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان: 12. يلي ذلك ثمـاني وصـايا موجهـة مـن لقمان إلى ابنه.

ولقمان هذا، على ما نرجح، هو الحكيم الآرامي أحيقار الذي عاش في زمن الملك الآشوري سنحاريب (701-681ق.م) وخليفتـه أسـرحادون (681-669ق.م) وكان مستشاراً في القصر الملكي وحاملاً لأختام الملك. ولدينا نص آرامـي مـن أواخر القرن الخامس ق.م يحكي قصـة حيـاة هـذا الحكـيم ومجموعـة الحكـم الموجهة منه إلى ابنه. وقد كانت هذه الحكم متداولة في العالم الآرامـي وصـولاً إلى العصر المسيحي وذلك في نسخة سريانية[1]. وهنا يجب أن لا يقف اخـتلاف اسم الحكيم في الرواية القرآنية، أي لقمـان، عـن اسمـه في الروايـة الآراميـة/ السريانية، أي أحيقـار، حـائلاً دون المطابقـة بـين الشخصـيتين، لأننـا تعودنـا مواجهة مثل هذا الاختلاف في القصص القرآني ومثيلاتها في المصادر الكتابيـة. فتارح أبو إبراهيم في سفر التكوين صار آزر، والملك شاؤل في سـفر صـموئيل الأول صار طالوت، وقورح في سفر الخروج صار قارون، ويونان في سفر يونان صار يونس.

وبما أن سورة لقمان لا تحتوي إلا على ثمانية أقوال لذلك الحكـيم مقابـل ثمانين قولاً في الرواية الآرامية ـ السريانية، فإن التناص بينهما اقتصر على قولين اثنين:

---

(1) لمزيد من المعلومات عن القصة والحكم راجع:

- المطران غريغوريوس بونس بهنام: أحيقار الحكيم، بغداد 1976.

- H.L.Gensberg, The Words of Ahiqar, in: J.Prichard, Ancient Near Easten Texts, Princeton, New Jersy, 1969. P.426FF.

فقد وردَ في حكم أحيقار:

«اخفض بصرك واغضض من صوتك، لأنه إن أمكن بناء البيت بالصوت العالي لبنى الحمار بيتاً في يومين».

وفي القرآن:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ لقمان: 9.

وورد في حكم أحيقار:

«عين الإنسان مثل ينبوع ماء فهي لا تشبع من المال حتى تمتلئ بالتراب».

وورد في صحيح البخاري رقم 6437 عن ابن عباس:

سمعت رسول الله يقول: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» ولا أدري أمنَ القرآن هو أم لا.

كما ورد في صحيح البخاري رقم 6440 عن أُبي بن كعب:

«كنا نرى هذا الحديث من القرآن حتى نزلت سورة التكاثر.

وورد في مسند ابن حنبل رقم 44:

«سمعت النبي يقرأ في الصلاة: لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لابتغى إليه ثانياً ولو أعطي ثانياً لابتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

وتكمن أهمية قصة «أحيقار» في سورة لقمان وقصة «ذو القرنين» في سورة الكهف، في أنهما تجعلان من التناص في القرآن مشروعاً تثاقفياً يمد جسور التواصل لا مع أديان المنطقة فقط بل مع موروثها الحضاري والتاريخي.

2- التناص مع العهد القديم

كما هو الحال مع العهد الجديد لـدينا في القـرآن تنـاص مـع التنـاخ، أي التوراة أو العهد القديم، وآخر مع الأدبيـات الدينيـة الـتي دونـت علـى هـامش التوراة وأدت دوراً في صياغة الدين اليهودي، وسوف نبدأ بعـرض التنـاص في الأفكار والتعاليم، ثم ننتقل إلى القصص

1- الأفكار والتعاليم

* رأس الحكمة مخافة الرب (المزامير 111: 10).

- سورة الرعد 21: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

سورة الأحزاب 30: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

سورة الأعراف 205: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

* تحبُ الرب إلهك مـن كـل قلبـك ومـن كـل نفسـك ومـن كـل قوتـك (التثنية 6: 5).

- سـورة البقـرة 165: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

* لأن الصبي يكون نذيرا لله من البطن وهو يبدأ يخلّص إسرائيل (القضـاة 13: 5).

- سورة الفرقان 1: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

* ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً (التكوين 1: 31).

- سورة السجدة 7: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾

* الحكمة خير من اللآلئ وكل الجواهر لا تساويها (الأمثال 8: 11).

وكل من يجدها يجد الحياة وينال رضى الرب (الأمثال 8: 35).

- سورة البقرة 269: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾.

* فبمن تشبهون الله وأي شبه تعادلون به (أشعيا 40: 18).

- سورة الشورى 11: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

* الذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض (المزامير 37: 9).

- سورة الأنبياء 105: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

* بكلمة منه صنعت السماوات... لأنه قال فكان، هو أمر فصار (المزامير 33: 6-9).

- سورة يس 82: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

سورة آل عمران 59: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

* الأشرار يرجعون إلى الهاوية، كل الأمم الناسين الله (المزامير 9: 17).

- سورة القارعة 8-11: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝﴾.

* رأيت الرب جالساً على كرسيه، وكل جند السماء وقوف لديه (الملوك الأول 22: 19). الرب في السماوات ثبت كرسيه، ومملكته تسود على الكل (المزامير 103: 15). كرسيك يا الله إلى دهر الدهور (المزامير 45: 6). الله جلس على كرسي قدسه (المزامير 47: 8).

- سورة طه 5: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

* الرب قد ملك فلتبتهج الأرض (المزامير 97: 1). الرب قد ملك لبس الجلال لبس القدرة (المزامير 93: 1).

- سورة غافر 16: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

* هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات، أنا مخبر بها قبل أن تنبت أعلمكم بها (أشعيا 42: 9).

- سورة الأنعام 59: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

* هل يوجد إله غيري وصخرة لا أعلم بها (أشعيا 44: 8).

- سورة الأنعام 59: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾.

* إني الإله القادر على كل شيء (الخروج 6: 3).

- سورة البقرة 106، 109، 148، 259: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* نحمدك يا رب نحمدك (المزامير 75: 1). حسن هو الحمد للرب (المزامير 92: 1).

- سورة الأنعام 1: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

سورة الفاتحة 1: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

* لأن ألف سنة (يا رب) في عينك مثل يوم أمس الذي عبر وكهزيع من الليل (المزامير 90: 5).

- سورة الحج 47: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

* الرب يعرف أفكار الإنسان أنها باطلة (المزامير 94: 12).

- سورة غافر 19: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

* من قِدمٍ أسستَ الأرض، والسماوات عمل يديك. هي تبيد وأنت تبقى (المزامير 102: 25-26).

- سورة الرحمن 26-27: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾.

* إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل (المزامير 121: 5).

- سورة البقرة 255: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

* الرب حافظك... الرب يحفظك من كل شر، يحفظ نفسك (المزامير 121: 5-7).

- سورة يوسف 64: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

* المتوكلون على الرب مثل جبل صهيون الذي لا يتزحزح (المزامير 125: 1).

- سورة إبراهيم 12: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

سورة المائدة 23: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

* صوت الرب على الحياة إله المجد أرعد (المزامير 29: 2). أضاءت بروقه المسكونة، رأت الأرض فارتعدت (المزامير 97: 4). صوت رعدك في الزوبعة البروق أضاءت المسكونة ارتعدت الأرض (المزامير 77: 18). أما الخطاة فنزل عليهم الانتقام... شدة الصواعق، أصابهم ما استحقت فواحشهم (سفر الحكمة 19: 12).

- سورة الرعد 12-13: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

* السماوات كرسيٌ والأرض موطئ قدمي (أشعيا 66: 1).

- سورة البقرة 55: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾.

* (يا موسى)، حتى متى يهينني هذا الشعب وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملتُ في وسطهم. إني أضربهم بالوبأ وأبيدهم وأصيّرك شعباً أعظم منهم (العدد: 14: 11).

- سورة المائدة 54: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

سورة الأنعام 133: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

* ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب سيد الأرض (المزامير 93: 5).

- سورة الحشر 21: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

* صنع قمرا للمواقيت، الشمس تعرف مغربها (المزامير 104: 19).

- سورة يونس 5: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

سورة يس 38: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

* صغار حيوانات مع كبار، إياك ترتجي لترزقها قوتها في حينه (المزامير 104: 26-27).

- سورة هود 6: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

* بذاتي أقسمت أنه لي تجثو كل ركبة يحلف كل لسان (أشعيا 45: 23).

- سورة الإسراء 23: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

* بذاتي أقسمت خرج الصدق من فمي كلمة لا ترجع (أشعيا 46: 23).

- سورة ق 29: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

* كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا؟ حقاً إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب.

- سورة البقرة 79: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

* هو الله مصور الأرض وصانعها، هو قررها، لم يخلقها باطلاً (اشعيا 45: 19).

- سورة آل عمران 191: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

* لا يعرفون ولا يفهمون لأنه قد طُمست عيونهم عن الأبصار وقلوبهم عن التعقل (أشعيا 44: 18).

- سـورة البقـرة 7: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

* اطلبوا الرب ما دام يوجد ادعوه وهو قريب (أشعيا 55: 6).

- سورة البقرة 186: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾.

* ليترك الشرير طريقه وليتب إلى ربه فيرحمه وإلى إلهنا فإنه كثير الغفـران (أشعيا 55: 7).

- سورة الأعراف 153: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* إلى الأبد يا رب كلمتك مثبتة في السماوات (المزامير 119: 89).

- سورة الأنعام 6: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾.

* سبحيه يا أيتها الشمس والقمر يا جميع كواكب النور، سبحيه يـا سمـاء السماوات (المزامير 148: 3-4).

- سـورة الـرحمن 61: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾.

سورة النور 41: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾.

* الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا (أشعيا 40: 28).

- سـورة ق 38: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (=التعب الشديد)﴾.

* أنا إله إسرائيل لا أتركهم، أفتح على الهضاب أنهاراً وفي وسـط البقـاع ينابيع. أجعل القفر أجمة ماء والأرض اليابسة مفاجر مياه، أجعل في البرية الأرز والسنط والآس وشجرة الزيت، أضع في البادية السـرو والسـنديان (أشـعيا 41: 18-19).

- سورة المؤمنـون 18-20: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

* أنا هو ولا منقذ من يدي، أفعل ومن يَرُد؟ (اشعيا 43: 13).

- سـورة يـونس 107: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.

* هكذا يقول ملك إسرائيل وفاديه: أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري.

- سورة الحديد 3: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ﴾.

* هكذا قال رب الجنود... وأجلب على عيلام رياح من أربعة أطراف الأرض وأذريهم (إرميا 49: 36).

- سورة فصلت 16: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾.

* رجاء الفاجر يخيب ومُتّكله بيت العنكبوت (أيوب 8: 14-15).

- سورة العنكبوت 41: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ﴾.

* يدي أسست الأرض ويميني نشرت السماوات، أنا أدعوهنّ فيقفن معاً (أشعيا 48: 14).

- سورة فصلت 11: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

* اسمع هذا يا بيت يعقوب... قد أنبأتك بحديثات منذ الآن وبمخفيات لم تعرفها (أشعيا 48: 1-6).

- سورة الأنعام 59: ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ﴾.

سورة طه 7: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

* ويل لمن يخاصم جابله هو خزف بين أخزاف الأرض (أشعيا 45: 9).

- سورة النحل 4: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

* لأني هأنذا خالق سماوات جديدة وأرضاً جديدة فلا تذكر الأول ولا تخطر على بال (أشعيا 65: 17).

- سورة إبراهيم 48: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

* الله مصور الأرض وصانعها هو قررها لم يخلقها باطلاً (أشعيا 45: ؟؟)

- سورة آل عمران 191: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾.

2- القصص

في كتابي «أساطير الأولين ـ القصص القرآني ومتوازياته التوراتية» تعرضت بالتفصيل للتناص في القصص بين القرآن والتوراة بشقيه القانوني وغير القانوني. ولذلك سأكتفي هنا بإيراد مثالين عن هذا التناص، واحد قانوني وهو قصة النبي يونان أو يونس، وآخر غير قانوني وهو قصة سليمان وملكة سبأ كما وردت في المدراش.

قصة يونس :

قصة النبي يونس في القرآن الكريم وردت موزعة بين أربع سور وباختزال شديد يغلفها بغموض لا يجلوه لنا سوى الرجوع إلى القصة التوراتية:

سورة القلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (=يا محمد) وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ القلم: 48-50.

سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يونس: 98.

سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝﴾ الأنبياء: 87-88.

سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ۝ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ۝ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝﴾ الصافات: 139-148.

وبإعادة ترتيب هذه الأحداث في سياق زمني:

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝﴾.
- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾.

ذو النون هو صاحب الحوت أي يونس، ومغاضباً، من فعل غاضب، نقول غاضب فلان فلاناً أي أغضبه.

- ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝﴾.

أي هرب وركب سفينة مثقلة بالبضائع والركاب.

- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ۝﴾.

أي شارك في قرعة ولكنه خسر.

- ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝﴾.

أي ابتلعه الحوت بعد أن فعل ما يلام عليه.

- ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾.
- ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝﴾.
- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾.
- ﴿۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝﴾.

أي فقذفه الحوت من بطنه إلى اليابسة وهو متعب ومعلول.

- ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٖ﴾.

- ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾.

أي فأرسلناه إلى قوم يزيد عددهم عن المئة ألف.

- ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

إلا أن القصة تبقى مليئة بالغوامض والأسئلة التالية تبقى مفتوحة:

1- لماذا ذهب يونس مغاضباً ومن الذي غاضبه؟

2- لماذا لجأ إلى السفينة المثقلة بالأحمال وممن كان يهرب؟

3- ما هو موضوع القرعة التي شارك بها وخسر؟

4- من هم القوم الذين أُرسل إليهم يونان.

5- ما قصة شجرة اليقطين التي أنبتها الله عليه وما علاقتها بالموضوع؟

وفي الحقيقة فإننا لن نجد جواباً على هذه الأسئلة إلا إذا رجعنا إلى قصة يونس في سفر يونان التوراتي.

فقد كانت كلمة الرب إلى يونان بن أمتاي قائلاً: قم انطلق إلى نينوى المدينة العظيمة[1]، وناد عليها لأن شرها قد كثر أمامي. فحاول يونان التملص من مهمة النبي فقام وترك موطنه متوجهاً إلى ميناء يافا فوجد سفينة تستعد للسفر إلى ترشيش[2] فأدى أجرتها وركب فيها. وعندما صارت في عرض البحر ألقى الرب ريحاً عظيمة وأشرفت السفينة على الغرق، ولما كانت مثقلة بالبضائع التجارية عمد الملاحون إلى إلقاء ما ثقل من هذه البضائع في البحر، وراح

---

(1) نينوى هي إحدى المدن الآشورية الكبرى الثلاث إلى جانب آشور وكالح.

(2) لم يتفق الباحثون على تحديد موقع ترشيش الذي ورد أيضاً في النصوص الآشورية، وربما كانت إسبانيا أو إحدى جزر البحر المتوسط الكبرى.

الركاب يصرخون ويصلي كل واحد منهم إلى إلهه لينقذه. ثم اتفقوا على إلقاء القرعة لمعرفة بسبب من هذه البلية، فوقعت القرعة على يونان فسألوه عن قصته وعرفوا أنه هارب من وجه الرب. فسألوه عما يفعلونه به حتى يسكن البحر، فقال لهم خذوني وألقوني إلى الماء فتسكن العاصفة لأني عارف أنها ثارت بسببي. فحمل النوتية يونان وألقوه خارج السفينة فتوقف البحر عن الهيجان.

فأعد الرب حوتاً عظيماً ابتلع يونان فبقي في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليالي. فصلى وقال: إلى الرب صرخت في ضيقي فاستجاب... فأمر الرب الحوت أن يقذف يونان من بطنه إلى اليبس. وهناك عاد الرب فكلمه ثانية وقال له: قم انطلق إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها المناداة التي أنا مكلمك بها. فانطلق يونان وسار إلى المدينة ونادى وقال: بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى. فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم كبير ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم وكذلك فعل ملكهم. فندم الله على الشر الذي قال إنه يصنع بهم وعدل عنه.

فساء الأمر يونان مساءة عظيمة وصلى إلى الرب وقال: ألم يكن هذا كلامي وأنا في أرضي ولذلك بادرت بالهرب، فإني علمت أنك رؤوف رحيم، فالآن يا رب خذ نفسي مني فإنه خير لي أن أموت من أن أحيا. فقال الرب: أبحق غضبك؟

وخرج يونان وجلس شرقي المدينة وحاول أن يجد ظُلَّةً يستظل بها من الشمس الحارقة. فأعد الرب يقطينة فارتفعت فوقه ليكون على رأسه ظل ففرح يونان فرحاً عظيماً، ولكن فرحه لم يطل. فقد أعد الله دودة عند طلوع الفجر في الغد فأكلت اليقطينة فجفت، ولما حميت الشمس حرك الله ريحاً شرقية حارة فضربت رأس يونان فغشي عليه وتمنى الموت لنفسه. فقال له الرب: أبحق غضبك لأجل اليقطينة؟ فقال: يحق غضبي إلى الموت. فقال الرب: لقد أشفقت أنت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها، التي نشأت بنت ليلة وهلكت بنت ليلة، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي فيها من السكان أكثر من اثنتي عشرة ربوة (أي مئة وعشرين ألف نسمة، لأن الربوة الواحدة تعادل عشرة آلاف) من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة (سفر يونان،

وهو سفر قصير جداً ولا يتضمن أكثر من أربعة إصحاصات: وقد حذفت منه ما لا يضر بسياق القصة).

بعد أن اطلعنا على القصة التوراتية نستطيع إجراء المقارنة مع القصة القرآنية التي أعطتنا عناوين الأحداث دون الدخول في تفاصيلها:

سفر يونان	سور قرآنية
1- كانت كلمة الرب إلى يونان قائلاً...	- وإن يونس لمن المرسلين (سورة الصافات 139).
2- فقام يونان ليهرب إلى ترشيش	- وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه (الأنبياء: 87).
3- فنزل إلى يافا فوجد سفينة فأدى أجرتها ونزل فيها.	- إذ أبق إلى الفلك المشحون (الصافات: 40).
4- فألقى الرب ريحاً عظيمة وأشرفت السفينة على الغرق	... ...
5- قالوا هلم نلقي قُرعاً لنعرف بسبب من هذه البلية فوقعت القرعة على يونان	- فساهم فكان من المدحضين (الصافات: 141).
6- فأخذوا يونان وألقوه إلى البحر فكف عن الهيجان.	... ...
7- فأعد الرب حوتاً عظيماً ابتلع يونان فبقي في جوفه ثلاثة أيام.	- فالتقمه الحوت وهو مليم (الصافات: 142).
8- فصلى إلى الرب وقال: صرخت في ضيقي إلى الرب فاستجاب لي..... (صلاة طويلة).	- فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك... فاستجبنا له ونجيناه من الغم (الأنبياء: 87-88).

9- فأمر الله الحوت فقذف يونان إلى اليبس.	- فنبذناه في العراء وهو سقيم (الصافات: 145).
10- ثم كانت كلمة الرب إلى يونان ثانية: قم انطلق إلى نينوى (التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من السكان) وناد عليها المناداة التي أكلمك بها.	- وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون (الصافات: 147).
11- فآمن أهل نينوى وصاموا ولبسوا مسوحاً.	- فآمنوا فمتعناهم إلى حين (الصافات: 148).
12- وخرج يونان وجلس ريثما يرى ماذا يصيب المدينة. فأعد الله يقطينة فارتفعت فوق يونان ليكون على رأسه ظل.	- وأنبتنا عليه شجرة من يقطين (الصافات: 146).
13- بقية القصة...	- لم ترد في القرآن.

ملكة سبأ:

وردت قصة زيارة ملكة سبأ للملك سليمان في سفر الملوك الأول القانوني، وفي المدراش[1] المعروف باسم مدراش شيني/ Sheni، أو ترجوم شين لأنه ترجمة عبرية عن أصل آرامي، وهو يحتوي على عناصر قصصية غير موجودة في النص القانوني ولكنها موجودة في القصة القرآنية.

---

(1) المدراش وجمعه مدراشيم هي مرويات تحتوي على شروح وتعليقات على الأسفار القانونية مدونة بالأسلوب الحكائي ويغلب عليها الطابع الأسطوري.

الرواية القانونية:

على الرغم من كل المبالغات التي لجأ إليها محرر سفر الملوك الأولي في وصف حكمة سليمان، وسلطته واتساع ملكه وعظمة الأبنية التي شيدها، والتي استخدم فيها أطنان الذهب والأحجار الكريمة، ورخاء الناس في عصره عندما جعل الفضة مثل الحجارة في أورشليم، إلا أن ذلك الوصف بقي واقعياً في جوهره وخالياً من العناصر الأسطورية على ما نجده في قصة زيارة ملكة سبأ:

«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة، وجاءت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان كلامها لم يكن أمر مخفياً عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه، وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم... لم يبق فيها روح بعدُ. فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي... (خطاب مدائحي طويل)... وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة... وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك، فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها» سفر أخبار الملوك الأول 10: 1-13.

رواية مدراش شيني:

لقد وصف محرر سفر الملوك الأول حكمة سليمان وعلومه ومعارفه في المقطع التالي من الإصحاح الرابع:

«وأعطى الله سليمان حكمة وفهماً كثيراً جداً... وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر... وكان صيته في جميع الأمم حواليه. وتكلم بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفاً وخمساً. وتكلم عن الأشجار من الأرز في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط. وتكلم عن الطير وعن

الدبيب (=الدواب) وعن السمك. وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان».

ونحن هنا أمام عقل موسوعي جمع إليه فلسفة عصره وعلومها (علم النبات وعلم الحيوان وعلم البحار)، وآدابها (الأمثال والنشائد) ولكنه لم يكن يمتلك قوى خارقة لا تتوفر للبشر، ولم يكن له سلطة على عالم الجن، ولم يكن يعرف لغة الطير والنمل وغيرهما من أصناف الحيوانات. أما في المدراش فقد كان سليمان حاكماً على البشر مثلما كان حاكماً على الجن والعفاريت التي كانت تهابه وتأتمر بأمره ويسخرها في تشييد أعماله العمرانية الضخمة. كما كان متسلطاً على عالم الحيوان يعرف لغاتها ويتواصل معها فيكلمها وتكلمه. وكان بين حاشيته المدعو زيميرات المرتيس على الجن، وآصف بن برخيا القادر على إتيان العجائب. وهذه قصته مع ملكة سبأ كما رواها مدراش شيني[1].

في أحد الأيام دعا سليمان، على عادته، جميع أنواع دواب الأرض وطيور السماء إلى الاجتماع أمامه فحضروا جميعاً إلا الهدهد (الذي يدعوه النص ديك البر). غضب سليمان لغياب الهدهد وتوعده بالعقاب، ولكنه وصل إلى الاجتماع بعد قليل، فحط وراح يشرح لسليمان سبب تأخره. فقد كان يطير فوق أرجاء الأرض ليرى ما إذا كان هنالك مكان لا تصل إليه سلطة الملك، حتى وصل إلى مدينة في الشرق تدعى قطور مزدحمة بالناس تحكم عليهم امرأة تدعى ملكة سبأ، وهم يتعبدون للشمس ولا يعرفون السلاح ولا الحروب. سُرّ سليمان من حديث الهدهد وصفح عنه، ثم إنه استدعى كاتبه وأمره أن يخط رسالة إلى ملكة سبأ قال فيها: «سلام عليك وعلى نبلاء مملكتك. ألا فلتعلمي أن الرب جعلني ملكاً على طير السماء وحيوان الأرض وعلى الجن والعفاريت،

(1) الرواية التي أقدمها هنا عن كتاب:
لويس جنزبرغ: أساطير اليهود، ترجمة حسن حمدي السماحي، دار الكتاب العربي، النسخة الإلكترونية، ص1341-1342.

وأن ملوك الأرض يأتونني معلنين خضوعهم لسطاني، فإذا حذوت حذوهم منحتك من المجد ما لم أمنحه لأحد، وإلا فسوف أوجه إليك جيشاً لا قبل لك به». ثم علق الرسالة في جناح الهدهد فطار وتبعته طيور السماء في رحلته. وعندما وصلوا كانت الملكة قد خرجت في الصباح لتصلي في معبد الشمس. فحجب موكب الطيور عنها ضياء الشمس، وحط الهدهد فألقى إليها بالرسالة، فلما قرأتها لطمت خدها ثم دعت شيوخ المدينة وأطلعتهم على مضمون الرسالة وطلبت مشورتهم. فقالوا لها إنهم لم يسمعوا بسليمان هذا ولا يأبهون لمملكته. ولكنها لم تلق بالاً لما قالوه، بل أسرعت فجهزت سفنها للإبحار وحمّلتها بالخشب الثمين والحجر الكريم وما إلى ذلك من هدايا تليق بالملوك، ثم بعثت له برسالة جوابية تقول فيها إنها قادمة إليه وفق ما أراد. وبعد ذلك أبحرت ومعها فريق من اليافعين ذكوراً وإناثاً يرتدون ثياباً أرجوانية اللون. وعندما وصلت أرسل سليمان وزيراً له لاستقبالها، فقادها إلى قصره المصنوع من الكريستال فلما دخلت ظنت أنها تخطو على الماء لصفاء الأرضية ونقائها وكشفت عن ساقيها لكي لا يبتل ثوبها. ثم إن سليمان استقبلها وأجلسها أمامه. ولما كانت راغبة في معرفة حقيقة ما يقال عن حكمته أرادت أن تمتحنه بطرح بعض الأحاجي أو الفوازير عليه وقالت: لطالما سمعت عن حكمتك، فهل ستجيبني إذا سألتك بعض المسائل؟ فقال: الرب يهب الحكمة لمن يشاء، سلي ما تشائين (يلي ذلك عدد من الفوازير التي طرحتها وجوابه (السريع عليها). وبقية المدراش لا تختلف عن رواية سفر الملوك الأول إلا في تفاصيل صغيرة.

في القرآن :

في سورة سبأ لدينا عن سليمان صورة تطابق صورته في المدراشيم:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ .... وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ

أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ سبأ: 12-13.

وفي سورة النمل لدينا قصة زيارة ملكة سبأ سليمان والتي تحتوي على جميع العناصر الرئيسية للقصة المدراشية:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النمل: 20-44.

تعليق :

لقد عمل الاختصاصيون في المدراشيم على تحديد زمن تدوين كل مدراش اعتماداً على شواهد موضوعية دقيقة، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد زمن تدوين مدراشي شيني إلا من خلال صيغته اللغوية فأرجعوه إلى زمن ما من القرن الرابع الميلادي. أما الموسوعة اليهودية فقد أرجعته إلى أواخر القرن السابع الميلادي ولكن دون تقديم شواهد قوية على ذلك. ولذلك نشأ رأي يقول إن مدراش شيني هو الذي عقد التناص مع القرآن وليس العكس.

* * *

الباب السادس

الملاحق

الخلفية الميثولوجية
لحديث الإسراء والمعراج

تقوم روايات الإسراء والمعراج في السيرة والحديث على عدد من العناصر الميثولوجية الشائعة في أساطير الشرق القديم وفي الأدب الكتابي، وسوف أركز فيما يلي على الشخصيات التي صعدت إلى السماء لصلتها بالمعراج، وعلى دابة البراق لصلتها بما علق بالإسراء القرآني من خرافات.

1- الذين صعدوا إلى السماء :

لدينا في الميثولوجيا الرافدية قصتان عن صعود إنسان إلى السماء هما قصة أدابا وقصة إيتانا.

فقد كان أدابا واحداً من الحكماء السبعة الذين عاشوا قبل الطوفان الكبير، وكان كاهناً لإله الحكمة والماء العذب في معبده بإريدو على شاطئ الخليج العربي. وفي أحد الأيام عندما كان في البحر يصطاد السمك، فهربت ريح الجنوب وقلبت مركبه فغضب ولعنها فانكسر جناحها وتوقفت عن الهبوب. وعندما عرف إله السماء آنو بما حصل أرسل إليه من حمله إلى السماء حتى مثل بين يديه فسأله بغضب: لماذا كسرت جناح الريح؟ فشرح له أدابا ماحصل له، وتطوع الإلهان تموز وجيزيدا للدفاع عنه فهدأ غضب آنو، ولكنه تنبه إلى أن أدابا قد صار مطلعاً أسرار السماء وقرر أن يمنحه خلود الآلهة، فأمر له بطعام الخلود ليأكل وشراب الخلود ليشرب، ولكنه لم يمد يده إليهما، فقال له آنو: لماذا لم تأكل ولم تشرب؟ فأجاب: لقد أمرني إلهي إنكي ألا أكلَ هنا أو أشرب شيئاً. فأمر آنو بإعادته إلى الأرض بعد أن خسر نعمة الخلود التي عرضت عليه.

أما إيتانا فقد كان ملكاً على مدينة كيش، وقد أشرف على الشيخوخة دون أن يرزق بولد يخلفه على العرش، فراح يصلي ويقدم القرابين في المعبد للآلهة علها تزيل عنه لعنة العقم. ثم سمع عن نبتة في السماء تشفي من العقم تتعهدها الإلهة عشتار بالسقاية والرعاية، فراح يصلي للإله شَمَش لكي يجعل أوراق هذه الشجرة من نصيبه. أخيراً استجاب له الإله ودلّه على نسرٍ جريح ملقى في حفرة، عليه الذهاب إليه ومعالجة جراحه فإذا شفي حمله إلى السماء. فعل إيتانا وفق تعليمات إلهه فشفى النسر الذي طار به صعوداً حتى وصل بوابة السماء. وهنا ينكسر الرقم الذي دونت عليه هذه القصة وتضيع تفاصيل بقيتها التي من المؤكد أنها تخبر عن حصوله على أوراق النبتة، لأننا نعلم من رقيم آخر أنه أنجب ولداً دعاه بالح ورثة على عرش كيش.

وفي الأدبيات الدينية الزرادشتية لدينا قصة عن عروج النبي زرادشت إلى السماء، فقد كان زرادشت كاهناً على دين قومه في إيران، وفي إحدى المناسبات الطقسية دعت الحاجة إلى بعض الماء، فحمل سطلاً ومضى إلى النهر القريب وهناك تجلى له كائن توراتي قال له إنه أحد الملائكة الستة العالين الذي يحيطون بالإله الواحد أهورا مزدا الذي اختاره للتبشير بدين الحق. ثم حمله وعرج به إلى السماء حيث مثل في حضره الإله الذي أعطاه الرسالة التي يتوجب عليه إبلاغها للناس.

وفي التوراة رُفع إلى السماء بجسده ليقيم فيها كل من أخنوخ الصالح وهو السلف السادس للبشرية بعد آدم (التكوين 5: 21-24)، والنبي إيليا. وفي المسيحية لدينا أسطورة شعبية عن صعود السيدة مريم إلى السماء تبنتها الكنيسة بعد ذلك، وصارت الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية تحتفل بعيد صعودها يوم الخامس عشر من شهر آب/أوغسطس من كل عام.

البراق :

لحديث الإسراء صيغ كثيرة وكلها لا أصل لها في القرآن الكريم، ففي حديث مرفوع إلى ابن عباس يصف النبي البراق على الوجه التالي: «وجهها كوجه

إنسان، وخدها كخد الفرس، وعرفها مثل لؤلؤ ممشوط، وأذناها زبرجدتان خضراوان، وعيناها مثل كوكب الزهرة، لها شعاع مثل شعاع الشمس، بلقاء مُحجلة، يتحدر من نحرها مثل الجمان، ذنبها ذنب بقر، أظلافها كأظلاف البقر من زبرجد أخضر، سيرها كالريح، في فخذها جناحان، لها نفس كنفس الآدميين، تسمع الكلام وتفهمه، وهي فوق الحمار ودون البغل».

وبما أن هذا الحديث وأمثاله يستخدم صيغة التأنيث في وصف البراق، فقد شاع في الفن الإسلامي تصوير البراق برأس امرأة على ما نراه في الشكل رقم 1، وهو من الفن الهندي في العصر المغولي.



الشكل رقم 1 البراق في الفن الهندي الإسلامي

والبراق عنصر ميثولوجي شائع في ثقافة الشرق القديم والثقافة الكلاسيكية، ويدعى في اللغة اليونانية سفينكس/Sphinx، وهو كائن بجسم حيواني ورأس إنساني وجناح طائر. فالرأس يرمز إلى العقل، والجسد الحيواني إلى القوة، والجناح إلى سرعة الحركة، ويدعي في التوراة كروب بصيغة المفرد وكروبيم بصيغة الجمع. وأول براق معروف لنا تاريخياً هو تمثال أبو الهول

العملاق الرابض أمام أهرامات الجيزة على مقربة من القاهرة، على شكل أسد رابض برأسٍ إنساني مذكر، يمثل الروح الحارس لمدافن الفراعنة، وهو بدون جناح. وقد رحل أبو الهول إلى بلاد اليونان ودخل في عدد من الأساطير أكثرها شهرة أسطورة أوديب، ثم عاد إلى مصر مجنحاً وشغل حيزاً من الفن المصور المصري لأنه الروح الحارسة للفرعون.

وفي بابل وآشور كان البراق يصور على هيئة ثور مجنح برأس إنساني مذكر منحوت من الحجر بارتفاع عدة أمتار، يوضع على بوابات المعابد أو القصور كروح حارسة للمكان.



الشكل 2 البراق البابلي

وفي بلاد الشام يبدأ البراق بالظهور في الفن المصور منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد إما في هيئة ثور أو أسد أو مزيج من هذا وذاك، والجناح دوماً لنسر. وسأكتفي بالإشارة إلى بعضها.

ففي الرسوم الجدارية للقصر الملكي في مدينة ماري القرن الثامن عشر قبل الميلاد، لدينا رسوم جدارية تمثل البراق كحارس للملك أو للإلهة عشتار. وفي معبد عين دارا الآرامي في الشمال السوري، نجد سلسلة من هذه الكائنات منحوتة على مدخل المعبد وعلى جدرانه الخارجية. ووصلنا من مملكة حداثو الآرامية في شمال الوسط السوري مجموعة منحوتات بارزة عاجية بينها منحوتة تمثل براقان لهما جسم الأسد ورأس الثور وجناحا نسر يحفان بشجرة الحياة (الشكل 3)، وهو محفوظ اليوم بمتحف حلب.



الشكل 3 براقان يقصدان شجرة الحياة

ولدينا في الفن الفينيقي منحوتات تمثل عرش الألوهة الخافية الفارغ، ومنها المنحوتة الموضحة في الشكل 4 التي وجدت في صيدا (=صيدون الفينيقية). وفي موطن الثقافة الفينيقية بتونس عُثر على منحوتات بارزة تمثل إلهاً جالساً على عرش يحمله براقان (الشكل 5).



الشكل 4: منحوتة تمثل عرش الألوهة الفارغ يسنده كروبان



الشكل 5: منحوتة تمثل الإله على عرشٍ يحمله كروبان

ومن السامرة بفلسطين وصلتنا مجموعة من المنحوتات العاجية التي تنتمي إلى المدرسة السورية في حداثو، وجدت في الركام الذي خلَّفهُ الدمار الآشوري في المدينة، ويشغل البراق في العديد منها بؤرة المشهد (الشكل 6).



الشكل 6 من عاجيات السامرة

ولدينا من مدينة نمرود في آشور منحوتات عاجية تنتمي إلى المدرسة السورية حملها الآشوريون كأسلاب حرب.





الشكل 7 والشكل 8: براقان بين النخيل من آشور

وفي الأدب التوراتي يشغل البراق الذي يدعى كَروب (وبالجمع والتثنية كروبيم) حيزاً واسعاً في الفنون البصرية والطقوس الدينية. نجد في سفر حزقيال الإصحاح الأول وصفاً لأربعة منها تطير بعربة الإله التوراتي التي حطت به عند نهر الخابور. فقد كان لها وجه إنسان وسيقان وأظلاف العجل وأيدي إنسان تحت أجنحتها. وفي مواضع عديد أخرى نجد أن الكروب (أو الكروبيم) هو مركبة يهوه عندما ينزل إلى الأرض: «طأطأ السماوات ونزل، وضباب تحت رجليه. ركب على كروب وطار وُرئي على أجنحة الريح» المزمور 18: 10-11. وعلى ما نفهم من عدة إشارات في الكتاب، فإن عرش يهوه كان يحمله كروبان واحد من اليمين وآخر عن اليسار، على ما رأيناه في المنحوتات الفينيقية: «الرب قد مَلَك فلترتعد الشعوب وهو جالس على الكروبيم» المزمور 99: 1. «يا جالساً على الكروبيم أشرق» المزمور 8: 1. «رب الجنود الجالس على الكروبيم» صموئيل الثاني 6: 2. «أيها الرب إله إسرائيل الجالس فوق الكروبيم» الملوك الثاني 19: 15.

وقد أدى الكروب دوراً هاماً في طقوس عبادة الإله يهوه، سواء في خيمة الاجتماع في الصحراء التي كانت مسكناً ليهوه بين شعبه، أو في هيكل أورشليم الذي بناه الملك سليمان. فكان الرب في الخيمة يكلم موسى من بين كروبين وضعهما على غطاء تابوت العهد الذي يحتوي على وصايا الرب منقوشة على حجرين. وفي هيكل أورشليم كانت رسوم الكروبيم وتماثيلها بمثابة العنصر الرئيسي في الأثاث الطقسي للمعبد (راجع الخروج 25: 17-22، و26: 31، و36: 35، و37: 1-9. والملوك الأول 6: 1-38.

ويبدو لي أن تسمية البراق في المصادر الإسلامية ليست من البرق باعتبار ما له من سرعة الحركة، وإنما من تسمية كروب في العبرية التوراتية. فنحن إذا حذفنا حرف العلة من كلمة كروب تغدو ك ر ب وإذا عكسناها تغدو ب ر ك

وبإعادة حرف العلة: براك أو براق. أي إن مـن ابتكـر حـديث الإسـراء الـذي لا علاقة له من قريب أو بعيد بسورة الإسراء: 1، كان مطلعاً على قصص الكـروب في التوراة، ونحن هنا أمام مثال واضح علـى أثـر الإسـرائيليات علـى الحـديث وعلى تفسير القرآن الكريم.

تاريخ هيكل أورشليم
وصلته بالمسجد الأقصى

تثير مسألة هيكل أورشليم اليوم كثيراً من الجدل على المستوى الشعبي والسياسي بين العرب واليهود، وجُلّه يتخذ طابعاً إعلامياً لا صلة له بما يدور في حلقات البحث الآثاري والتاريخي. فهل كان هذا الهيكل موجوداً وما هي علاقته بالمسجد الأقصى؟ للجواب عن هذا السؤال سوف أقدم لمحة موجزة عن تاريخه المتصل عضوياً بتاريخ أورشليم عاصمة مملكة يهوذا القديمة، اعتماداً على ما توفر لدينا من أخبار تاريخية موثقة، وما أفاضت به نتائج التنقيب الأثري.

لعل من المفيد ابتداءً التمييز بين هيكل سليمان الذي يدور حوله معظم الخلاف والجدل على المستوى الإعلامي، وهيكل مدينة أورشليم في عصر مملكة يهوذا وما تلاه وصولاً إلى العصر الروماني. إن الشواهد الأثرية والتاريخية تدل اليوم وبشكل قاطع على أن هيكل سليمان لم تقم له قائمة في العصر الذي يعُزى إليه وهو القرن العاشر ق.م، إلا أننا لا نستطيع اعتماداً على الشواهد نفسها نفي وجود هيكل في أورشليم خلال العصور التالية، لاسيما عندما دخلت مسرح العلاقات الدولية وتحولت إلى عاصمة إقليمية مهمة في أواخر القرن الثامن الميلادي.

يرتبط تاريخ الهيكل ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مدينة الهيكل. فالمعابد الضخمة لا تشيدها إلا سلطة سياسية مركزية في دولة بلغت مواردها المالية حداً يساعدها على القيام بالمشاريع العمرانية الضخمة؛ من معابد وقصور وأبنية إدارية وما إليها. من هنا فإن تتبُّع تاريخ أورشليم في الوثائق التاريخية ومن خلال نتائج التنقيب الأثري الذي ابتدأ قبل قرن ونصف وما زال جارياً، هو الذي يعيننا على التعامل مع مسألة الهيكل بمنهج علمي غير متأثر بالمواقف المسبقة والميول العاطفية.

من المفترض وفق الرواية التوراتية أن المملكة الموحدة لكل إسرائيل، والتي جمعت القبائل الإسرائيلية تحت سلطة مركزية مقرها في أورشليم، قد دامت من عام 1020 إلى عام 931ق.م، وتتابع على حكمها كل من شاؤل وداود وسليمان. وأن داود قد حوّل هذه المملكة إلى قوة إقليمية كبرى، امتدت أراضيها فيما بين الفرات والنيل، وأن أورشليم في عصر الملك سليمان كانت درة عواصم الشرق، والهيكل الذي بناه فيها درة المعابد.

ولكن الصورة الآثارية التي بدأت تتكشف لنا على يد المنقبين الإسرائيليين أنفسهم، عن منطقة الهضاب الفلسطينية التي قامت عليها هذه المملكة الموحدة، جاءت لتنسف الرواية التوراتية من أساسها. فهذه المنطقة كانت متخلخلة سكانياً ومفقرة إلى أبعد الحدود، لاسيما إقليم يهوذا ومركزه أورشليم. فقد كانت يهوذا شبه خالية من السكان المستقرين ولم تكن تحتوي في القرن العاشر إلا على ثماني عشرة قرية متناثرة، لا يزيد عدد سكان الواحدة منها عن مئة وخمسين نسمة في أحسن الأحوال. أما أورشليم فلم تكن سوى بلدة صغيرة بقي سورها قائماً منذ عصر البرونز الوسيط يحصر مساحة مقدارها أربعة هكتارات ونصف، ولكنها كانت خالية من السكان وفي أحسن الأحوال شكلت مقراً لشيخ قبلي متواضع. يدلنا على ذلك انعدام اللقى الأثرية الدّالة على وجود حياة بشرية نشطة في الموقع، لاسيما الكسرات الفخارية التي نستدل منها عادة على وجود هذه الحياة. فإذا افترضنا وجود مدينة كبيرة مسكونة على نطاق واسع في أورشليم القرن العاشر مركزها جبل الهيكل، فلابد، كما هو الحال في المواقع الأخرى، العثور على آلاف الكسرات الفخارية المدفونة في الردميات، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، ولم يتمكن المنقبون من الحصول على كسرة واحدة تنتمي إلى تلك الفترة. هذا الوضع يلخصه الآثاري الإسرائيلي David Ussishkin بالقول: «علينا أن نعترف أخيراً بأن عاصمة سليمان لم يتم اكتشافها، لأنها لم تكن موجودة قط». وهذا يستتبع منا القول بأن معبداً ضخماً في أورشليم لم يبن في القرن العاشر، وسليمان نفسه ليس إلا شخصية روائية في الملحمة التوراتية.

وفقاً للرواية التوراتية فإن المملكة الموحدة لكل إسرائيل قد انقسمت إلى مملكتين: إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب. ولكن نتائج التنقيبات الأثري وتقاطعاتها التاريخية، تبين لنا اليوم أن الدولة المركزية في الشمال قد نشأت في مطلع القرن التاسع، بينما لم تنشأ في الجنوب حتى أواخر القرن الثامن، أي بعد نحو قرن ونصف، والمملكتان لم تتعاصرا إلا مدة قصيرة من الزمن.

مع مطلع القرن التاسع الذي شهد ميلاد دولة إسرائيل وبناء عاصمتها السامرة، لدينا دلائل على حدوث نشاط سكني ضعيف في موقع أورشليم، ولا يبدو أن عدداً كبيراً من السكان قد أقام هنا. لذا فمن المرجح أن يكون الموقع عبارة عن مقر إداري صغير لسلطة سياسية متواضعة، وأننا أمام البدايات الأولى لولادة مدينة توقف فيها الاستيطان مدة طويلة من الزمن. في سياق القرن التاسع أخذت أورشليم تتحول تدريجياً إلى مدينة مسكونة، وذلك مع ازدياد حركة الاستيطان في منطقة يهوذا، بعد انحسار موجة الجفاف الطويلة التي تسببت في إفراغ مناطق الهضاب الفلسطينية من السكان المستقرين. وحدث الشيء نفسه في مدينة حبرون (الخليل) في الجنوب، وراحت هاتان المدينتان تتنافسان من أجل السيطرة على قرى يهوذا التي لم تكن بعدُ قد خضعت لسلطة مركزية. ولم تُحسم هذه المنافسة إلا بعد أن ألغت أورشليم استقلال حبرون، وبسطت سلطتها على كامل مساحة يهوذا وصولاً إلى بئر السبع. مع الانتقال إلى القرن الثامن حصلت زيادة ملحوظة في عدد القرى الجديدة. ويُظهر المسح الأثري الشامل للمنطقة أنها احتوت فيما بين أورشليم وبئر السبع على 300 قرية مقابل 18 قرية في القرن العاشر. أما أورشليم فقد توسعت شمالاً باتجاه السور الحالي للحرم الشريف، وغرباً عبر الوادي المركزي الذي يفصل بين سلسلتي تلال القدس الشرقية والغربية، في مساحة تُقدر بخمسين هكتاراً مقارنة بأربعة هكتارات ونصف في القرن العاشر.

هذا وتؤكد الوثائق التاريخية ما أوصلتنا إليه الشواهد الآثارية بخصوص التحولات التي جرت في أورشليم. فقد ورد ذكر المدينة للمرة الأولى في النصوص الآشورية، وذِكر ملكها آحاز نحو عام 735ق.م. وذلك في نص للملك

تغلات فلاصر الثالث يعدّد فيه ملوك منطقة غربي الفرات الذين أدّوا الجزية لآشور. وهذه هي المرة الثانية التي يرد فيها ذكر أورشليم في سجلات الشرق القديم، بعد أن ورد ذكرها في السجلات المصرية قبل ذلك بنحو ألف سنة، عندما كانت مدينة حية ومسكونة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. إنّ صَمْت الوثائق الآشورية عن أورشليم فيما بين القرن العاشر وأواخر القرن الثامن لا يمكن عزوه إلى المصادفة، لأن هذه الوثائق في سردها لأخبار حملات ملوك آشور على بلاد الشام، لم تترك مملكة في سورية الجنوبية إلا وجاءت على ذكرها بما في ذلك مملكة إسرائيل. من هنا فإننا لا نستطيع تفسير عدم اهتمام ملوك آشور بأورشليم إلا بأنها كانت حتى أواخر القرن الثامن مدينة ضئيلة وفقيرة، وافتقاد مرتفعات يهوذا إلى ما يغري الفاتح الآشوري.

في عصر خلفاء الملك آحاز تحولت أورشليم إلى عاصمة إقليمية مهمة وقوية. وقد تمكن الملك حزقيا عام 701ق.م من رد الجيش الآشوري عن أسوار عاصمته التي حافظت على استقلالها بعد ذلك مدة قرن ونصف. وبما أن مثل هذه العاصمة الإقليمية لا يمكن أن تكون قد عاشت بلا مركز ديني كبير، فإننا نرجح أن يكون هيكل أورشليم قد بني خلال الفترة الواقعة بين العقود الأخيرة من القرن الثامن والعقود الأولى من القرن السابع. وهذا هو الهيكل الأول الذي يعزو كتاب التوراة بناءه للملك الملحمي سليمان. وعلى الرغم من كل الدلائل غير المباشرة التي تشير إلى وجود هذا الهيكل، إلا أن التنقيبات الأثرية لم تخرج بشواهد تدل على وجوده. ويبدو أن السبب في ذلك هو استخدام حجارته في بناء الهيكل الثاني الذي قام في موضعه.

ومع ذلك نستطيع أن نأخذ فكرة عن التصميم المعماري لهيكل أورشليم من الوصف الوارد له في سفر الملوك الأول، بعد تجريد هذا الوصف من كل المبالغات والتهويلات التي أوردها المحرر التوراتي. فالتصميم ينتمي إلى نمط المعبد السوري الذي شاع في بلاد الشام خلال القرون الأولى من الألف الأول قبل الميلاد، وهو الذي يدعوه علماء الآثار بنمط المعبد السوري المتماثل

الأقسام Syrian Symmetrical Temple Type. وهو يتألف من مدخل مفتوح على باحة خارجية مكشوفة يَحُفُّ به عمودان، ثم ثلاث قاعات مصطفة على محور واحد: خارجية ووسطى وداخلية. والقاعة الداخلية هي بمكانة قدس الأقداس التي يوضع في صدرها رمز الألوهة المعبودة أو تمثال يجسدها. وقد تم الكشف عن عشرين معبداً في بلاد الشام تنتمي إلى هذا النمط حتى الآن، لعل أكثرها شبهاً بهيكل أورشليم هو الذي اكتشف بموقع عين دارا الواقع على مسافة 50كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب. إلا أن ما يميز هيكل أورشليم هو بناؤه على مصطبة حجرية ضخمة قدمت حلاً معمارياً لضيق سطح هضبة عوفيل (أو جبل الهيكل) التي قام عليها في المنطقة الشمالية لموقع أورشليم القديم. وقد بقيت هذه التقنية مستخدمة في المراحل التالية التي مر بها الهيكل.

في عام 587ق.م زالت مملكة يهوذا عن الخارطة السياسية للشرق القديم، عندما دمر نبوخذ نصر ملك بابل مدينة أورشليم وهيكلها وسبى خيرة أهل المملكة إلى مناطق بابل. ولكن الإمبراطورية البابلية الجديدة لم تُعَمِّر بعد ذلك أكثر من نصف قرن. ففي عام 539ق.م دخل قورش الفارسي إلى بابل، وآلت إليه ممتلكات الإمبراطورية البابلية في مناطق غربي الفرات. وكجزء من الدعاية السياسية فقد سمح قورش للشعوب المسبية بالعودة إلى مواطنها، وبينهم سبي يهوذا الذين أُعطيت لهم وفق التنظيم الإداري الفارسي الجديد مقاطعة شغلت الجزء الشمالي من مرتفعات يهوذا دعيت بمقاطعة «يهود»، وهو اسم آرامي مشتق من الاسم القديم لمملكة يهوذا. أما القسم الجنوبي فقد أُلحق بمقاطعة آدوم ذات الذخيرة السكانية العربية. وقد أُطلق على سكان هذه المقاطعة اسم «يهوديم» أي أهل مقاطعة يهود. وهؤلاء هم اليهود التقليديون الذين انتشرت بينهم فيما بعد الديانة التوراتية التي نضجت خميرتها في بابل، ثم اتخذت ملامحها الثابتة عندما اكتملت عملية تحرير الأسفار التوراتية خلال العصر الفارسي والعصر الهيلينستي اللاحق. وقد أعاد المسبيون الذين رجعوا إلى ديارهم بناء هيكل أورشليم على المصطبة الحجرية القديمة، مستخدمين في ذلك

حجارة الهيكل الأول. وبقي هذا الهيكل الثاني قائماً حتى أواخر القرن الأول قبل الميلاد في العصر الروماني.

بعد وفاة الإسكندر الكبير الذي قضى على الإمبراطورية الفارسية، تقاسم قائداه سلوقس وبطليموس المناطق الشرقية للإمبراطورية، فآلت فلسطين أولاً إلى البطالمة في مصر ثم إلى السلوقيين في سورية. وعندما دخل الملك أنطوخيوس الثالث إلى أورشليم عام 198ق.م اعترف بنظامها السياسي الثيوقراطي الذي كان الكاهن الأكبر بموجبه يمثل السلطة السياسية والدينية، وحافظت المقاطعة التي صارت تدعى الآن باليهودية على نوع من الحكم الذاتي. إلا أن خليفته أنطوخيوس الرابع (أبيفانوس) في سعيه لدمج المقاطعات السورية في بوتقة ثقافية واحدة، أصدر في عام 175ق.م مرسوماً استبدل فيه الشريعة التوراتية الناظمة للعلاقات المدنية في المقاطعة بالقانون المدني السلوقي. وعلى ما جرى عليه السلوقيون من مطابقة لآلهتهم اليونانية مع الآلهة السورية، فقد طابق أنطوخيوس الرابع بين إله اليهود يهوه والإله اليوناني الأعلى زيوس، ونصب تمثالاً لهذا الإله في هيكل أورشليم. وقد أدت هذه الإجراءات إلى اندلاع ثورة في اليهودية قادها المدعو متَّى حشمون بمعونة أولاده الخمسة قادت إلى طرد الحامية السلوقية من أورشليم عام 164ق.م، ثم إعلان استقلال اليهودية عام 143ق.م، تحت حكم خلفاء متى حشمون الذين تحولوا بعد عقود قليلة إلى ملوك ـ كهنة، وعُرفوا تاريخياً باسم الملوك الحشمونيين نسبة إلى حشمون، أو الملوك المكابيين نسبةإلى ابنه الأشهر يهوذا المكابي. ومع مطلع القرن الأول قبل الميلاد استطاع هؤلاء الملوك وضع بقية المقاطعات الفلسطينية تحت سلطتهم.

في عام 63ق.م استولى القائد الروماني بومبي على سورية وأعاد تنظيمها إدارياً. وفيما يتعلق بفلسطين فقد حررها من سلطة المكابيين، وأعاد مقاطعة اليهودية إلى حجمها الطبيعي السابق، وثبَّت هيركانوس الثاني آخر ملوك المكابيين، ولكن ليس كملك بل ككاهن أعلى يخضع لسلطة المفوض الروماني العام في سورية المقيم في دمشق. في عام 37ق.م وبعد فترة من الاضطرابات

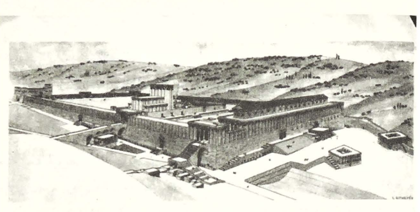
أحدثها الصراع على السلطة في أورشليم عين الرومان الوزير هيرود ملكاً على اليهودية، والذي لُقِّب فيما بعد بهيرود الكبير، أو هيرود العربي نظراً لأصله الآدومي. وعندما أثبت كفاءته في الحكم وضع الرومان كامل فلسطين ومنطقة شرقي الأردن تحت سلطته. وقد وجد هيرود أن هيكل أورشليم القديم لم يعد لائقاً بعاصمته الجديدة، فعمد إلى توسيعه عن طريق بناء مصطبة عملاقة على ذروة جبل الهيكل استوعبت المصطبة القديمة، وقامت عليها باحة فسيحة أُحيطت على مستديرها بأروقة ذات أعمدة، وفي الوسط حافظ على طراز المعبد السوري القديم وركز على مظهره الخارجي، فكان لمعان جدرانه المبنية بالحجر الأبيض المطعَّم بالذهب والفضّة يبهر أنظار القادمين عن مسافة بعيدة. وهذا هو الهيكل الثالث.

بعد وفاة هيرود عام 4ق.م، أعاد الرومان تنظيم مملكته، وعادت اليهودية مقاطعة صغيرة يحكمها وُلاةٌ رومانيون، كان أشهرهم بيلاطس البنطي الذي ارتبط اسمه بحادثة محاكمة وإعدام يسوع المسيح. بعد سبعين عاماً على وفاة هيرود قامت في اليهودية ثورة ضد روما عام 66 للميلاد، فوجهت إليها جيشاً بقيادة القائد تيتوس، قضى على جميع مظاهر التمرد، ثم حاصر أورشليم واقتحمها ودمرها وأحرقها بالنار. أما الهيكل فقد تهدمت جدرانه ولم يبق منها سوى أجزاء قليلة قائمة من السور الخارجي، ومنها ذلك المقطع الذي عُرف فيما بعد بحائط المبكى لدى اليهود وبحائط البراق لدى المسلمين. في عام 135م قضى الإمبراطور هادريان على ثورة يهودية ثانية في المقاطعة، ثم سوّى ما تبقى من أورشليم بالتراب وبنى مكانها مدينة جديدة تحت اسم إيليا كابتولينا، وحظّر على اليهود أو من بقي منهم الاقتراب منها تحت طائلة الموت.

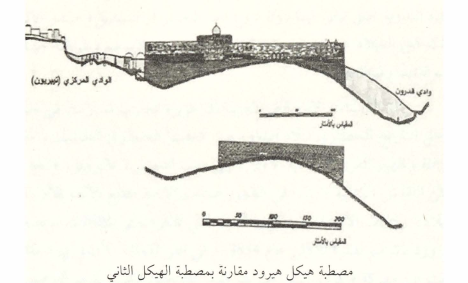
أما الهيكل المدمر فقد أبقى على أطلاله للتذكير بعظمة روما، ولم تدخل منطقة الهيكل في التنظيم الجديد للمدينة، واستخدمت معظم حجارة تلك الأطلال في بناء المدينة الجديدة. وقد اكتُشفت في العصور الحديثة بموقع مأدبا شرقي الأردن خريطة فسيفسائية للمدينة ترجع إلى الفترة البيزنطية، ويظهر فيها موقع

الهيكل فارغاً تماماً. وعندما قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ببناء المسجد الذي دعاه بالمسجد الأقصى استخدم مهندسوه المصطبة الضخمة التي قام عليها هيكل هيرود الكبير. ورفع جدرانه على أساسات جدران الهيكل، وأكمل بناء الجدران القديمة التي بقي جزؤها الأسفل، على ما نراه بشكل واضح في الجدار الذي دعاه المسلمون بحائط البراق واليهود بحائط المبكى، حيث نرى الجزء الأسفل منه مبنياً بحجارة رومانية ضخمة من عصر هيرود، والجزء الأعلى بحجارة صغيرة على الطراز الإسلامي. وقد أكدت حملة التنقيب البريطانية الأولى في موقع أورشليم/ القدس بقيادة المنقب وارن/R.E.Warren تاريخ جدران المسجد الأقصى، عندما حفر وارن أنفاقاً عمودية على بعد 20 متراً خارج المسجد، لأن السلطات العثمانية لم تسمح له بالتنقيب داخل حرم المسجد، وبعد أن وصل إلى عمق 30 متراً حيث القاعدة الصخرية، اتجه بنفقه أفقياً نحو أساس الجدار، وتبين له أن الأقسام المطمورة في التراب هي استمرار للأقسام الظاهرة فوقه، وأن الأسلوب المتبع في نحت حجارتها ورصفها ينتمي إلى النمط المعماري لعصر هيرود، ثم كرر العملية في عدة مواقع أخرى ليحصل على النتائج نفسها.

هذا وتلخص المنقبة البريطانية نتائج حملتها التنقيبية في موقع الهيكل فيما بين عام 1960 و1967 بالكلمات التالية: «إن المصطبة القائمة اليوم هي كل ما تبقى لنا من هيكل أورشليم، وهي تعود إلى عصر الملك هيرود. وقد تم هدم المعبد من قبل الرومان واستُخدمت حجارته في تشييد مدينة آيليا كابيتولينا، وما تبقى من الحجارة تم استخدامه خلال العصر البيزنطي والإسلامي. وحتى إذا سمحت الظروف بالتنقيب تحت الحرم الشريف، والذي سيكون من نتيجته تخريب مكان على غاية من الروعة والجمال والقداسة، فإن المنقبين لن يعثروا إلا على الذروة الصخرية للجبل التي بنيت فوقها قبة الصخرة في المسجد الإسلامي». هذه النتائج التي توصلت إليها كينيون لم تغير منها التنقيبات الإسرائيلية حتى الآن شيئاً.



هيكل هيرود الكبير



مصطبة هيكل هيرود مقارنة بمصطبة الهيكل الثاني

التكوين السياسي لعرب الشمال
ودورهم في تاريخ المنطقة

ونعني بعرب الشمال هنا عرب شبه الجزيرة العربية (أو العربية كما أدعوها اختصاراً) من دون اليمن، ومن استقر منهم في الشام والعراق. وحديثنا عن التكوين السياسي لهؤلاء لا يشمل القبائل التي بقيت على البداوة، وإنما يقتصر على الحياة الحضرية، لأن البداوة لا تاريخ لها، وما أن تدخل أية جماعة دورة الحياة البدوية حتى تبقى فيها دون نزوع نحو التغيير أو التبديل؛ فبدو الألف الثالث قبل الميلاد هم أنفسهم بدو القرن العشرين، بملابسهم وطريقة حياتهم وحيواناتهم وشرائعهم.

تبين لنا التنقيبات الآثارية في العربية أن جزيرة العرب شاركت في جميع مراحل التاريخ الحضاري لبلاد الشام، من العصر الحجري الحديث، عصر الزراعة وظهور القرى الزراعية الأولى، إلى عصر النحاس، فالبرونز، فالحديد. ولكن النقوش الكتابية لا تبدأ في الظهور عندهم إلا مع مطلع الألف الأول قبل الميلاد، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالأخبار التي تذكرهم في الثقافات المجاورة. فقد ورد ذكرهم للمرة الأولى عام 854ق.م في نص للملك الآشوري شملنصر الثالث عن معركة قرقرة، التي جرت عند المنحنى الكبير لنهر العاصي في الشمال السوري بينه وبين تحالف اثني عشر ملكاً سورياً بقيادة ملك دمشق هدر عزر، الذي كان يعمل على مواجهة التوسع الإمبراطوري الآشوري في بلاد الشام. وكان بين حلفاء دمشق ملك عربي يدعوه النص جنديبو العربي، الذي قدّم للمعركة ألف هجّان من فرسان الجمال. وهذه أول إشارة تاريخية إلى دخول العرب معترك الحياة السياسية الإقليمية إلى جانب الممالك العريقة مثل حماة وأرواد وسيانو والسامرة.

أما عن شخصية جنديبو العـربي (Aribu بالأشـورية) الغامضـة في الـنص وموطنه الذي جاء منه فلا نستطيع سوى التكهن. وبما أنه لم تكن في ذلك الوقت قد تشكلت ممالك عربية في بلاد الشام، فإني أرشحه ليكون إما ملك قيـدار في مدينة أدوماتو (=دومة الجندل الحالية) في شمـال غـرب العربيـة علـى الحـدود الحالية مع الأردن، أو ملك ددان في منطقة العـلا الـتي تلـي قيـدار غربـاً، لأن هاتين المملكتين كانتا الأسبق في الظهور بين ممالـك العربيـة في مطلـع الألـف الأول قبل الميلاد. وسنقوم فيما يلي بالتعريف بهاتين المملكتين وأهم الممالـك العربية الأخرى في عصور ما قبل الإسلام.

مملكة قيدار :

كانت أدوماتو من أوائل مراكز الاستيطان البشري، وفي أوائل الألف الأول قبل الميلاد قامت فيها مملكة دعيت قيـدار، وسمّيـت عاصـمتها في النصـوص الآشورية أدوماتو. ونظراً لوقوعها في الطـرف الجنـوبي لـوادي السـرحان الـذي يصل العربية بالشام، فقد اغتنت من التجارة وورد ذكر تجارتها النشطة مع موانئ فينيقيا في التوراة، سفر حزقيال 27. أما محرر سفر التكوين فيجعل القيداريين من نسل المدعو قيدار الابن الثاني لإسماعيل (التكوين 25: 13). ويطلعنا سفر نحميا على اسم أحد ملوكهم ويدعى جشم العربي، وهو شخصية تاريخية تأكـدنا مـن وجودها عند العثور على طاسات فضية نقش عليه اسمه في موقع تل المسخوطة على المنطقة الحدودية بين سيناء ومصر[1].

وقد قاومت قيدار المشروع الإمبراطوري الآشوري، وتعارضت مصالحهما ودخل الطرفان في صراع مرير، وهنا تطلعنا حوليات ملـوك آشـور علـى تقليـد راسخ لدى عرب الشمال يعلي من شأن المرأة العربية، ويرفعها إلى أعلى منصب في الهرم الاجتماعي، فنقرأ في نـص للملـك أسـرحادون (680-669ق.م) عـن

(1) James Pritchard, Ancient Near Easter Texts, Priceton, New Jersey, 1969, p. 657-658.

ملكة على قيدار تدعى إشكلانو كانت تسير على رأس جيشها لمقارعة آشور حتى وقعت أسيرة:

«من أدوماتو معقل العرب الذي فتحه أبي سنحاريب (704-681ق.م) وأخذ منه الجزية والغنائم وساق ملكتهم إشكلانو أسيرة إلى آشور، قدِم حزائيل ملك العرب إلي في نينوى حاضرة مُلكي ومعه هدايا كثيرة، فقبَّل قدمي وتوسل من أجل إعادة صور آلهته، فعطفت عليه وأعدتها إليه بعد أن نقشت عليها كتابة تذكر اسمي وتعلن عظمة إلهي آشور»[1].

ومن نصوص أسبق للملك تغلات فلاصر الثالث (742-727ق.م) نعرف عن ملكة اسمها زبيبة/Zabibe وأخرى اسمها شمسة/Samsi دعيت كل منهما بملكة العرب، دون الإشارة إلى موطنهما الذي نرجح أن يكون إما قيدار أو ددان. فقد دفعت زبيبة الجزية إلى تغلات فلاصر:

«تلقيت الجزية من ملك دمشق وملك السامرة، وملك صور، وملك جبيل، وملك قوية، وملك كرتميش، وملك حماة، وملك شمأل، ومن زبيبة ملكة العرب»[2].

أما شمسة فقد قاومت آشور مدة قبل أن يتوجه إليها تغلات فلاصر في سياق حملة له أخضع خلالها عدداً من الملوك السوريين ثم توجه لتأديب هذه الملكة:

«وأما شمسة ملكة العرب فقد قتلت من جندها 1100، وغنمت 30.000 جمل، و20.000 خروف، و500 صندوق من التوابل، و11 طاسة مكرسة لآلهتها، أما هي فقد هربت مثل أتان وحشية إلى بازو في إقليم العطش»[3].

---

(1) المرجع نفسه ص292.

(2) المرجع نفسه ص283.

(3) المرجع نفسه ص284.

إن العدد الكبير من القتلى العرب في هذه المعركة يدل على ضخامة جيش شمسة، والعدد الذي غنمه الآشوريون من الجمال والخرفان يدل على مدى ثراء مملكتها، أما صناديق التوابل الخمسمئة فقد كانت معدة للنقل إلى مدن وموانئ بلاد الشام ومصدرها الهند وجنوب العربية.

إضافة إلى المراكز الحضرية التي قاومت آشور في شمال العربية، فقد قاومتها قبائل ما زالت على حال البداوة تعيش تحت الخيام، لأننا نقرأ في نص للملك آشور بانيبال عن حملة وجهها ضد ملك عربي يدعى يواطي/Uate وضد حلفائه من الأعراب وأحرق الخيام التي يعيشون تحتها، أما يواطي فقد هرب إلى الأنباط/Nabati[1]، ولكن زوجة يواطي المدعوة عادية حلت محله وتعاونت مع ملك قيدار الذي كان يوسع نفوذه غرباً. نقرأ في نص آخر لآشور بانيبال:

«أمولادي/Ammuladi ملك قيدار راح يقاتل ملوك البقاع الغربية التي وهبها لي آشور وعشتار وبقية الآلهة العظام، ولكني بناء على وحي صادق من آشور ومن سن ومن....إلخ، وجهت إليه جيشاً هزمه وجاء به رجالي حياً إلي ومعه عادية زوجة يواطي»[2]. وتتحدث حوليات هذا الملك في موضع آخر عن هزيمة عادية: «وأما عادية ملكة العرب فقد هزمتها هزيمة منكرة وأحرقت خيامها وسقتها أسيرة إلى أشور»[3].

عاشت مملكة قيدار حتى القرن الثاني قبل الميلاد عندما وقعت تحت السلطة الصاعدة لمملكة الأنباط في المنطقة[4].

---

(1) المرجع نفسه ص298.

(2) المرجع نفسه ص 298.

(3) المرجع نفسه ص298.

(4) من أجل دراسة شاملة عن صعود وزوال قيدار راجع:

د. هند التركي، مملكة قيدار، مكتبة الملك فهد الوطنية 2011.

مملكة ددان :

نشأت مملكة ددان، في وقت متزامن مع قيدار مطلع الألف الأول قبل الميلاد، في واحة العلا بشمال غرب العربية عندما بدأت تتحول من نظام المشيخة إلى دولة مدنية ذات مؤسسات حضرية. وقد كان هذا التطور مواكباً للحضور الفعال للددانيين في النظام التجاري للجزيرة العربية، وسيطرتهم على الطريق التجاري المعروف بطريق البخور الذي يمر من أراضيهم. ونظراً لوقوع المدينة على مجرى وادي العلا الغزير المياه في منطقة خصبة التربة، فقد تحولت إلى مجتمع زراعي منتج لعدد متنوع من المحاصيل الزراعية. ساعد على ذلك إتقان أهلها لنظم ري عملوا من خلالها على رفع المياه الجوفية من الآبار العميقة، وتوصيلها عبر القنوات إلى الحقول المحيطة بهم. ونظراً لوقوعها على هضبة مرتفعة عن سطح البحر، فقد تميزت بمناخ معتدل أقرب إلى المناخ المتوسطي.

لم يرد ذكر ددان في السجلات الآشورية، ولكن بما أن مثل هذه المملكة ذات الشأن لا يمكن أن تكون قد عاشت في معزل عما كان يجري حولها، فإني أرجح أن أي ملك ورد ذكره في السجلات الآشورية (أو ملكه) بصفة ملك العرب دون الإشارة إلى موطنه، يمكن أن يكون من ددان. وبالمقابل فقد تكرر ذكر ددان ودورها التجاري المميز في كتاب التوراة، فالددانيون من نسل المدعو ددان ابن يقشان ابن إبراهيم من زوجته الأخيرة قطورة (التكوين 25: 2-3). ويتحدث سفر أشعيا عن قوافلهم العابرة للصحارى: «في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين، هاتوا ماءً لملاقاة العطشان» أشعيا 21: 12-13. ويخبرنا سفر حزقيال عن تجارتهم مع مدينة صور أهم الموانىء في ذلك الزمن على البحر المتوسط: «بنو ددان تجارك، جزائر كثيرة تجار لديك، أدوا هديتك قروناً من العاج والأبنوس» حزقيال 27: 15.

عاشت ددان حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد، ثم خضعت لسلطة القبائل اللحيانية التي كان نفوذها يتزايد في المنطقة، وخلفتها مملكة لحيان التي

قامت على أراضيها، ثم مدت نفوذها شرقاً إلى تيماء وغرباً إلى خليج العقبة الذي دعي في المصادر الكلاسيكية بخليج لحيان.

تزامن نشوء مملكة لحيان مع بداية العصر الفارسي في المنطقة عقب دخول الملك قورش مدينة بابل وإنهائه لعصر المملكة البابلية الجديدة عام 539ق.م، ووراثته لأملاكها في وادي الرافدين وسوريا ومصر. وقد تميز العصر الفارسي بالسلم الذي حل في جميع أرجاء إمبراطوريتها، بسبب السياسة الحكيمة لملوكها الذين منحوا الشعوب الخاضعة لهم حكماً لا مركزياً ساعد على ازدهارها، وعدم حدوث ثورات على حكمهم كما كان الحال أيام حكم الآشوريين، وهذا ما ساعد ملوك لحيان على بناء دولتهم بهدوء وسلام. وتشهد التنقيبات الأثرية التي تجري في موقع ددان منذ عام 2010 بإشراف الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، التي كشفت عن المعبد والقصر الملكي والسور الخارجي، عن مدى التقدم الحضاري الذي حققته هذه المملكة لاسيما في مجال الفنون المتنوعة مثل الفخاريات والأدوات الحجرية وأعمال النحت.

وأكثر ما يلفت نظرنا في الآثار الفنية اللحيانية تلك التماثيل الحجرية الضخمة التي وجدت في منطقة المعبد بطول يتراوح بين المترين والثلاثة أمتار، لرجال في عري نصفي يرتدون مآزر تستر ما بين السرة والركبة، كانت مثبتة على مصاطب حجرية، عشرة منها في وضع سليم نسبياً ونحو عشرة أخرى متشظية، نُحتت على مدى قرنين من الزمان بين القرن الخامس والقرن الثالث قبل الميلاد. وهي على الأغلب تماثيل لملوك لحيان لأن اثنين منها حملا على القاعدة اسمين لملكين لحيانيين حكما خلال النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. أما عن سبب وجودها في منطقة المعبد، فلأنها نوع من النذر الطقسي يأمل صاحبه منه الحصول على السلامة من الآلهة، والنعمة والحظ السعيد. وقد نحتت هذه التماثيل في وضعية الوقوف والذراعان مضمومتان على جانبي الجسم، بنسب تشريحية دقيقة مع إبراز تفاصيل عظام الترقوة وعضلات الصدر والبطن والكتف

والذراعين. أي إننا هنا أمام ثقافة احتفت، مثل الإغريق، بجمال الجسد الإنساني. وعلى الرغم من تأثر هذه المنحوتات بالفن المصري في صناعة الجسد والفن الرافديني في صناعة الوجه، إلا أنها بشكل عام تعبر عن مدرسة عربية وُجدت نماذج أخرى منها في شمال غرب العربية لاسيما في تيماء[1].

تيماء :

تقع تيماء[2] في الشمال الغربي من بادية نجد، على مسافة 150كم إلى الشمال الغربي من العلا (=ددان)، وقد تم العثور في الموقع على آثار سكن تمتد من العصر الحجري إلى أواخر العصر البرونزي. ويبدو أنها تحولت إلى محطة للقوافل التجارية مع مطلع عصر الحديد (1200-1000ق.م) لأن المنقبين عثروا فيها على نقش كتابي هيروغليفي يذكر الفرعون رمسيس الثالث (1186-1155). وقد توصل الآثاريون السعوديون من خلال أبحاثهم إلى العثور على آثار تدل على وجود طريق تجاري يربط وادي النيل بتيماء تسير عليه القوافل التجارية المصرية لنقل البضائع من تيماء. كما كشفوا عن سور ضخم يحيط بالمدينة ارتفاعه 10 أمتار، وقصرين ملكيين.

لا يبدو أن تيماء قد شاركت في الصراع العربي الآشوري، لأن الإشارة إليها في السجلات الآشورية منذ عصر تغلات فلاصر الثالث تدل على دفعها الجزية لآشور وبشكل سلمي على ما يبدو[3]. إلا أن شهرتها جاءت من تحولها إلى عاصمة ثانية للمملكة البابلية الحديثة، عندما أقام فيها نابونيد الملك (555-539ق.م) العاهل السادس في الأسرة الكلدانية التي أسست هذه المملكة، بعد أن قضى ملكها الأول على آشور بالتعاون مع مملكة ميديا الإيرانية عام 612ق.م.

---

(1) كنوز أثرية من ددان، مجموعة من الآثاريين، تحرير د. سعيد بن فايز السعيد، والدكتور عبد العزيز بن سعود الغزي، الرياض 2014.

(2) راجع موضوع تيماء على موقع Wikipedia على الأنترنت.

(3) James Pritchard, Ancient Neur Eastern Text, P. 283-284.

ولدينا نصان لنابونيد يتحدث فيهما عن تركه لبابل وتوجهه إلى تيماء التي استولى عليها بالقوة وقتل ملكها وأقام فيها مع قواته مدة عشر سنوات[1]. ويبدو أنه تـرك شؤون بابل ليديرها ولي عهده.

مملكة كندة :

نشأت هذه المملكة في نجد وهي هضبة واسعة تشغل نحو 480.000كم2 من مساحة شبه الجزيرة العربية، وترتفع بـين 700 و1000م عـن سـطح البحـر، وكانت عبر تاريخها موئلاً لقبائل عربية عديـدة. ابتـدأت كنـدة عهـدها كمحطة قوافل في موقع قرية الفاو الحديثة عند الطرف الجنوبي الغربي مـن نجـد، علـى الحافة الشمالية الغربية للربع الخالي، أقامتها مملكة سـبأ اليمنيـة لتـأمين طريـق التجارة الدولي الصاعد من اليمن إلى نجـران، ثم إلى الفـاو فاليمامـة، وبعـدها يتجه شرقاً نحو الخليج فشمالاً إلى مصب النهرين الكبيرين دجلـة والفـرات. في سياق القرن الرابع قبل الميلاد، تحولت الفاو إلى عاصمة لمملكة ناهضة ودعيت ذات كهل نسبة إلى إلهها الرئيسي كهل، ونظراً لوقوعها قـرب وادٍ يفـيض بمائـة دورياً فقد نشطت فيهـا الزراعـة، وعمـد أهلـها إلى حفـر آبـار عميقـة اكتشـف المنقبون منها 18 بئراً، فأفاضت أراضيهم عدداً متنوعاً من الحبـوب والخضـار، والفواكه لاسيما العنب.

يعتبر موقع الفاو أكبر المواقع التي اكتشفت حـتى الآن في العربيـة، وهـو يشتمل على الأقسام التالية:

1- السوق: وهو تجمع ضخم لمجموعة من المحلات التجارية يحيط بهـا سور سميك يعلوه سبعة أبراج.

2- القصر: ويتكون من غرف وصالات وأروقة مبنية بالحجر ومطليـة مـن الداخل بطبقة جصية صورت عليها مشاهد طبيعية ملونة.

---

(1) المرجع نفسه ص313 و562.

3- المعبد: وهو أول معبد قديم يُكشف عنه في الغربية، وقد عُثر في داخله على عدد من التماثيل البرونزية أعطتنا معلومات قيّمة عن معبودات كندة، وجلها من الآلهة العربية المعروفة مثل عثتر ومناة واللات وإل وأشرق وشمس.

4- المقابر: وهي على ثلاثة أنواع، فهناك مقابر للملوك وأقدمها يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وهي على شكل غرف مبنية بالحجر تحت الأرض يتم الوصول إليها بدرج، وفوق الغرفة فناء لأداء الطقوس. وهناك مقابر للنبلاء أصغر من مقابر الملوك، ومقابر للعامة.

5- المنطقة السكنية التي تخترقها شبكة من الطرق ومجاري مياه نظيفة لاستخدام السكان.

فنون كندة:

على سفوح الجبال القريبة من الفاو نقش الفنان الكندي على الصخور مشاهد لحيوانات متنوعة، وعلى صخرة ضخمة مطلة على المدينة نقش صورة بارتفاع عشرة أمتار للإله كهل ممسكاً برمح ومتمنطقاً بسيف. وعلى الطبقة الجصية التي تغطي جدران القصر الملكي وجدران البيوت الفارهة رسم الفنان مشاهد ملونة مستمدة من حياة الطبيعة ونزهات الصيد، وأسماك تسبح في الماء، وزخارف نباتية يشيع فيها استخدام عناقيد العنب كوحدة تزيينية. كما تم العثور داخل المعبد وخارجه على عدد من التماثيل الكاملة لأشكال آدمية أو حيوانية مصنوعة من المعدن أو الحجر الجيري أو الرخام. واستخدم الفنان مادة العظم والعاج المطعم على الخشب أو المواد الأخرى، وجعلها زينة للأثاث ومقابض السيوف. وتدلنا الرسوم التي تمثل آدميين بكامل لباسهم على مدى تقدم صناعة المنسوجات. كما أنتج الخزاف الكندي نماذج فخارية وخزفية غاية في الجمال وإتقان الصنعة. وتدل قطع الزينة وقوارير العطور التي وجدت في البيوت على الحياة المترفة التي عاشها الكنديون.

ومن النقوش الكتابية التي وجدت في الموقع نعرف أن ثقافة كندة كانت ثقافة كتابة، فقد كتبوا على الحجر والعظام والرق بالخط اليمني المعروف بالمسند، وكانت لغتهم مزيجاً من العربية الشمالية والعربية الجنوبية. ومن الطريف أن كل ما أوردناه هنا لم يعرفه المؤرخون العرب، وكانت العاصمة ذات كهل مجهولة لديهم، وأبكر ما عرفوه عن كندة يرجع إلى عصر الملك حجر أكل المرار (450-475م).

عاشت مملكة كندة حتى أوائل القرن السادس الميلادي، عندما ثارت قبيلة أسد على آخر ملوكها الحارث بن عمرو وقتلته عام 528م وفق رواية المؤرخين العرب، وعندما لم يفلح ابنه امرؤ القيس في استعادة التاج تفككت المملكة ثم آلت إلى سلطة مملكة حمير الجنوبية[1].

ممالك عرب بلاد الشام :

خلال حياة هذه الممالك العربية في وسط وشمال غرب شبه الجزيرة العربية، لم تنقطع حركة تجوال القبائل العربية بين مواطنهم وبلاد الشام التي كانوا يرعون فيها قطعانهم، وبينما بقي بعضهم على حال الترحال، فقد استقر بعضهم الآخر وتحولوا إلى حياة الحضر، وأنشؤوا ممالك قوية أدت دوراً مهماً على الساحة الإقليمية والدولية، ودخلوا في نسيج التكوين الإثني لأهل الشام.

1- مملكة الأنباط :

ظهر الأنباط في مناطق مملكة آدوم القديمة بين البحر الميت وخليج العقبة خلال القرن الرابع قبل الميلاد، وهي المناطق التي تقع اليوم بين المملكة

---

(1) لمزيد من المعلومات عن كندة، راجع:

- عبد الرحمن الطيب الأنصاري، قرية الفاو، جامعة الرياض 1402هـ.
- مروان صالح شعيب. دولة كندة، نشأتها وتطورها، جامعة أم القرى، 1426/2005.

الأردنية وفلسطين. أما موطنهم الأصلي. ومنشؤهم القبلي فلا نعرف عنـه شـيئاً. لاسيما وأن المؤرخين العرب في العصر العباسي لم يسمعوا بهم ولا بمملكتـهم التي أدت دوراً هاماً في تاريخ العربية وبلاد الشام منذ القرن الثـاني قبـل المـيلاد إلى القرن الثاني الميلادي.

أول خبر تاريخي عن الأنباط يرجع إلى عام 311ق.م، عندما شـن علـيهم آنتيغونوس الأول (وهو أحد قادة الإسكندر؛ ورث حكم المنطقة الآسيوية لفترة قصيرة من الزمن) حملة لم تكلل بالنجاح، فأعاد الكرة في العام التالي ولكنه مني بالفشل أيضاً. ونعرف من أخبار هاتين الحملـتين، ومما كتبـه المـؤرخ اليونـاني ديودور الصقلي عن بدايات الأنباط، أنهم لا يبذرون حباً ولا يغرسون شجراً ولا يشيدون بيوتاً، لأن من تملك شيئاً ضعفت فيـه روح الحريـة، وقبـل مـن أجـل الحفاظ على ممتلكاته سيطرة الأقوياء. ولكنـهم لم يقتصـروا علـى حيـاة الرعـي وإنما أقبلوا على حياة التجارة واغتنوا منها، ولذلك يقول ديودور الصقلي: «ثمة قبائل عربية تتخذ من الصحراء مرعى لقطعانها، ولكن الأنبـاط يفوقـون الجميـع بثرائهم». وقد كان مقرهم في موضع يقال له الصخرة (= Petra باليونانيـة) وهـو موقع حصين بين صخور وادي موسى في وادي عربة علـى الطريـق الصـحراوي بين مدينة عمان وخليج العقبة. ويبدو أنهـم ابتـدؤوا كوسـطاء تجـاريين ينقلـون السلع لحساب غيرهم ثم تحولوا إلى تجار يعملون لحساب أنفسـهم. وفي سـياق القرن الثاني قبل الميلاد أحكموا قبضتهم على طـرق التجـارة في شمـال العربيـة والجنوب السوري، كما استولوا على تجارة البحر الأحمر.

ولكن الثروة تحقق التقدم في شتى مناحي الحيـاة، فمـا إن حـل القـرن الثاني قبل الميلاد حتى برع الأنباط بالزراعـة واسـتعملوا تكنولوجيـا متقدمـة للري وجرّ المياه إلى عاصمتهم، وبرعوا في العمارة والفنون البصرية من نحت ورسم، ووضعوا نظماً إدارية متطورة لإدارة مملكتهم التي توسعت في العهد الملكي من مدينة بصرى شمالاً إلى الحجر (مدائن صالح) في الحجاز جنوباً، ومن واحة الجوف (بوادي سرحان في شمال وسط العربية) شرقاً إلى حـدود

سيناء مع مصر غرباً. وتدلنا النقوش الكتابية التي وجدت في مناطقهم وخارجها، على أنهم تحدثوا بعربية تشبه عربية الممالك التي نشأت في شمال غرب جزيرة العرب وبلاد الشام، ولكنهم كتبوها بخط آرامي معدَّل، كما يشتركون معهم بأسماء الأعلام مثل الحارثة وعبيدة ومالك، وكذلك بأسماء الآلهة المعبودة مثل اللات والعزى ومناة وشيّع القوم، وذو الشرى المعبود الرئيسي لديهم.

عندما دخل الرومان سورية بقيادة الجنرال بومبي عام 64ق.م، قام بومبي بإعادة تنظيمها إلى ولايات جديدة وعزم على غزو بلاد الأنباط، ولكن القلاقل السياسية في روما اضطرته للعودة إلى روما وترك التعامل مع الأنباط لخليفته سقاوروس الذي جهز الحملة ووصل إلى بترا وحاصرها، ولما نفدت مؤونته من القمح وعضت المجاعة جيشه، عرض عليه ملك الأنباط الحارثة الثالث أن يدفع له مبلغاً من المال ليرتدَّ عن عاصمته، فوافق سقاوروس وارتد عائداً إلى دمشق. وقد رسمت هذه الحملة شكل العلاقة بين روما والمملكة النبطية التي حافظت على استقلالها تحت السلطة الإمبراطورية.

ابتدأ العصر الملكي للدولة النبطية مع مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، وأول ملك موثق لدينا تاريخياً من عام 169ق.م هو الحارثة الأول، وخلال القرن الأول قبل الميلاد اكتملت كل المظاهر الحضارية في مواقعها الرئيسية، لاسيما في البتراء التي شيدت فيها الأسواق والقصور والمعابد بأسلوب نبطي متأثر بالأساليب المعمارية الكلاسيكية، وكذلك في بصرى التي صارت عاصمة ثانية في أواخر العصر الملكي. وقد دامت هذه المملكة حاضرة بقوة على المسرح السياسي للمنطقة قرابة قرنين ونصف، إلى أن قرر الإمبراطور تراجان إلحاقها بالنظام الإداري للمنطقة الشرقية من الإمبراطورية، وأمر قائده العسكري كورنيليوس بالما بالاستيلاء على البتراء عام 106 للميلاد، وضمها إلى ما دُعي في التنظيم الجديد بالولاية العربية، التي اشتملت في معظمها على مناطق نفوذ المملكة النبطية، وجعل من مدينة بصرى عاصمة لهذه الولاية. ومنذ ذلك الوقت

أخذت بصرى بالازدهار والبتراء في الأفول تدريجياً. وعندما حل القرن السادس الميلادي لم تعد البتراء مدينة مسكونة[1].

2- دولة الغساسنة :

الغساسنة هم بطون من الأزد الذين كانت مساكنهم باليمن، ثم تفرقوا بين العربية والشام، أما عن تسميتهم بالغساسنة فالرأي الشائع أنهم أقاموا عند ماء يدعى غسان فنسبوا إليه. كما عُرف هؤلاء بآل جفنة نسبة إلى جدهم الأعلى كما يقولون. وقد استقر الغساسنة في بادية الشام وبسطوا سلطتهم على مناطق واسعة منها، وأول أمير غساني موثق لدينا هو جفنة بن الحارث، الذي قدم عدة خدمات عسكرية لبيزنطة منها قيادته لحملة على فلسطين نحو عام 500م لإخماد إحدى ثورات اليهود السامريين، فعقد معه الإمبراطور انستاسبوس الأول معاهدة دفاع مشترك ووضع له جراية مالية سنوية لقاء خدماته.

لقد كان وجود القبائل الرعوية العربية في الشام مصدر قلق للسلطة الرومانية، فهذه الجماعات لم تتعود الخضوع لسلطة مركزية، ولا يمكن التنبؤ بسلوكها لاسيما في حال الحرب أو المواسم العجفاء، فكان لابد من تنظيم وجودها والتعامل معها كمجموعة تخضع لقيادة واحدة بدلاً من التعامل مع مجموعات متفرقة. ولذلك فقد أطلق الإمبراطور جوستيان (527-565م) يد الأمير الحارث ابن جفنة في بسط سلطته على الوجود العربي في المنطقة، بعد أن قدم له مساعدة جلى في حملته على تمرد آخر للسامريين في فلسطين، كما

---

(1) للاستزادة راجع:

- إحسان عباس، تاريخ دولة الأنباط، دار شروق، عمام 1987.

- Joseph Patrich, The Formation of the Nabatian Art, Magnes Press, The Hebrew University, Jerusalem, 1990, ch.1

راجع بشكل خاص الصفحات 28 و29 من كتاب Patrich حيث يلخص المؤلف نتائج التنقيب الأثري التي تثبت نهاية البتراء في سياق القرن السادس الميلادي وقبل ظهور الإسلام.

شارك في التصدي لتعديات الفرس على حدوده، فامتدت دولة الحارث من نهر الأردن في الجنوب إلى قنسرين في الشمال، وأنعم عليه الإمبراطور بلقب فيلاخ الذي تسمى به بقية أمراء غسان، ويعني الشيخ الأعلى الذي يحكم على عدة شيوخ. ولكن المصادر السريانية دعت هؤلاء ملوكاً. وقد تنصر الحارث واعتنق المسيحية على المذهب الميتوفيري (=الطبيعة الواحدة) وتنصر معه أفراد القبيلة.

لم تكن دولة الغساسنة دولة بالمعنى الحقيقي للكلمة، فأمراؤها لم يكن لديهم مؤسسات الدولة المعروفة، ولم يبنوا لأنفسهم عاصمة، بل أقاموا في مدن عدة منها بصرى والجابية، كما كانت سلطتهم على المناطق والعشائر تتسع وتتقلص تبعاً للظروف السياسية، وكان لوجود المناذرة حكام دولة الحيرة على حدودهم والصراع الدائم بينهم دور في رسم مناطق النفوذ بين الطرفين. كان جبلة بن الأيهم آخر أمراء غسان، وقد قاتل إلى جانب الروم ضد العرب المسلمين في معركة اليرموك سنة 13هـ/ 636م ثم اعتنق الإسلام من أجل الحفاظ على مركزه السياسي، ثم ارتد وهرب إلى القسطنطينية عندما أدرك استحالة مراده[1].

3- دولة الحيرة :

تقع مدينة الحيرة على الضفة الغربية للمجرى الجنوبي لنهر الفرات، وتبعد مسافة 15كم إلى الجنوب الغربي من مدينة الكوفة، ونحو 10كم إلى الجنوب الغربي من مدينة النجف. وقد قيل في أصل اسمها أقوال شتى ولكن الأرجح أنه مشتق من الكلمة الآرامية حارتا التي تعني المعسكر. لم تكن موقعاً ذا شأن قبل أن يستوطن فيها اللخميون في سياق القرن الثالث الميلادي. وهم فرع من التنوخين ينتمون إلى عرب الجنوب أخذوا بالانتشار في بلاد الشام خلال القرون

---

(1) أحمد حسن الجميلي، العلاقات الخارجية لدولة الغساسنة، جامعة الأنبار 2016:
- حنان قرقوتي، تاريخ مملكة الغساسنة، دار النفائس بيروت 2019.
- تيسير خلف، كنيسة العرب المنسية- أديرة الغساسنة، دار التكوين، دمشق 2008.

الأولى من العصر الميلادي. وقد شكل اللخميون إمارة صغيرة لهم تحولت في زمن قصير إلى مملكة قوية دعي ملوكها بآل لخم أو آل نصر، أو المناذرة لشيوع اسم المنذر بينهم. يُعتبر عمرو بن عدي المؤسس لدولة اللخميين وإليه ينتسب بقية ملوك الحيرة، وبعد وفاته خلفه ابنه امرؤ القيس الأول الذي تحول إلى المسيحية على المذهب النسطوري، ويُعدّ النعمان بن امرئ القيس أشهر ملوك الحيرة والذي دعيت المدينة باسمه فقيل حيرة النعمان. وفي عهده شهدت الدولة ازدهاراً غير مسبوق ونهضة عمرانية أنتجت أهم القصور والمعالم المعمارية للمدينة، وكان لكتائبه العسكرية شهرة عند خصومه وعرفت بشدة البطش. وفي عهده توسعت المملكة وامتدت مناطق نفوذها من أواسط الفرات عند مدينة دير الزور الحالية شمالاً إلى شواطئ الخليج العربي جنوباً، وامتدت شرقاً إلى أواسط بادية الشام عند حدود نفوذ مملكة الغساسنة. ونظراً لوقوعها على أراض تسيطر عليها الإمبراطورية الفارسية، وقربها من عاصمتهم الثانية طيسفون التي بنوها على الضفة الشرقية لنهر الدجلة غير بعيد عن بغداد، فقد وقعت الحيرة منذ نشأتها تحت النفوذ الفارسي، وجعل منها الملوك الفرس دولة حاجزة بينهم وبين الروم، وأفادوا من بأس كتائبهم العسكرية في حروبهم معهم. كما دخل المناذرة والغساسنة عبر تاريخ دولتيهما في صراع دموي لم يهدأ أواره.

عمل أهل الحيرة في الزراعة وأنتجوا غلالاً متنوعة وفيرة، نظراً لوقوع أراضيهم في منطقة خصبة ترويها جداول وفروع من نهر الفرات. كما عملوا في الصناعة لاسيما صناعة الأدوات الحديدية، وأدوات الحرب كالسيوف والسهام والحراب، وصناعة النسيج المصنوع من الكتان والحرير والصوف، وبرعوا في فنون العمارة التي تجلت في القصور الملكية والأديرة والكنائس. وقد دخل الطراز المعماري الحيري في العمارة الإسلامية. وكان لكتائبهم الحربية حصون يقيمون فيها تدعى المسالح. وقد بنى خلفاء بني العباس قصورهم على الطراز الحيري الذي كان له الأثر البالغ على العمارة الإسلامية. وتجلى ذوقهم الفني الرفيع في التحف وقطع الزينة المصنوعة من العاج، وفي الرسوم الجدارية التي

تستلهم مشاهدها من الطبيعة. وبرع حكماؤها بالطب، ومنها خرج الطبيب المشهور حنين بن إسحاق الذي ذاع صيته في العصر العباسي، وكان أبوه إسحاق خبيراً في صناعة وتركيب الأدوية.

وفي مجال آخر، فقد صارت الحيرة مركزاً لنشر المسيحية في المنطقة يقصدها من يرغب في التفقه بأمور الدين، وشيدت فيها الكنائس وأهما كنيسة الباعوتة المركز الديني الرئيسي، وكذلك الأديرة التي بلغ عددها في مناطق الدولة نحو 28 ديراً، منها دير هند الكبرى بنت الحارث بن عمرو الكندي، ودير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر. وقد اشتهر بلاط الحيرة وضاهى بلاط كبار الملوك في ذلك الحين لاسيما في عصر النعمان بن المنذر (ت عام 602م) الذي كان محباً للثقافة والفنون، واستقبل في قصره عدداً من كبار شعراء العرب المعروفين. وبعد وفاة النعمان أنهى الفرس استقلال الحيرة، وبعد نحو عقدين من السنين وصلت قوات العرب المسلمين إلى المنطقة، وسقطت الحيرة صلحاً، وبذلك انتهى الوجود السياسي للمملكة[1].

4- مملكة الحضر :

تقع مدينة الحضر في أقصى الشمال العراقي على مسافة 110كم إلى الجنوب الغربي من مدينة الموصل، ولم تكن موقعاً ذا شأن قبل أن يستقر بها في سياق القرن الثاني قبل الميلاد آل نصر، وهم جماعة عربية تنتمي إلى قبيلة هوازن ذات الشأن في جزيرة العرب. وقد بدأ الموقع يتخذ أهميته من عاملين؛ الأول: إن آل نصر جعلوا فيه مقاماً دينياً لإله الشمس المعبود لدى معظم عرب بلاد الشام، فصار هذا المقام محجة تقصدها الجماعات العربية المتجولة في

---

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلا، الجزء 5 الفصل 38، جامعة بغداد:
- يوسف غنيمة، الحيرة- المدينة والمملكة العربية، مطبعة دلور. بغداد.
- قيس الظالمي، مملكة الحيرة، دار صفحات، دمشق.
- الأب سهيل قاشا، صفحات من تاريخ المسلمين العرب، المكتبة البولسية 2005.

المنطقة، والثاني مشاركة آل نصر في الدفاع عن حدود الإمبراطورية الفرثية في إيران، وإبلاؤهم في ذلك بلاء حسناً. يضاف إلى ذلك وقوع الحضر على طريق تجاري يصل وادي الرافدين ببلاد الشام، فصارت محطة للقوافل. وعلى الرغم من أن الزراعة لم تكن عنصراً مهماً في اقتصاد المدينة لعدم خصوبة أرضها وشح المطر فيها، إلا أن التوسع الذي حققته بعد ذلك نحو الغرب في عمق الجزيرة الفراتية حيث تكثر الأمطار أكسبها أراضي زراعية خصبة.

مرت الحضر بثلاثة أطوار سياسية في تاريخها؛ الأول طور التكوين عندما كانت تُحكم من قبل عدة شيوخ لكل بطن شيخ، وخلال هذه الفترة بدأت معالم المدينة العمرانية بالظهور. والثاني طور السادة الذين حملوا لقب مرنا أي السيد أو الأمير، عندما تجمعت السلطة السياسية بيد زعيم واحد. وقد حصل ذلك في سياق القرن الثاني قبل الميلاد لأن أول معبد شيد في المدينة يرجع إلى ذلك الزمن، ومثل هذه المشاريع العامة لا تتم إلا بوجود سلطة مركزية قادرة على تنفيذها، والثالث طور الملوكية عندما لبس الأمير التاج وأطلق على نفسه لقب ملك العرب.

وقد كشفت التنقيبات الأثرية الحديثة عن معظم أوابد الموقع؛ فهنالك سور مزدوج يحيط بالمدينة يتكون من جدارين تفصل بينهما مسافة 12 متراً، وهما مدعمان بأبراج عددها 163 برجاً. وللسور أربع بوابات تمتد منها أربعة شوارع إلى وسط المدينة حيث المعبد الكبير الذي بني في موقع المقام الديني القديم لإله الشمس، ثم أجريت عليه إضافات وتوسيعات حتى اشتمل على ستة مصليات أو معابد صغيرة للآلهة الأخرى المعبودة في الحضر. وقد بني المعبد بالحجارة الضخمة وبأسلوب معماري محلي متأثر بالأسلوب اليوناني، فجمع بين القناطر الشرقية والأعمدة اليونانية، وزينت جدرانه الخارجية بمنحوتات بارزة، كما أحيط بسور مستطيل طول ضلعيه 400 × 300م. وقد تم الكشف عن 11 معبداً أصغر منه موزعة في أرجاء المدينة.

انتجت الحضر ثقافة كوزموبوليتانية تلاقحت فيها الثقافة العربية مع ثقافة الشرق القديم والثقافة اليونانية والرومانية، وكانت ديانتها ديانة توفيقية جمعت بين عبادة آلهة الحضر وآلهة بابل وآشور والشام والآلهة اليونانية. ويتجلى ذلك بشكل خاص في الفنون البصرية لاسيما المنحوتات؛ فقد عُثر في معابد الحضر على عشرات التماثيل التي يجسد بعضها الملوك والنبلاء والكهنة، .ويجسد بعضها الآخر شخصيا ميثولوجية، إما بالحجم الطبيعي أو بأحجام متفاوتة في الطول. فإلى جانب الثالوث الإلهي الحضري مرن (الشمس) وزوجته مرتن وابنهما برمرين، نجد تماثيل لآلهة تقليدية عربية مثل اللات، وأخرى لآلهة سورية مثل عترتا (سليلة الإلهتين عناة وأستارت/عشترة) وبعل شمين (أي بعل/سماوي)، وآلهة آشورية/بابلية مثل نرجال إله العالم الأسفل. وهنالك تماثيل لعدد كبير من الآلهة اليونانية/الرومانية وبعضها في هيئة عارية، مثل هرقل، وأبولو، وهرمز، وبوسيدون، وفينوس، ونايكه، وميدوزا. وقد كانت الآرامية لغة الثقافة في المملكة، وبها دونت كل النقوش المكتشفة. وفي المجال العسكري كانت مدينة الحضر الأقوى تحصيناً بين مدن المشرق في ذلك العصر، واشتهرت كتائبها بالبأس والبطش، وقد فشل اثنان من أشهر أباطرة الروم في حصارها وارتدا خائبين عن أسوارها هما تراجان عام 116م وسبتيموس، سيفيروس عام 199م.

خلال عصر الملوكية عندما بلغت الحضر ذروة تقدمها المدني والحضاري ووصل نفوذها غرباً إلى نهر الخابور، صارت سيدة قرارها السياسي والعسكري، ولم يعد ولاؤها لبارثيا أمراً مفروغاً منه، حتى إنها مالت أحياناً إلى روما. وعندما قام أردشير (الأول) حاكم إقليم فارس بالتمرد على السلطة البارثية في ثلاث معارك فاصلة وأعلن نفسه حاكماً على البلاد كأول ملك في الأسرة الساسانية الجديدة، عام 226م لم تعطه الحضر ولاءها. وبعد اثني عشر عاماً قرر الملك الساساني شابور الأول التخلص من دولة حدودية قوية صارت ميالة

لأعدائه التاريخيين، فحاصرها مدة سنة ثم دخلها منتصراً وكانت هذه بداية النهاية للحضر التي بدأت تذوي تدريجياً[1].

5- تدمر :

تقع تدمر وسط بادية الشام في واحة خصبة تشكلت حول نبع عذب غزير المياه، ونبع آخر يفيض بالمياه الكبريتية، على الطريق الواصل بين وادي الرافدين ومدن ومرافئ الشام. وقد نشأت في هذه الواحة محطة لاستراحة القوافل تزودها بالماء كان سكانها من الآراميين. ويبدو أن قبيلة عربية انضمت إليهم، على ما نفهم من خبر سلوقي يذكر تلقيهم عوناً عسكرياً من شيخ هذه القبيلة ويدعى زبدي بل، وهو اسم علم تدمري موثق لدينا في الفترات اللاحقة. وقد اندمج هؤلاء العرب في النسيج الاثني للمكان وراحوا يتكلمون الآرامية ولكنهم احتفظوا بخصوصيتهم على ما تدلنا عليه أسماء العلم في التدمرية التي كانت إما من جذر آرامي أو من جذر عربي، كما أن الآرامية التدمرية التي بقيت لغة المدينة طيلة حياتها، تبدي لدارسها وجود مؤثرات قوية للغة العربية تتبدى في المفردات والصيغ اللغوية.

خلال العصر السلوقي (312-64ق.م) الذي تلا فتوحات الإسكندر تحولت تدمر إلى موقع ذي أهمية بتأثيرات ثقافية بارثية وأخرى يونانية، وفي سياق القرن الأول الميلادي تحولت إلى مدينة على الطراز اليوناني (=Polis) يحكمها أمير بمعونة مجلس للشيوخ (= Senators)، وإلى عاصمة لدولة مستقلة. وخلال هذه المرحلة اكتملت البنى المعمارية الضخمة للمدينة: معبد بل الذي يعد واحداً من أكبر المعابد في آسيا الغربية، والشارع المعمد، والمدرج الروماني، والاغورا، وغيرها. وعندما آلت سورية إلى السلطة الرومانية عام 64ق.م حافت تدمر على

(1) للاستزادة راجع:

الحضر مدينة الشمس، فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، مديرية الآثار العامة، بغداد 1976.

استقلالها، وهذا ما يفسر الحملة التي وجهها أنطونيو ضدها، وهو أحد المتنازعين على عرش روما خلال فترة الاضطرابات التي سارت بعد اغتيال يوليوس قيصر عام 44 ق.م، ولكن الحملة باءت بالفشل عندما أفرغ التدمريون مدينتهم وحملوا ثرواتهم معهم ولجؤوا إلى أراضي البارثيين.

على أن تدمر قبلت الوصاية الرومانية مطلع القرن الأول الميلادي، عندماوجدت أن مصالحها الاقتصادية صارت متشابكة مع مصالح الاقتصاد الروماني، الذي أصبح مسيطراً على الطرق التجارية في المنطقة وموانئها في سورية ومصر وآسيا الصغرى. وقد كان الإمبراطور تراجان (98-117م) أول من وضع حامية عسكرية رومانية في تدمر، وشكل فرقة عسكرية تدمرية في الجيش الروماني. وكان من نتائج العون العسكري الذي قدمته تدمر لروما في حملاتها الخارجية والداخلية، لاسيما إخمادها للثورة اليهودية في أورشليم عام 135م، أن الإمبراطور هادريان (الذي هدم أورشليم وسواها بالتراب وأنهى الوجود اليهودي في فلسطين) منح تدمر لقب المدينة الحرة، بما يتضمنه هذا اللقب من استقلال وحرية تامة في إدارة شؤونها. وقد ترافق ذلك مع أفول البتراء عندما أنهت روما استقلالها عام 106م وجعلت منها ولاية رومانية، فصارت تدمر سيدة كل الطرق التجارية في المنطقة. وفي عام 212م أنعم الإمبراطور كركلا على تدمر بلقب المدينة الرومانية، أي أنه جعلها مساوية لروما ومعفية من دفع الضرائب لها. وكانت سلطة تدمر في ذلك الحين قد اشتملت على بادية الشام مع توسعات داخل الجزيرة الفراتية، وكانت مدينة دورا أوروبوس (= صالحية الفرات) قرب دير الزور الحالية مرفأ لها على نهر الفرات.

لقد جعل الازدهار الاقتصادي من تدمر واحدة من أهم مدن العالم القديم، وبلغت في الثراء مبلغ البتراء بل وزادت عليه. وانعكس ذلك على الحياة الرغيدة التي عاشها أهلها، وعلى فنونهم في العمارة والنحت والرسم وقطع الزينة، وهذه الآثار نجدها موزعة اليوم على متاحف العالم، في متحف اللوفر

والمتحف البريطاني والارميتاج والميتروبوليتان وبرلين، إضافة إلى متحف دمشق ومتحف تدمر.

عندما آلت السلطة في تدمر إلى الأمير أذينة، قام بتأدية خدمات عسكرية جلى لروما في صراعها مع الفرس ورثة البارثيين في إيران، حتى إنه طرق أسوار عاصمتهم طيسفون على الدجلة مرتين، فأنعم عليه الإمبراطور الروماني بلقب «مصلح الشرق» و«ملك الملوك». توفي أذنية في ظروف غامضة عام 267م فورثته زوجته زنوبيا (=بيت زباي بالتدمرية) كوصية على ابنها القاصر وهب اللات. كانت زنوبيا تطمح إلى تأسيس إمبراطورية شرقية تأخذ دور روما في المنطقة، فقادت بنفسها عدة حملات عسكرية وضمت إلى دولتها بلاد الشام ثم مصر، وضمت بعد ذلك أجزاء واسعة من آسيا الصغرى وصولاً إلى أنقرة الحالية، ويبدو أنها كانت تخطط للتوجه إلى روما لأنها أعطت نفسها لقب الإمبراطورة ولابنها لقب الإمبراطور. وفي هذه الأثناء آلت السلطة في روما إلى الإمبراطور أورليان الذي وضع على رأس أولوياته التخلص من زنوبيا، فتوجه إليها بنفسه على رأس جيش عرمرم وهزمها في معركتين الأولى عند أنطاكية والثانية عند حمص فتراجعت إلى تدمر فحاصرها هناك. ولما يئست من رده عن أسوارها استطاعت الهرب متخفية من أجل طلب عون الفرس، ولكن الرومان قبضوا عليها وهي تحاول عبور الفرات وساقها أورليان أسيرة إلى روما عام 272م حيث عرضها في موكب النصر، ثم أسكنها في قصر تحت الحراسة إلى أن توفيت عام 274. وكانت هذه بداية النهاية لتدمر[1].

(1) للاستزادة:

- الموسوعة البريطانية على الإنترنت: Https//www.britannica.zenobia
- هنري سبرينغ، تدمر والشرق، ترجمة جورج حداد، الحوليات الأثرية السورية، 1951.
- عدنان النبي، تدمر والتدمريون، وزارة الثقافة، دمشق 1979.
- عدنان النبي، الفن التدمري، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق 1963.

6- إيطوريا/Ituria

الإيطوريون جماعة عربية سكنت في سهل البقاع، وهو واد واسع ينبسط بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، ويعتبر من أكثر الأراضي خصوبة في المنطقة اللبنانية، ثم توسع هؤلاء جنوباً نحو الحوض الأعلى لنهر الأردن ومنطقة الجليل، وهم الذين ينسبهم كتاب التوراة إلى يطور ابن إسماعيل (التكوين 25: 15، وأخبار الأيام الأول 1: 31). ورد ذكرها للمرة الأولى في أخبار حملة الإسكندر الكبير على سورية، عندما هاجموا مؤخرة جيشه أثناء حصاره لمدينة صور، ووصفتهم تلك الأخبار بأنهم من أشرس المحاربين الذين واجههم الإسكندر، وبعد ذلك انقطعت أخبارهم حتى عام 115ق.م. خلال العصر السلوقي في سورية عندما حصل أميرهم المدعو منايوس (=معن) على اعتراف الملك السلوقي بسلطته الكاملة على أراضي إيطوريا. وخلال ما تبقى من العصر السلوقي وسع خلفاؤه الذين لقبوا بالملوك سلطتهم حتى صارت مناطق الشام الجنوبية موزعة بينهم وبين مملكة الأنباط. وبعد دخول الرومان إلى سورية عام 64ق.م، وما تبع ذلك من أحداث بعد اغتيال يوليوس قيصر، عينت روما هيرود الكبير ملكاً على فلسطين وسمحت له بتوسيع سلطته في سورية الجنوبية (38-4ق.م) أخذ هيرود بالاستيلاء على مناطق أيطوريا التي زالت في عهده كمملكة[1].

7- مملكة ميسان

نشأت هذه المملكة في جنوب العراق على خليج البصرة في سياق القرن الثاني قبل الميلاد بعد تفكك إمبراطورية الإسكندر المقدوني. ثم امتدت سلطتها حتى جنوب بابل في الوسط، وحتى منطقة عيلام في إيران شرقاً. وكانت

---

(1) للاستزادة:

- الإيطوريون، الموسوعة العربية.
- أ، هـ، م.جونز، مدن بلاد الشام عندما كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس، دار الشروق، عمان.

عاصمتها في خراكس التي تبعد نحو 40كم إلى الشمال من البصرة. وقد كشفت الحفريات الحديثة حتى الآن عن نحو 50 هكتاراً من آثار المدينة التي بنيت على الطراز اليوناني، واشتملت على مناطق سكنية واسعة، وبقايا قصر ملكي تغطي نحو 10.000م2.

نشأت هذه المملكة تحت رعاية الدولة السلوقية في سورية، فكانت بالنسبة إليهم صلة وصل تجارية مع العربية الجنوبية ومع الهند ثم آلت إلى المملكة البارثية.

وعلى الرغم من أن أسماء ملوك ميسان تبدو لنا يونانية، إلا أن الدراسة المدققة لها تشير إلى أصولها العربية، كما هو الحال في أسماء ملوك دولة الأنباط حيث وصلنا اسم الحارثة بصيغة أريتاس، ومعن بصيغة منابوس.

سيطرت ميسان على تجارة المحيط الهندي وبحر العرب، وعاشت كمملكة مستقلة تحت السلطة الإيرانية خلال فترة حكم الأسرة البارثية، إلى أن قام الملك الساساني أردشير بإنهاء حكم البارثيين واحتل خراكس وألحق مملكة ميسان بالإمبراطورية الساسانية عام 222م، وكانت هذه بداية النهاية لهذه المملكة العربية التي ما زالت الأرض تخبئ لنا الكثير من ملامح تاريخها وحضارتها[1].

8- مملكة الرها:

نشأت الرها كمحطة قوافل في شمال وسط الجزيرة الفراتية، على الطريق التجاري الواصل بين الإمبراطورية الفارسية والبحر المتوسط. ثم أقامت بها عشيرة رعوية عربية لسنا متأكدين من نسبها. خلال العصر السلوقي قام الملوك السوريون السلوقيون بتشييد مدينة عامرة في موقعها سكنته جالية يونانية إلى

---

(1) للاستزادة راجع:

- سيف جلال الدين الطائي: تاريخ مملكة ميسان، أشور بانيبال للثقافة بغداد.
- واثق سعيد الصالحي: نشوء وتطور مملكة ميسان، مكتبة الآداب، جامعة بغداد.

جانب العرب. ولكن الرها (أو إديسا) حافظت على طابعها الثقافي السامي من خلال تبنيها للغة والخط الآرامي، وعلى طابعها الإثني العربي من خلال الاسم الآخر الذي أُطلق عليها وهو عربايا أي العربية. وعندما آلت المملكة السلوقية إلى الضعف بسطت الأسرة البارثية في إيران سلطتها على أجزاء جديدة من الشام، ومنها دولة الرها التي بقيت سيدة نفسها وتابعت بسط سلطتها على مناطق جديدة من الجزيرة الفراتية، إلى أن ضمها الإمبراطور الروماني كركلا إلى روما عام 213م. حكم المملكة سلالة تدعيت بالأبجرية نظراً لشيوع اسم الأبجر بين ملوكها، كما هو حال المناذرة في الحيرة. والأبجر كلمة عربية ذات معان متعددة ومنها الشيء العظيم.

مع التقدم في العصر المسيحي وتحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية صارت الرها مركزاً أساسياً للمسيحية السورية، واتصلت بالرها أسماء عدد من القديسين المسيحيين مثل مار أفرام السرياني، ومار يعقوب السروجي، ومار يعقوب البرادعي. وفي عصر الحروب الصليبية كانت الرها أول إمارة صليبية تشكلت مع وصول الحملة الصليبية الأولى إلى سورية عام 1098م، وقد دامت هذه الإمارة قرابة نصف قرن حتى أنهاها عماد الدين زنكي عام 1149م وضمها إلى دولته[1].

(1) عن موقع ويكيبيديا على الإنترنت، وعدة مواقع أخرى.

التكوين الديني لعرب الشمال

إن ما قدمناه في بحث التكوين السياسي لعرب الشمال، يدل على أن العرب لم يكونوا منعزلين في مواطنهم، لأنهم دخلوا في خضم كل الأحداث التي كانت تجري في المنطقة. وهذا الانفتاح السياسي لابد أن يترافق مع انفتاح ثقافي، فقد كتب عرب الشمال بكل الخطوط المعروفة في زمنهم، قبل أن يعتمدوا خطاً خاصاً بهم. فكان الخط الآرامي أبكر الخطوط التي استخدموها في مدوناتهم، وذلك بنوعيه المبكر، قبل القرن السادس ق.م، والدولي بعد القرن السادس. وقد وجدت هذه المنقوشات الآرامية في شمال غرب العربية وفي منطقة الخليج وعددها 41 نقشاً، وهو رقم لا يستهان به إذا قورن بعدد المنقوشات التي وُجدت في آرام نفسها في الشام. ثم تبنى العرب الخط النبطي المستمد من الآرامي، وذلك تحت تأثير التوسع النبطي، وقد تم حتى الآن اكتشاف 1040 نقشاً نبطياً في مناطق مملكة قيدار في الجوف، وفي مناطق مملكة لحيان وددان في العلا، وفي تيماء وتبوك والقصيم، وهي أطول وأكثر غنى وتنوعاً من المنقوشات الآرامية. كما عثر في الجوف على نقوش قليلة بالخط التدمري. على أن الخط الأوسع انتشاراً كان الخط المسند اليمني الذي كتبت به ممالك العربية الجنوبية، وقد وجدت منه آلاف النقوش في جميع أنحاء العربية وفي الشام. ولم يخل الأمر من نقوش قليلة جداً باللغة العبرية واليونانية واللاتينية، ونقش واحد بالهيروغليفية المصرية[1] هذا الانفتاح الثقافي الذي عبّر عن نفسه في تعدد لغات المنقوشات الكتابية، عبر عن نفسه في الدين. فعرب

---

(1) المعلومات التي قدمتها هنا عن النقوش السابقة للعربية تستند إلى كتاب:

- سليمان الذيب: الكتابات القديمة في السعودية، الرياض 2018.

الشمال لم يكونوا غارقين في الوثنية التي حررهم منها الإسلام، والوثنية لم تستأثر وحدها بولاءات العرب الدينية. ولا أدل على ذلك من أن المانوية التي بشر بها النبي ماني انطلاقاً من موطنه بابل في أواسط القرن الثالث الميلادي، ووصل بها رسله خلال حياته شرقاً إلى الهند وغرباً إلى مصر، قد تم تبنيها من قبل ملك الحيرة عمرو بن عدي (270-300م) وعمل على نشرها. ويروي الجغرافي ابن رسته الذي أورد لنا هذا الخبر، أن بعثات تبشيرية قد انطلقت من الحيرة إلى العربية وشكلت هناك حلقات مانوية. كما يروي ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار ما يؤيد ذلك[1]. أما عن المسيحية واليهودية فسوف نقدم عن انتشارهما في بلاد العرب ملخصاً يفي بالغرض.

المسيحية لدى عرب الشام والعراق:

عندما يتحدث مؤرخو الكنيسة المسيحية القدماء (ويقتبس عنهم المحدثون) عن انتشار المسيحية في سورية وبلاد الرافدين، يقولون إن ذلك حصل في وقت مبكر جداً، وإن أول البطاركة السريان قد نزل كرسي المشرق بعد صعود المسيح بثلاثين سنة، وكان انتشار المسيحية بفضل الرسل الاثنين والسبعين الذين أرسلهم يسوع للتبشير خلال حياته. ولكننا في حقيقة الأمر لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الاثنين والسبعين ولا عن أعمالهم في الأناجيل الأربعة، ولا حتى في سفر أعمال الرسل الذي يتحدث عن نشاطات رسل يسوع بعد صعوده. والأغرب من ذلك أن الرسل الاثني عشر الذين اختارهم يسوع ليكونوا تلاميذه المقربين قد اختفى معظمهم من سفر أعمال الرسل، ولم يبق منهم سوى بطرس ويعقوب ويوحنا وفيلبس. وقد انضم إليهم تلاميذ جدد لم يعرفوا يسوع، منهم بولس وبرنابا ومرقس. وعندما انطلق بولس في رحلته التبشيرية الأولى ووصل إلى أنطاكية نحو عام 50م، لم يكن فيها كرسي للمشرق عليه أول بطاركة السريان.

---

(1) جيووايد غرين: ماني والمانوية، ترجمة سهيل زكار، دمشق دار حسان 1985، ص160-161.

إن المؤرخين المحدثين يعرفون الآن حق المعرفة أن انتشار المسيحية كان بطيئاً خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، وقبل أن يُصدر الإمبراطور الروماني قسطنطين من عاصمته الجديدة القسطنطينية مرسوم ميلان عام 313م (الذي أعطى فيه حرية الاعتقاد والعبادة لجميع الأديان في الإمبراطورية، وكان المسيحيون هم المقصودون بهذا المرسوم) لم تكن المسيحية سوى طائفة من طوائف شرقية عديدة كانت تتنافس على كسب ولاءات أهل الإمبراطورية، مثل عبادة ميترا القادم من إيران، وعبادة إيزيس وسيرابيس القادمين من مصر، وعبادة سيبيل المتأصلة منذ القدم في آسيا الصغرى، وعبادات آلهة يونانية/رومانية فقدت أصولها الأوليمبية وتحولت إلى عبادات خلاص روحاني ذات طابع سراني، مثل عبادة ديونيسيوس/زاغروس، وعبادة ديمتر وابنتها بيرسفوني، عندما كانت طقوس الاتحاد مع الإله المخلّص هي التي تمنح عباده خلود الروح في عالم آخر.

أما لماذا وقع المسيحيون تحت اضطهاد السلطات الرسمية من دون بقية الطوائف التي كانت تنشط بحرية، فلأن تلك الطوائف لم تصطدم مع الديانة الرسمية، ولم تسفه وتحتقر آلهتها أو تعتبر نفسها وحدها على حق والبقية على الباطل كما فعل المسيحيون.

إن انتشار المسيحية بالمعنى الحقيقي لكلمة «انتشار» لم يحصل إلا في سياق القرن الرابع الميلادي، وكل خبر عن انتشارها خلال القرن الأول عارٍ عن الصحة، لأن رسائل بولس الرسول التي تؤسس للاهوت المسيحي لم تكتمل حتى عام 68م، أما الأناجيل الأربعة فقد دون أولها نحو عام 70م وآخرها نحو عام 100م. ولكنها لم تكن وحدها المتداولة بين المسيحيين، بل شاركها في ذلك أناجيل أخرى كان أكثرها شيوعاً أناجيل طفولة يسوع وكذلك ميلاد السيدة مريم وحياتها. ومنذ أواسط القرن الثاني الميلادي بدأت الطوائف المسيحية الغنوصية تنتج أناجيلها الخاصة. وخلال القرون الثلاثة الأولى لا تتوفر لدينا دلائل على أن من ندعوهم بالمسيحيين كانوا يقرؤون كراساً يحتوي على نصوص اعتُبرت وحدها قانونية ومدونة بإلهام من الروح القدس.

وبما أن المسيحية انتشرت أولاً بين سكان المدن ثم في الأرياف، ثم بين الجماعات الرعوية (شأنها في ذلك شأن الإسلام فيما بعد) فإن انتشارها بين عرب الشام والعراق لم يتوضح قبل أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين. ومنذ ذلك الوقت صارت أسماء قساوسة عرب تظهر بين الموقّعين على قرارات المجامع الدينية، كما بدأت المصادر الإسلامية بإطلاعنا على أسماء القبائل والبطون التي دخلت في النصرانية، وبينها: ربيعة وغسان وبطون من قضاعة، وتغلب، وبطون من طيء، ومذحج، وبهراء، وسليح، وتنوخ، ولخم، وشيبان، وعبد القيس. وقد ورد في المصادر المسيحية ما يتقاطع مع هذه الأخبار. وتعبير، النصرانية الذي تستعمله المصادر الإسلامية هو التعبير الذي استخدمه النص القرآني في الإشارة إلى المسيحيين عموماً، لاسيما في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ التوبة 30، ولا علاقة له بطائفة مسيحية تحمل اسم النصارى كانت موجودة في بلاد العرب.

ومع تنصّر العرب المقيمين أو المتجولين في الشام والعراق، كان لابد من دخولهم في معمعة الصراع بين المذاهب، وتنافسها على اكتساب ولاءات المسيحيين لاسيما خلال القرنين الخامس والسادس. وقد توضح الانشقاق في صفوف المسيحيين في أواخر القرن الثالث، وعندما راح القس واللاهوتي المصري الإسكندراني آريوس ينشر أفكاره بخصوص طبيعة المسيح وعلاقته بالآب، والتي أحدثت جدلاً واسعاً بين الكهنة والعامة على حد سواء، في وقت نحا فيه اللاهوت المسيحي إلى تأليه كلمة الله يسوع وجعله مساوياً للآب. فقد قال آريوس إن الله واحد وسرمدي، كان ولم يكن معه شيء أو أحد يشاركه في ذاته. أما الكلمة /اللوغوس/ الابن فليس أزلياً ولا قديماً وجاء زمان لم يكن فيه موجوداً، فهو مخلوق أوجده الله وبه خلق العالم، وما بنوته لله إلا من باب التبني، وهو دون الله مقاماً.

وعندما صار المجتمع المسيحي على شفا فتنة عامة بسبب أفكار آريوس، تدخل الإمبراطور قسطنطين ودعا إلى مجمع مسكوني حضره قساوسة من جميع أنحاء الإمبراطورية عام 325 في مدينة نيقية بآسيا الصغرى، قرر حرمان أريوس ونفيه مع ثلاثة قساوسة من مؤيديه، وصاغ قانون الإيمان المسيحي الذي ورد في مطلعه:

«نؤمن بإله واحد آب، ضابط للكل، خالق للسماء والأرض وكل ما يُرى وما لا يرى. وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، مولود من الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل ما في السماء وما على الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد وتأنس وتألم، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وسيجيئ ليدين الأحياء والأموات بالروح القدس».

ولكن بعد وفاة كل من أريوس وقسطنطين، قام الإمبراطور قسطنطيوس/ Constantios وريث قسطنطين بتبني الآريوسية وصار كل كرسي أسقفي في الإمبراطورية إما أريوسياً أو شاغراً. وبعد وفاته لم تنقرض الآريوسية رغم ما وقع عليها من اضطهاد، وبقيت الفرق الآريوسية المتعددة تقاوم الفناء لاسيما في المناطق الشرقية من الإمبراطورية.

على أن قانون الإيمان في نيقية لم يحسم الجدل اللاهوتي في الكنيسة، لأن ما طرحه من أفكار كان قابلاً للتأويل على أكثر من وجه. وهذا ما قاد إلى تعدد المذاهب التي ظهرت بعد نيقية، وما يهمنا منها في الحديث عن تنصر العرب هو النسطورية والمينوفيزية.

تنسب النسطورية إلى الراهب نسطور الذي انتخب بطريركاً لكرسي القسطنطينية عام 421م، وهو لاهوتي من مدرسة أنطاكيا قال بوجود طبيعتين في المسيح طبيعة بشرية وأخرى إلهية لا يوجد بينهما اتحاد بل مجرد صلة؛ فقد ولد

إنساناً ثم سكنته الألوهة كما في هيكل إلى أن غادرته عند الصلب الـذي لم ينـل من جوهره الإلهي بل البشري، وبما أن الذي ولدته مـريم بشـر لا يحـق لهـا أن تدعى أم الله وإنما أم يسوع فقط.

وقد اعتبرت الكنيسة الرسمية أفكار نسطور خطراً على قانون نيقية، وجرى عقد مجمع إفسوس عام 431م الذي اعتبر نسطور مهرطقـاً وحرمـه وعزلـه عـن رتبته البطريركية، وطـورد أتباعـه فلجـؤوا إلى الأراضـي الـتي تحكمهـا الدولـة الساسانية. وقد انتشرت النسطورية في مملكة الحيرة وجنوب العـراق وفي باديـة الشام وبعض مناطق الجزيرة الفراتية.

أما المونوفيزية، أو مذهب الطبيعة الواحدة، فتقول بطبيعة واحـدة ليسـوع المسيح تحتوي على البشري والإلهـي دون امتـزاج أو اخـتلاط، لأن الإلهـي لا يمكن أن يمتزج بالجسد الإنساني الخاطئ، فهو مئة بالمئة إنسان ومئة بالمئة إله، وعندما يعبّر الإلهي عن حضوره يختفـي الإنسـاني وعنـدما يعـبر الإنسـاني عـن حضوره يختفي الإلهي. وقد دعيت المونوفيزية باليعقوبية أحياناً، وذلك نسبة إلى القس يعقوب البرادعي الذي عمل على انتشارها، فكانت مواطنـها الرئيسـية في الشام وفارس ومصر وأرمينيا. والسريان الأرثوذوكس في سورية مـا زالـوا علـى هذه المذهب وكذلك الكنسية القبطية في مصـر. وهـذان المـذهبان همـا اللـذان انتشرا بين القبائل العربية في الشام والعراق.

وقد كان للنُساك المسيحيين المعتـزلين في خلـواتهم دور مهـم في تنصير عرب الشام، فقد كان العرب يمرون بهم فيشفون مرضاهم وينقلون إليهم تعاليم المسيحية، أو ينزلون إليهم من أجل التبشير. ويتجلى تأثير هؤلاء النسّاك في قصة الملكة العربية ماوية. فقد كانت ماوية تحكـم علـى القبائـل العربيـة الضـاربة في جنوب بلاد الشام خلال أواخر القرن الرابع على ما ترويه المصـادر الكلاسـيكية (وربما كان هؤلاء هـم طلائـع الغساسـنة الـذين وصـلوا إلى الشـام نحـو ذلـك

التاريخ)، وكان ذلك أيام حكم الإمبراطور فالنس الذي كان آريوسياً بينما كانت ماوية مسيحية على المذهب المينوفيزي/ الأورثوذكسي، وقد نشأ نزاع بين ماوية وفالنس لأنه كان عازماً على تعيين أسقف أريوسي على قبيلة ماوية التي أرادت تعيين أسقف مونوفيزي يدعى موسى وهو ناسك متعبد في مناطقها. فأعلنت ماوية العصيان وانتصرت على قوات الإمبراطور في كل معاركها، فطلب فالنس الصلح ورضخ لمطالبها.

لم يكن أعراب ماوية كلهم على المسيحية، فقام القس موسى بنشاط كبير لتنصيرهم، ومنذ ذلك الوقت صار يُذكر في التاريخ الكنسي على أنه أسقف الساراسين/Sarasen، أي العرب وفق التعبير اليوناني. وقد كانت أسقفية موسى أول أسقفية عربية، وأول مؤشر على بدايات المسيحية في الشام، والتي يمكن اختصار تاريخها بالاستنتاجات التالية:

1- كانت المسيحية غالبة على عرب الشام، وقد تنصرت أغلب القبائل العربية فيها، وما تبقى يُرجح تنصره.

2- يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن الرابع منطلقاً لمسيحية عربية في الشام، وقد تواصل تنصر العرب القادمين حديثاً إلى عهد قريب من ظهور الإسلام.

3- من أقدم القبائل العربية الشامية تنصراً تنوخ وسليخ (منذ القرن الرابع والخامس)، ومن التي ثبت تنصرها بعد ذلك غسان وكلب وبنو عذرة وجذام وبهراء.

4- كانت كنيسة غسان هي الأقوى والأكثر تنظيماً بين كناس عرب الشام، وقد تركت لنا عشرات الأديرة والكنائس في سورية الجنوبية.

5- تنصر عرب الشام في غالبيتهم على المذهب المينوفيزي اليعقوبي.

6- على الرغم من أن تنصّر عرب الشام حصل على أيدي رهبان غير عرب، إلا أن بعض العرب قد استوعب مبادئ الديانة وتبؤوا مناصب كنسية عالية[1].

هذا عن الشام، أما عن العراق فقد بدأ الوجود العربي بالتوضح في سياق النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، عندما استقر الفرع الثاني من تنوخ في مناطق الحيرة والأنبار الجنوبية على الجهة الغربية للفرات، ثم تبعهم اللخميون الذين شكلوا دولة الحيرة خلال النصف الثاني من القرن الثالث، وبعد ذلك جاءت بطون من إياد وتغلب وبكر وقضاعة ومن قبائل أخرى. ولم يحلّ القرن السادس حتى كانت الجماعات العربية منتشرة من الحوض الأعلى لنهر الدخلة ومشارف الجزيرة الفراتية إلى الخليج العربي[2].

وفيما يتعلق بتنصر عرب العراق، تفيدنا المصادر الكنسية أن المسيحية جاءت من الشام خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، ثم رسخت أقدامها بعد مرسوم ميلان عام 313م الذي أعلن فيه الإمبراطور قسطنطين حرية العبادة لجميع الأديان في الدولة، وقرارات مجمع نيقية عام 325م، وصار بإمكاننا التحدث عن كنيسة عراقية تابعة لكنيسة أنطاكية السورية. وفي أواخر القرن الخامس تحولت الكنيسة العراقية إلى كنيسة للمشرق مستقلة عن كنيسة إنطاكية، وأخذت تدريجياً بالتحول إلى المذهب النسطوري، وذلك في ذروة الصراع بين النسطورية واليعقوبية. وكان للمبشرين النساطرة السوريين الذين لجؤوا إلى العراق هاربين من الاضطهاد الذي لحق بهم في الشام دور كبير في هذا التحول، عندما تبنت الكنيسة الشرقية المذهب النسطوري، وصارت الحيرة قلعة النسطورية، لاسيما في عهد ملكها النسطوري المتحمس النعمان الثالث (ت عام 613م)، ولكن اليعقوبية لم تنكسف وكان لها أسقف في الحيرة[3].

---

(1) الدكتورة سلوى بلحاج: المسيحية العربية وتطوراتها، بيروت 1995، ص32-46.

(2) المرجع نفسه ص46-49.

(3) المرجع نفسه ص50-60.

المسيحية لدى عرب الجزيرة :

1- نجران واليمن :

تزامن ظهور ممالك اليمن مع ممالك شمال غرب العربية: قيدار وددان ولحيان. فقد ظهرت أولى الممالك وهي سبأ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، تلتها حضرموت فقتبان فمعين، وأخيراً حمير التي دامت من عام110 قبل الميلاد إلى عام 525 ميلادي. وقد كان الحميريون وثنيون، ثم اعتنقوا اليهودية، وانتهت مملكتهم باستيلاء الجيش الإثيوبي على اليمن، وما تلا ذلك من استقلال الجنرال الإثيوبي أبرهة بحكم المنطقة وتحويله لحمير من اليهودية إلى المسيحية. استمر الحكم الإثيوبي لليمن خمسين سنة، وانتهى عام 575م عندما استطاع سيف بن ذي يزن طرد الأحباش بالتعاون مع الفرس الذين تحكموا بمقادير المنطقة حتى انتمائها لدولة الرسول في المدينة بعد دخوله مكة.

كانت نجران الواقعة تحت نفوذ ملوك اليمن الأبكر في قبول المسيحية وذلك منذ زمن الإمبراطور البيزنطي الآريوسي قسطنطينوس، الذي أرسل وفداً إلى حمير للتبشير بالمسيحية الأريوسية عام 356م. ولكن انتشار المسيحية كان بطيئاً بسبب معارضة ملوك حمير اليهود لها، والذي تجلى بأوضح أشكاله في عهد ذو نواس الذي تقول الأخبار أنه أحرق المسيحيين في نجران عام 523م، وقد شمل هذا الاضطهاد مراكز مسيحية عديدة في اليمن مثل ظفار ومخا ومأرب وحضرموت. ولكن المسيحية انتعشت بعد استيلاء الأحباش على اليمن ونشرهم للمذهب المينوفيزي الذي يدينون به، وبنائهم للكنائس التي كان أهمها «القِلّيس» التي بناها أبرهة في صنعاء.

وقد استمر بناء الكنائس خلال فترة السيطرة الفارسية، وكان أهمها كعبة نجران التي جاء منها قساوسة لزيارة النبي بعد فتحه مكة لمجادلته في مسائل لاهوتية، فدعاهم للمباهلة ولكنهم رفضوا، وقد انتهى الاجتماع بقبولهم دفع الجزية[1].

---

(1) المرجع نفسه ص68-77.

2- الأطراف الشرقية للعربية :

وهي المناطق التي عُرفت قديماً باسم البحرين والتي تمتد من رأس الخليج العربي عند مصب الفرات إلى مضيق باب المندب، يليها منطقة عمان. وقد ابتدأت المسيحية في البحرين كامتداد للكنسية النسطورية في الحيرة التي جاء منها المبشرون الأوائل، ونجحوا في تشكيل أسقفيات على طول الساحل الشرقي للعربية وجُزره، كان أبكرها أسقفية قطر أواسط القرن الثالث الميلادي. وفيما يتعلق بالمناطق الداخلية موطن الأعراب مثل بني عبد القيس وبكر بن وائل وبني دارم، فإن أقدم معلوماتنا عن الحضور المسيحي فيها تعود إلى أواسط القرن السادس الميلادي، وتتعلق بمدينة هجر التاريخية القديمة التي كانت مركزاً لأسقفية بمنطقة الإحساء اليوم. كما نشط النساطرة في بلاد عمان (أو مزون كما كانت تدعى في تلك الأيام)، بدلنا على ذلك وجود أسماء أربعة قساوسة عمانيين بين الموقعين على قرارات المجامع النسطورية. على أن أسقفيات البحرين وعمان لم تنصهر في كنيسة واحدة مستقلة عن الكنيسة النسطورية الأم بالعراق[1]. كما نبقى في حالة من عدم اليقين فيما إذا كان القبائل التي ذكرت المصادر عن تنصرها قد تنصرت كلها أم ببعض بطونها[2].

3- نجد واليمامة :

تأخر انتشار المسيحية في نجد حتى مطلع القرن السادس الميلادي عندما تنصر ملوك كندة من أبناء حجر آكل المرار المتوفى سنة 475م، وهو أول ملك لكندة وصلت أخباره إلى المصادر العربية على الرغم من تاريخها الطويل الذي يرجع إلى ما قبل الميلاد. وقد قام هؤلاء بدور تبشيري بوسط العربية خلال فترة سيطرتهم على قبائلها التي تتكون بشكل رئيسي من قبائل طيء وغطفان، وأسد، وتميم، وفزازة في نجد، وحنيفة في اليمامة. ولعل من أبرز الشواهد على تنصر

---

(1) المرجع نفسه ص77-81.

(2) المرجع نفسه ص81-84.

بني آكل المرار هو الدير الذي بنته هند بنت الحارث بن عمرو ملك كندة وأم الملك عمرو بن المنذر ملك الحيرة، وكتبت في صدره نقشاً تقول فيه إنها أمة المسيح وقد بنت هذا الدير لكي يغفر لها خطاياها ويكون معها ومع ولدها أبد الدهر. ولكننا لا نستطيع أن نعرف مدى انتشار المسيحية في نجد ولا البطون التي تنصرت من قبائلها. والشيء نفسه يمكن قوله عن اليمامة (التي تفصل بين نجد والبحرين)، فعلى الرغم من تنصّر سيد بني حنيفة هوزه بن علي (والد مسيلمة الكذاب) فإن الشواهد تنقصنا على مدى انتشار المسيحية بين رعاياه، لاسيما وأننا لم نلحظ وجود تنظيم كنسي واضح بين عرب نجد واليمامة[1].

4- الحجاز

لم تذكر التواريخ الكنسية شيئاً عن وصول بعثات تبشيرية مسيحية إلى الحجاز، على الرغم من أن الطريق التجاري الذي يخترق الحجاز صاعداً نحو الشام كان مزروعاً بالأديرة والمناسك. ويبدو أنه كان لرهبان هذه المناسك دور في دخول المسيحية إلى الحجاز، ولكننا لا نعرف على وجه الدقة مدى انتشارها من المراجع الكنسية بسبب عدم وجود كنيسة حجازية منظمة أو مراكز أسقفية. أما المراجع الإسلامية التي تؤكد على الحضور المسيحي فمقتضبة، فاليعقوبي يقول في تاريخه (الجزء 1 ص298): «وأما من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش، ومن اليمن طيء وبهراء» وتسير بقية المصادر الإسلامية على النهج نفسه في الاقتضاب والاختصار، فنعلم من أهل الأخبار أن قوماً من قريش تنصروا وهم من بني أسد بن عبد العزى (وعبد العزى هو الابن الثالث لقصي بن كلاب)، منهم عثمان بن الحويرث بن أسد وورقة بن نوفل بن أسد، وبما أن المذكورين هما من أشراف قريش، فقد كان لتنصرهم وزن في مجتمع مكة. ومن ثقيف تنصر الشاعر والخطيب أمية بن أبي الصلت، الذي تقول مصادر أخرى أنه كان على الحنيفية، وكذلك الحارث بن كلدة الملقب بطبيب العرب. ومن

---

(1) المرجع نفسه ص81-84.

الخزرج كان على المسيحية أبو قيس صرمة بن أنس من بني النجار الذي ترهب ولبس المسوح. ونعرف من السيرة ومن شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول عن حضور مسيحي في مدينة يثرب دون أن نتأكد من وزنه.

ولعل من أهمّ الدلالات التي تعنينا هنا هو وجود صورة عيسى المسيح وأمه داخل كعبة العرب في مكة بين رموز عبادات العرب مرسومة على الحائط الداخلي، على ما يذكر الأزرقي في كتابه «أخبار مكة»، فلما كان يوم فتح مكة ودخل النبي المسجد الحرام، أمر أحد الصحابة بطمس تلك الصور وقال أمحوا جميع الصور إلا ما تحت يديَّ، ورفعهما عن صورة عيسى بن مريم وأمه[1].

اليهودية في بلاد العرب:

لم تنتشر اليهودية في بلاد العرب عن طريق التبشير كما هو حال المسيحية، لأن اليهودية ديانة غير تبشيرية، وكان التهود يتم إما بقرار فردٍ أو أسرة أو مجموعة أفراد، أو بقرار أصحاب النفوذ الذي يتبعه تهود رعيتهم، أو بهجرة اليهود من مواطنهم الفلسطينية واستقرارهم في مواطن أخرى كما حصل ليهود جزيرة العرب. فلقد وفدت اليهودية إلى الديار العربية مع جماعات يهودية هاجرت إليها في موجتين؛ الأولى عقب الثورة اليهودية الأولى على الحكم الروماني (66-70م)، والثانية عقب الثورة اليهودية التي تلتها (132-135م). وقد قامت السلطات الرومانية بقمع كلا الثورتين بشدة بالغة وقتلت عشرات الآلاف من أهل مقاطعة اليهودية في فلسطين. وقد نجم عن الحروب الرومانية اليهودية خراب في المناطق الزراعية، وهجرة للآلاف من اليهود الذين توجه بعضهم إلى شمال غرب العربية وتوطنوا بين خيبر وتيماء ووادي القرى بينهما، وهي مناطق زراعية قامت فيها منذ القدم ممالك عربية قوية. كما توجهت موجة ثانية نحو يثرب التي كانت من مناطق الحجاز الخصبة. وكان اليهود في خيارهم هذا يبتعدون أكثر ما يمكن عن السلطة في الشام، في مناطق لا يطالهم فيها بطش الرومان وينعمون بالحرية الدينية. وبما

---

(1) الأزرقي، أخبار مكة، تحقيق رشدي ملحس، دار الثقافة، بيروت 1979، ص166.

أن هجرة يهود العربية قد حصلت قبل اكتمال التلمود، فإن يهوديتهم لم تكن تلمودية وإنما توراتية صافية. وقد عمل هؤلاء بالزراعة التي برعوا بها في فلسطين وانتجوا محاصيل متنوعة، كما عملوا في الصناعة الحديدية مثل أدوات الحرب والأدوات الزراعية، وفي صياغة الذهب والحلي، كما مارسوا الإقراض الربوي. وبمرور الأيام اندمجوا في المجتمع العربي وتسموا بأسماء عربية ولم يتميزوا عن العرب إلا بديانتهم، وببنائهم الحصون التي عرفوها في مواطنهم، فكان لكل موطن يهودي حصن أو أكثر يلجؤون إليه مع عائلاتهم أوقات الحروب فيقاتلون من وراء الأسوار. ونعرف عن هذه الحصون من السيرة النبوية، ومن القرآن الكريم سورة الأحزاب: 21.

أما في اليمن فقد دخلت اليهودية في عصر مملكة حمير عندما تهود ملوكها أواسط القرن الخامس الميلادي، وكان أشهرهم وأكثرهم تحمساً لليهودية يوسف بن شراحبيل (المعروف في المصادر العربية باسم ذو نواس) الذي اضطهد المسيحيين وإليه تعزى محارق المسيحيين في نجران. ولكن معرفتنا بمدى انتشار اليهودية في اليمن ضبابية لقلة الوثائق من داخل اليمن نفسها. ويبدو أن اضطهاد المسيحيين الذي مارسه ذو نواس كان السبب المباشر لقيام إثيوبيا المسيحية بغزو اليمن وابتداء العصر الحبشي فيها. وقد بقيت جماعة يهودية صغيرة في حضرموت حتى العصور الحديثة، وكذلك في نجران.

ديانات أخرى :

لدينا أخبار مقتضبة جداً عن وجود جماعات صغيرة متفرقة على المجوسية في العربية لاسيما في المناطق الشرقية، والمجوسية هي الصيغة المتأخرة للزرادشتية في إيران، ومن وجود أخرى على المانوية. أما في الحجاز فإن وجود سلمان الفارسي، وهو رقيق محرر، في مكة لا يمكن أن يكون حالة منعزلة.

* * *

الفهرس

صدر للمؤلف

1- **مغامرة العقل الأولى** : دراسة في الأسطورة ـ سورية وبلاد الرافدين ـ الطبعة الثانية والعشرين 2016.

2- **ملحمة جلجامش** : الطبعة الرابعة 1988.

3- **لغز عشتار** : الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ـ الطبعة الخامسة عشر 2016.

4- **الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم** : هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟ الطبعة السادسة 2016.

5- **دين الإنسان** : بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني ـ الطبعة الثامنة 2016.

6- **جلجامش** : ملحمة الرافدين الخالدة ـ الطبعة السابعة 2016.

7- **الأسطورة والمعنى** : دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ـ الطبعة السابعة 2016.

8- **آرام دمشق وإسرائيل** : في التاريخ والتاريخ التوراتي ـ الطبعة الخامسة 2016.

9- **كتاب التاو تي تشينغ** : إنجيل الحكمة التاوية في الصين ـ الطبعة الخامسة 2016.

10- **الرحمن والشيطان** : الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية ـ الطبعة السادسة 2016

11- **تاريخ أورشليم** : والبحث عن مملكة اليهود ـ الطبعة الرابعة 2016.

12- **مدخل إلى نصوص الشرق القديم** : الطبعة الثالثة 2016.

13- **الوجه الآخر للمسيح** : موقف يسوع من اليهودية ـ مقدمة في الغنوصية المسيحية ـ الطبعة الثالثة 2016.

موسوعة تاريخ الأديان (تحرير ومساهمة) في خمسة مجلدات:

14- المجلد الأول: الشعوب البدائية والعصر الحجري.

15- المجلد الثاني: الشرق القديم.

16- المجلد الثالث: اليونان وأوروبا قبل المسيحية.

17- المجلد الرابع: الشرق الأقصى.

18- المجلد الخامس: الزرادشتية، المانوية، اليهودية، المسيحية، الطبعة الثالثة 2016.

19- **طريق إخوان الصفاء** : المدخل إلى الغنوصية الإسلامية ـ الطبعة الثالثة 2016.

20- **الإنجيل برواية القرآن** : الطبعة الثالثة 2016.

21- **ألغاز الإنجيل** : الطبعة الثانية 2016.

22- **أساطير الأولين** : القصص القرآني ومتوازياته التوراتي ـ الطبعة الثانية 2016.

23- **الله والكون والإنسان** : نظرات في تاريخ الأفكار الدينية ـ الطبعة الأولى 2016.

24- **فصول من الفلسفة الصينية** : الطبعة الأولى 2018.

25- **عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود**: الطبعة الأولى 2021.

صدر له بالإنكليزية :

1- دراسة بعنوان :

Jerusalem in the Age of Judah Kingdom

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث الأميركي توماس .ل. تومبسون شارك فيه عدد من المؤرخين والآثاريين وصدر عن دار T&T Clark عام 2003 تحت عنوان:

Jerusalem in History and Tradition

2- دراسة بعنوان :

The Faithful Remnant and the Invention of Religious Identity

نُشرت في كتاب من تحرير الباحث البريطاني كيث .و. وايتلام شارك فيه عدد من الباحثين في تاريخ وآثار فلسطين وصدر عن جامعة Sheffield في بريطانيا عام 2013 تحت عنوان: The politics of Israel's Past

منشورات دولية :

- صدر له في بكين بالتعاون مع المستعرب الصيني الـدكتور شـوي تشـينغ قوه، ثلاثة كتب بالعربية والصينية تتناول الفلسفة الصينية وهي:

1- لاو تسي، كتاب التاو تي تشينغ.

2- كتاب الحوار لكونفوشيوس.

3- كتاب منشيوس.





دُعي الإسلام الذي وصلنا من القرون الهجرية الأولى لدى الباحثين الغربيين بالإسلام الأرثوذكسي، وهو مصطلح لا يحيل على الأرثوذكسية كمذهب مسيحي بل يتضمن معاني المحافظة وتقديس الماضي والخوف من الجديد، فمنذ القرن السادس الهجري والإسلام يعيد إنتاج نفسه، أو نسخ رديئة منه وأكثر مقاومة للتلاؤم مع معطيات عصرها، تجلت حديثاً في الإسلام السياسي الذي أنتج الفكر التكفيري والجهادي. لهذا فقد صار المسلمون الذين يتهيأون لدخول العصر الحديث، والمشاركة في إنتاج ثقافته بدلاً من استهلاكها أمام خيارين، فإما أن يدخلوا العصر بلا دين كما فعلت أوروبا عندما تركت الدين للتقوى الفردية وتحولت إلى مجتمعات لا دينية، أو أن يدخلوه مع الدين بعد مراجعة نقدية شاملة للموروث الديني بقضه وقضيضه، من أجل إسلام يليق بالعصر وأكثر اتفاقاً مع مقاصد القرآن الكريم. إن ما سيلي من فصول هذا الكتاب هو مساهمة في هذا المشروع، أقدمها بمنهجية مؤرخ أديان يرى إلى الإسلام في السياق العام لمسيرة الإنسان المعرفية.

من مقدمة المؤلف




ISBN 978-9933-654-52-8
9 789933 702533